الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة غرداية

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم التاريخ

مخبر الجنوب الجزائري للبحث
في التاريخ والحضارة الإسلامية

إسهامات حواضر المغرب الأوسط حضاريا من القرن 05-09هـ/11-15م الجانب المعماري نموذجا

[illegible]
تخصص تاريخ وسيط

إعداد الطالب:
مقني بن عودة

إشراف أ د:
يمينة بن صغير حضري

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
أ.د/ طاهر بن علي	أستاذ التعليم العالي	جامعة غرداية	رئيسا
أ.د/ يمينة بن صغير حضري	أستاذ التعليم العالي	جامعة غرداية	مشرفا ومقررا
أ.د/ إبراهيم بكير بحاز	أستاذ التعليم العالي	جامعة غرداية	ممتحنا
د/غرايسية عمار	أستاذ محاضرأ	جامعة حمة لخضر، وادي سوف.	ممتحنا
د/ عبد العزيز حسونة	أستاذ محاضرأ	جامعة زيان عاشور، الجلفة.	ممتحنا
د/بوعروة بكير	أستاذ محاضر أ	جامعة غرداية	ممتحنا

السنة الجامعية: 1444-1445هـ/2023-2024م

إهداء

إلى الوالدين الكريمين برا وإحسانا...

إلى زوجتي الكريمة ورفيقة دربي.

إلى كل أفراد عائلتي أدام الله حفظه لهم..

إلى مرابطي الأقصى الشريف أهدي عملي هذا.

شكر وعرفان

من لا يشكر الناس لا يشكر الله، وفي هذا المقام أتقدم بخالص تشكراتي إلى الأستاذة الدكتورة المحترمة يمينة بن صغير حضري التي قبلت الإشراف على هذا العمل وتوجيهها لي طيلة هذه السنوات، فلها كل الشكر والتقدير، وإلى الأساتذة المحترمين كل باسمه وجميل وسمه ورفعة مقامه، كما لا أنسى الأساتذة أعضاء اللجنة الموقرين الذين فبلوا مناقشة رسالتي فلهم جميعا جزيل الشكر والاحترام.

مقدمة

إن الدراسات التّي تتضمن موضوع الحواضر الإسلامية ببلاد المغرب الإسلامي تنوعت وتعددت وأسهب في ذلك العديد من المؤرخين والمؤلفين وبخاصة في الجانبين السياسي والعسكري، كما نال الجانب الحضاري قسطا وافرا من دراساتهم لحواضر المغرب الإسلامي، في حين نجد أن الحديث ضمن تلك الدراسات حول الجانب المعماري تجلى في الكثير من الأحيان بشكل عرضي وعام ونسبي دون الخوض بشكل مباشر في هذا الميدان ومرد ذلك أن الولوج في هذا الجانب يتطلب دراسة أثرية أكثر منها تاريخية كما أن الاهتمام بهذا الجانب جاء بعد فترات زمنية من الفتح الإسلامي، ففي البدايات الأولى للطلائع الإسلامية خلال فتوحاتهم لم يتعدى المسلمون في بناءاتهم العمرانية إنشاء المدن العسكرية والتحصينات والمعسكرات لجيوشهم فقط، وقد مثلت تلك القواعد العسكرية مجرد مواقع مؤقتة أو استراحة للجيوش لمواصلة عملية الفتح لباقي الأقاليم الأخرى، ولذلك فإن تلك المنشآت العسكرية لم تأخذ الطابع المعماري الخاص والمميز بل كانت بسيطة ومهامها الفعلية كانت وظيفية أكثر منها جمالية.

1- أهمية الموضوع:

أما فيما يخص الحواضر والمدن بمختلف أنماطها المعمارية وشتى ألوانها فقد تشكلت ببلاد المغرب الإسلامي بعد السنوات الأولى للفتوحات الإسلامية أي بعد الترسخ النهائي للإسلام والدخول في مرحلة الفتح الحقيقي والمنظم، وهنا تبرز أهمية الموضوع فقد كان المسلمون بعد السيطرة الفعلية على إقليم ما والتأكد من ذلك يبدءون في مرحلة تشييد المدن بشكلها الأولي بطراز معماري إسلامي صرف تبرز من خلاله خصائص العمارة الإسلامية، بخلاف تلك التي يضاف إليها توسعة لمدينة قديمة بعد أن يتم التأكد من حصانتها وجاهزيتها، فعلى سبيل المثال بنى عقبة بن نافع مدينة القيروان التّي كانت في الأصل قاعدة عسكرية وتحولت فيما بعد إلى مدينة إسلامية ذات مميزات وخصائص تأخذ الطابع الإسلامي بشكل واضح، كبناء الجوامع والكتاتيب بها والمساكن وفق المخطط الإسلامي ووفق طابع المسلمين.

وقد تلى بعد ذلك بناء العديد من الحواضر والمدن الإسلامية في كل أصقاع المغرب الإسلامي بداية من المغرب الأدنى وصولا إلى المغرب الأقصى ومرورا بالمغرب الأوسط حيث شهد هذا الأخير قيام العديد من الدول المستقلة به، بل كان أول انفصال عن الخلافة العباسية بإقليم المغرب الإسلامي ضمن المغرب الأوسط حين استقل بنو رستم واقتطعوا الجزء الأوسط من المغرب الإسلامي واتخذوه دولة لهم، وقد شرعوا في بناء مدينة تيهرت كعاصمة لدولتهم وأخذوا بكل سبل بناء المدينة والحاضرة بداية من الطرق والشوارع والمنازل الخاصة والعامة والأسواق وبناء الحمامات والفنادق حتى غدت تسمى عراق المغرب، ثم توالت الدول المستقلة ببقية أقطار المغرب الإسلامي كقيام والدولة الأغلبية بالمغرب الأدنى والدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى وقد اتخذت كل دولة عاصمة شكلت حاضرة لها.

وبعد قدوم الفاطميين لبلاد المغرب رحل الرستميون عن المغرب الأوسط متجهين نحو الصحراء وهناك حافظوا على بقائهم، لكن الفاطميين لم يطل بقاؤهم بالمغرب الإسلامي فرحلوا إلى مصر تاركين أمر المغرب الأوسط تحت حكم بني زيري، ومن هنا بدأ المغرب الأوسط في تشكيل مدن أخرى وقيام دول أخرى به مستقلة بهذا الإقليم وهي الدولة الحمادية التي اتخذت من مدينة القلعة بالمسيلة عاصمة لها، ثم بعد رحليهم إلى بجاية أسسوا هناك

حاضرة ومركز إشعاع حضاري شكلت خلالها مدينة بجاية منبرا للعديد من الدول وملتقى للعديد من الطلبة من مختلف الأصقاع، كما أن مدينة تلمسان هي الأخرى التي اتخذها بنو عبد الواد عاصمة لدولتهم الزيانية قد زخرت بمكانة علمية بارزة بالمنطقة، وقد شكلت هاتين المدينين (بجاية وتلمسان) حاضرتين علميتين بارزتين بالمغرب الأوسط خلال الفترة الممتدة من القرن الخامس الهجري الى العاشر الهجري، وقد اتسمت تلك العاصمتين بمواصفات فكرية وحضارية غلب عليها الطابع الإسلامي بالدرجة الأولى، وتميزت بخصائص معمارية شملت جميع مناحي الحياة، فالجانب الاجتماعي بنيت الدور الخاصة التي سكنها الأمراء والسلاطين كما بنيت إلى جانبها دور العامة التي كانت تختلف عن مساكن السلاطين وأصحاب الأموال واتخذت كل تلك المساكن طابعا خاصا وفق كل مدينة وموقعها الجغرافي إضافة إلى البناءات المدنية الأخرى كالفنادق والحمامات، أما بالنسبة للجانب الاقتصادي فقد شيدت الأسواق منها ما كان مكشوفا ومنها ما كان مسورا بأسوار وأبواب لتحديد مكانه والدخول ضمنه كما بنيت دور الصناعة والحرفيين والتي عادة ما تكون خارج المدينة إضافة إلى المحلات والدكاكين التي كانت لأصحابها التجار.

أمّا من الجانب العسكري والذي شمل بناء وتحصين المدن كبناء الأسوار والحصون والأبراج ودور صناعة السفن والأسلحة وأبراج المراقبة وقد خضعت تلك المنشآت العمرانية لشروط ضوابط وفق الموقع الجغرافي للمدينة، أما من الناحية الدينية فقد تميزت العمارة الدينية بالطابع الإسلامي بالدرجة الأولى فشملت تلك العمارة المساجد بالدرجة الأولى التي شكلت عصب الحياة لدى المسلمين بتلك الدول الإسلامية كالكتاتيب والمكتبات والزوايا والمؤسسات العلمية والتربوية.

وقد تميزت كل من مدينة بجاية و تلمسان بخصائص عمرانية غلب عليها الطابع الإسلامي بالدرجة الأولى وبخاصة بين القرنيين الخامس والعاشر الهجري وذلك خلال الفترة الزمنية التي تزامنت مع قيام الدولة الحمادية والزيانية في المغرب الأوسط كما وإننا سنلاحظ من خلال تطرقنا لتلك الخصائص التأثير والتأثر الذي شمل العمران بالمدينين فتلمسان تأثرت بالطابع الأندلسي والمغرب كما أثرت هي الأخرى من خلال الرحلات للمغرب الأقصى والأندلس فتزينت العدوتين بخصائص كل واحدة منهما، كما أن مدينة بجاية ضمت بين جنابتها ثقافة جزيرة صقلية ومدن جنوب ايطاليا التي تحمل في طياتها الثقافة المسيحية فحملت بذلك بجاية بعضا من تلك الثقافة وتجسدت في بعض المنشآت العمرانية كالكنائس التي بنيت ببجاية وبعض دور العبادة، كما أن التأثير الحمادي خاصة في طور العاصمة بجاية قد أثر بشكل بالغ في المدن الإيطالية فقد اتخذت الألقاب العربية ووضعت الأبواب والمعمار الإسلامي بشكل ملفت.

2-أسباب اختيار الموضوع

من أبرز الأسباب الدّاعية لاختياري لهذا الموضوع هو ما تعلق بالأسباب الذاتية والموضوعية.

أ-الأسباب الذاتية:

ساهمت فيها عوامل عدة تمثلت في انتمائي العربي الإسلامي وشغفي بالحضارة الإسلامية، خاصة في المغرب الأوسط، باعتباري أنتمي إليه وإلى حضارة إسلامية راقية.

ب-الأسباب الموضوعية:

وهو رغبتي في الكشف عن الخصائص والمميزات المعمارية لمدن المغرب الأوسط لا سيما حاضرتي بجاية وتلمسان، فهاتين العاصمتين تمكنتا من بلوغ قيم الحضارة، واصطلح عليهما لفظ حاضرتي(بجاية وتلمسان) بالطبع خلال فترة الدراسة لذا جاء عنوان أطروحتي كالتالي:

إسهامات حواضر المغرب الأوسط حضاريا من القرن 05-09هـ/11-15م الجانب المعماري نموذجا.

3-إشكالية الموضوع:

ونحن في هذه الدراسة، سنعالج ونركز بشكل كبير على الجانب المعماري الذي تميزت به حواضر المغرب الأوسط وإظهار نماذج منها، وللكشف والإجابة عن حيثيات هذا الموضوع وجدنا أنفسنا أمام إشكالية رئيسية وهي:

ما هي أهم الإسهامات الحضارية لحواضر المغرب الأوسط في مجال العمارة؟

- وقد اندرجت ضمن هذه الإشكالية الرئيسة عدة تساؤلات فرعية كان لابد من الوقوف عندها، ومن أهم تلك التساؤلات:
  - ما هي الحدود الجغرافية للمغرب الأوسط؟
  - ما هي دوافع اختطاط المدن؟
  - ما هي أبرز حواضر المغرب الأوسط؟
  - فيم تمثلت العمارة الدينية وما هي أهم مظاهرها ؟
  - ما هي أهم المنشآت العسكرية التّي خصّ به المغرب الأوسط في تلك الفترة؟

4-منهج الدراسة

وقد اتبعت في دراستي المنهج الوصفي الأثري، فقمنا بوصف المدن والحواضر الإسلامية بالمغرب الأوسط خاصة (بجاية وتلمسان)، ولم نغفل التطرق إلى بعض المدن الأخرى كمدينة قسنطينة وجزائر بني مزغنة، ووهران، وسدراتة وغيرها غير أن تركيزنا الأكبر كان حول الحواضر التي عرفتها بلاد المغرب الأوسط والتي كانت مركز الحكم والسلطة خلال فترة البحث مثل: بجاية وتلمسان، كما كان للمنهج المقارن حضور في الدراسة حيث اعتمدت عليه في المقارنة بين العمارة بكل أشكالها، إضافة إلى المنهج الإحصائي الذي ساعدني على إحصاء عدد من الأحياء والمساجد والجوامع بتلك الحواضر.

5-خطة البحث

وللإلمام بهذه الإشكالية وفروعها اتبعنا خطة بحث احتوت على المقدمة والتي عرفنا فيها بالموضوع، ثم جاء الفصل الأول تحت عنوان: المغرب الأوسط وحواضره، وقد ضم هذا الفصل أربة مباحث؛ الأول بعنوان: **موقع المغرب الأوسط وحواضره**، حيث تطرقنا فيه إلى الأقاليم التي شملها والحدود في الفترات التاريخية التي عاشها المغرب الأوسط. ثم جاء المبحث الثاني بعنوان تطور المدينة بالمغرب الأوسط، وفي هذا المبحث تطرقنا إلى الظروف والأسباب التي أدت إلى نشأة المدينة في المغرب الأوسط، أما في المبحث الثالث فكان بعنوان حواضر ومدن المغرب الأوسط قمنا بذكر أهم مدنه وحواضره كتيهرت والقلعة وبجاية وتلمسان وقسنطينة ووهران وغيرها، وقد ركزنا على حاضرتي بجاية وتلمسان، أما المبحث الرابع فجاء بعنوان أهم مقومات حواضر المغرب الأوسط .

أمّا الفصل الثاني فقد جاء بعنوان مظاهرالعمارة الدينية بالمغرب الأوسط، وفي هذا الفصل نجد تجليات العمارة في المغرب الأوسط وبخاصة العمارة الدينية ذات الطابع

الإسلامي، فالبداية كانت ببناء المساجد والتي كانت في بدايتها الأولى بسيطة المعالم ومع ترسخ الإسلام ببلاد المغرب أضحت تلك المساجد تشكل جزء مهم من الحواضر وأبدع المهندسون في تزيينها وزخرفتها وبنائها وأخذت طابعا عمرانيا جماليا بمرافقها المختلفة كساحة الصلاة والمآذن، وغرف التدريس وغيرها من مرافق المساجد.

كما أنّه من بين المنشات الدينية والتي لم يخلو منها حي من الأحياء الكتاتيب والتي شكلت النواة الأولى لتدريس اللّغة العربية والمبادئ الأساسية للإسلام، وقد اختلفت تلك الكتاتيب من مكان إلى آخر.

ومن جانبها المعماري فإن المدارس كانت أكثر تطورا واتساعا من الكتاتيب، غير أن الكتاتيب بقيت موجودة ومنحصرة على القرى والأحياء الصغيرة المنعزلة عن المدن الكبرى، كما عرجنا في هذا الفصل على الزوايا والتّي لم تكن موجودة في البدايات الأولى للفتوحات الإسلامية ولكن مع دخول البربر في الإسلام وظهور الدول الإسلامية بالمغرب الإسلامي واهتمامهم بالقرآن أنشأت هذه المؤسسة الدينية والتّي تهتم فقط بتدريس القرآن وتحفيظه، فانتشرت الزوايا في حاضرتي بجاية وتلمسان وهذه الأخيرة ظهرت فيها وانتشرت الزوايا بشكل كبير.

أمّا الفصل الثالث فقد جاء بعنوان العمارة العسكرية في المغرب الأوسط، وقد تطرقنا في المبحث الأول في هذا الفصل إلى البعد العسكري في اختطاط المدن وبنائها، إضافة إلى الظروف السياسية والأمنية للمنطقة المراد بناء تلك المدينة فيها، وفي المبحث الثاني من تطرقنا إلى المنشآت العسكرية بكل أنواعها وأشكالها وقد بدأنا بالأسوار وذلك نظرا لأهمية هذه المنشآت العسكرية فهي تشكل الدرع الأساسي لحماية المدن من الغارات والغزوات، كما تطرقنا للأبواب التّي كانت تخترق تلك الأسوار وقد تعددت هذه الأبواب واتخذت طابعا معماريا جميلا.

أما الفصل الرابع فقد جاء تحت عنوان: مظاهر لعمارة المدنية في المغرب الأوسط، والذي تطرقت فيه إلى دراسة مفصلة حول العمارة المدنية والتّي هي أول ما يكون في اختطاط المدن، ولكي نلمّ أكثر بجوانب هذا الفصل اندرج تحته عدة مباحث أولها: العمارة المدنية للقصور والأحياء، وقد شمل هذا المبحث دراسة حول المظاهر التي تجلت من خلالها العمارة المدنية وراعينا في ذلك كل الجوانب الشكلية الخارجية والداخلية وقد تطرقنا في هذا المبحث إلى تلك المظاهر وأنواع العمارة المدنية بكل أشكالها فعرجنا على القصور أولا والتي حوتها كل من الحاضرتين بجاية وتلمسان ومميزات كل القصور في كلا المدينتين كما أوردنا الفوارق بينهما، وأوردنا الأحياء معرجين في ذلك على كيفية بناء المساكن والمنازل الخاصة بالعامة وأحجامها وأشكالها وطرق بنائها، كما ضمّ المبحث الثاني مظاهر العمارة الاقتصادية للأسواق والفنادق والحمامات، حيث أبرزت الأهمية الحيوية لهذه العمارة المدنية من مختلف جوانب الحياة، وأثرها على حياة الإنسان في المغرب الأوسط.

6-الدراسات السابقة:

تناولت الأبحاث والدراسات هذا الموضوع بإسهاب كبير تجلى في التعريف بعمارة المغرب الأوسط خاصة والإسلامي عامة، وشملت جميع أنواعها لذا حاولت الاستفادة منها والإلمام بما يخدم موضوعي من رؤية تاريخية أثرية بغرض المساهمة في الإجابة عن التساؤلات المطروحة، ومن أبرز تلك الدراسات:

-محمد بن عميرة ولطيفة بشاري بن عميرة تاريخ بجاية، في ظل مختلف الأنظمة السياسية من عهد القرطاجيين إلى عهد الأتراك العثمانيين، تناول هذا الكتاب تاريخ مدينة بجاية من مختلف الجوانب وكان للجانب العمراني نصيب من هذه الدراسة.

-أدوار العمارة الدينية في المغرب الأوسط من القرن الخامس إلى التاسع هجري(ق11-15م)، مصطفى بن يحيى وقد تناول في مؤلفه هذا دور ومميزات العمارة الدينية في المغرب الأوسط، وبخاصة في الفصل الثاني حيث كان لي رجوع له لاسيما الكتاتيب والمدارس والمساجد.

-مقال بعنوان: **التطور العمراني والتجاري لمدينة بجاية في العصر الوسيط، لعلاوة عمارة،** تطرق فيه إلى أبرز التطورات التي حصلت لمدينة بجاية وأهم تلك المنشآت العمرانية بمختلف أشكالها خاصة منها الدينية والمدنية.

-مقال بعنوان: **التنقيب الأثري بموقع سدراتة أوهم اكتشافاته المعمارية، لفاطيمة جلجال،** تطرق فيه إلى موقع المدينة الجغرافي، وأهم المكتشفات الأثرية في المدينة.

-أمّا بالنسبة للأطروحات فنجد أطروحة **علوي مصطفى تحت عنوان تلمسان من خلال كتب الرحالة والجغرافيين،** والذي أسهب في ذكر كل ما يتعلق بمدينة تلمسان وقد ركز في دراسته هذه على الكتب الجغرافية وبين الاختلافات والفروق التي كانت موجودة سواء بالنسبة للحدود الجغرافية لها أو الأنظمة السياسية المتعاقبة على الدولة الزيانية وركز بشكل أدق على حاضرة تلمسان.

-أهم مصادر ومراجع الدارسة:

أ- كتب التاريخ العام

- وحتى نلمّ بشكل أكبر بجوانب الإشكالية المطروحة وحيثيات هذا الموضوع والدراسة اعتمدنا على مجموعة من المصادر والمراجع ساعدتنا في الوقوف وإخراج هذه الرسالة،والخروج من هذه المصادر والمراجع والرسائل الجامعية وبعض المقالات بكمّ وفير من المعارف والحقائق التاريخية التّي خدمت موضوعنا بشكل مباشر.

- من أهمّ هذه المصادر كتب التاريخ العام التّي لا يستطيع أي باحث في التاريخ الوسيط الاستغناء عنها بأيّ شكل من الأشكال وأبرزها:

-العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: لابن خلدون عبد الرحمن(ت: 808ه/1406م)، ويعدّ هذا المؤلف من أهمّ مصادر التاريخ الإسلامي في العصر الوسيط وخاصّة الجزء السادس،فقد ذكر بدء الدولة الصنهاجية وساعدنا بشكل مهم في معرفة التواريخ وأهم الأحداث السياسية التّي واكبت المغرب الأوسط وأمراء بني حماد وذكره لأهم الحواضر والمدن خاصة منها العاصمة القلعة وبجاية الناصرية، كما تطرق إلى تاريخ دولة بني زيان وقد أسهب في ذلك بما فيها العاصمة تلمسان فقد كانت هذه العاصمة بالنسبة له محطة استقرار و درس في عدد من مدارسها وجوامعها لذلك فإننا نجد أنفسنا أمام شاهد عيان لمدينة تلمسان، إضافة إلى إفادته لنا في موضوع القبائل سواء البربرية أو العربية وأماكن وجودها وتوزعها على المغرب الأوسط، كما يعتبر من المصادر الغنية بالمفاهيم والمصطلحات الخاصّة بالتاريخ الإسلامي، باعتباره موسوعة تاريخية شاملة.

-البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: لابن عذارى المراكشي والذي كان حيّا سنة 712ه/ 1312م، تناول هذا المؤلف الأوضاع السياسية لبلاد الأندلس والمغرب من بداية الفتح

الإسلامي إلى غاية أواخر العهد المرابطي بالمغرب الإسلامي ويعتبر من أبرز المصادر في التاريخ الإسلامي ومن أمّهات الكتب التّي روت لنا بالتسلسل الزمني التاريخ السياسي للمغرب والأندلس، وقد ساعدنا هذا المصدر في معرفة الحالة السياسية والترتيب الكرونولوجي لأهم السلاطين والحكام.

-بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد: لأبي زكريا يحيى ابن خلدون(ت: 780ه/1378م)، وقد جاء هذا المؤلف في جزأين ففي الجزء الأول تحدث يحيى بن خلدون عن مدينة بجاية منذ الفتوحات الإسلامية حتى سنة 754ه، فبعد تحدثه عن أصل بني عبد الواد وتأسيسهم للدولة الزيانية بتلمسان عرج على ذكر أوصاف مدينة تلمسان، وموقعها الجغرافي وأهم الدول التي أخضعت تلمسان لها وصولا إلى الدولة الزيانية كما أنه في جزئه الثاني تطرق إلى مدينة تلمسان والدولة الزيانية في عهد أبي حمو موسى الثاني، وقد كانت الاستفادة من هذا الكتاب تتمثل في تطرقه لوصفه الشامل والدقيق لمدينة تلمسان.

كتب المناقب الترجمة

ب-البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان: لصاحبه محمد بن مريم المديوني التلمساني (ت: 1020ه/1611م)، تضمن هذا الكتاب مجموعة من التراجم ل 182 ترجمة للصلحاء والعلماء وتقريبا كلهم عاشوا أو درسوا بتلمسان وبالرغم من أنّ هذا المصدر يركز على الحياة الثقافية والعلمية بشكل كبير فانه ساعدنا على معرفة بعض المنشات العمرانية خاصة منها الدينية التي درس فيها هؤلاء العلماء أو درسوا فيها.

ج-الكتب الجغرافية

-المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب: وهو جزء من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري(ت: 487ه/ 1094م)، والذي تضمن وصف العديد من المدن المغربية، من بينها مدينتي بجاية وتلمسان حيث أورد خصائصها الطبيعية وموقعها الجغرافي وبعدهما عن بقية الحواضر الأخرى وذكر الأبواب والعمارة بهما بمختلف أشكالها وقد وضع كتابه هذا معتمدا على الروايات وأخبار التجار كما اعتمد على كتاب محمد الوراق، كما استفاد من ملاحظات المسافرين الذين زاروا بلاد المغرب والأندلس وقد أصبح هذا المؤلف مصدرا لغيره ممن جاؤوا بعده كالحموي وابن خلدون وابن عذارى وغيرهم.

-نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، لأبي عبد الله الشريف الإدريسي ت(559هـ-1166م) الذي يعتبر من أهم الكتب الجغرافية في تلك الفترة خاصة القرن 6هـ/ 12م، والذي يحمل بين ثناياه خرائط الأقاليم والمدن ويمدنا بوصف دقيق لمدن وتضاريس بلاد المغرب وعرفنا بأسمائها.

-الاستبصار في عجائب الأمصار لمؤلف مجهول توفي في القرن 6هـ/12م، والذي يعتبر من أهم المصادر التي عرفتنا ببلاد المغرب من حيث المسالك والممالك

-الروض المعطار، لصحابه أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري، وقد أفادنا هذا المصدر في التعرف على المدن والقرى ومواطنها وقد حرص على الاختصار ولذلك نجده قد حذف ذكر المسافات والمسالك كما تكمن أهمية هذا الكتاب في احتفاظه بمعلومات من مصادر ضائعة كما أفادنا هذا المصدر بالتعرض للمدن خاصة الساحلية للمغرب الأوسط والتحديد الجغرافي لمنطقة الدراسة.

-وصف إفريقيا: للحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي(ت، 949ه-1537م)، وقد اهتم هذا المصدر بوصف كل المدن الإفريقية والتّي كانت في طريق رحلاته، كما لم يكتف بما شاهده

هو بل كان يدون أيضا ما يروى عليه من أخبار الأقطار والأمصار والأقاليم، وقد ساعدنا هذا المصدر في تحديد المجال الجغرافي للمغرب الأوسط ورسم حدوده في فترات زمنية متفرقة إضافة إلى ذكره ووصفه لمدينتي بجاية وتلمسان وذكر كل ما تعلق بأبعاده الجغرافية ومراحل كل واحدة منها كما لم يفته ذكر بعض الخصائص العمرانية للمدن التي ذكرها في مؤلفه بما فيها مدن المغرب الأوسط، كما أفادنا في معرفة بعض مدن وقبائل مدينة تلمسان.

ب-المراجع

-دولة بني حماد صفحة رائعة من تاريخ الجزائر، لعبد الحليم عويس والذي تطرق فيه لتاريخ الدولة الحمادية كما ذكر كل جوانب الحياة فيها السياسية والاجتماعية والثقافية وحتى العمرانية كما أورد تأسيس مدينة القلعة وأهم مميزاتها العمرانية وأهم دورها ومنشآتها العمرانية الفنادق وغيرها، كما ذكر رحيل بني حماد الى مدينة بجاية وأسباب ذلك، وأورد شيئا من عمرانها كوصفه لأبوابها ومساجدها ويعتبر هذا المؤلف من أبرز المراجع بل من أهمها في تأريخه للدولة الحمادية وأمرائها.

-تاريخ العمارة عبر العصور: لمؤلفة قبيلة المالكي وقد تطرق هذا الكتاب إلى تاريخ العمارة كلها عبر العصور بما فيها حضارات الشرق القديم، وقد أفادنا نحن في هذه الدراسة في تطرقه لتاريخ العمارة الإسلامية بمختلف ألوانها وأشكالها، فساعدنا في معرفة التعاريف العامّة لمختلف المنشآت العمرانية، وأصول بنائها وكل ما يتعلق بالعمارة سواء كانت عمارة دينية أو مدنية أو عسكرية.

-باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان: لصاحبه شاوش محمد بن رمضان، وقد أفادنا هذا الكتاب في التعرف على تاريخ تلمسان والدولة الزيانية والتعرف كذلك على بعض المنشآت العمرانية بها.

-تاريخ الدولة الزيانية، مختار حساني وقد تناول هذا المؤلف كل ما يتعلق بتاريخ الدولة الزيانية من كل جوانبها السياسية والاقتصادية والحضارية وقد عرج على في ذكره لتاريخ بني عبد الواد على الجانب المعماري خاصة مدينة تلمسان وذكر أهم المنشآت بها.

-الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، لرشيد بورويبة وقد استطاع هذا المؤلف أن يبرز لنا خصائص العمارة في الدولة الحمادية من خلال تطرقه لحضارتها وبخاصة في مدينة بجاية، فعالج أهم المقومات الحضارية والعمرانية بالمدينة مركزا على المنشآت الدينية والمدنية.

7- صعوبات الدارسة:

تدخل الدراسة ضمن تاريخ وحضارة المغرب الأوسط لهذا تطلب الأمر الإلمام بالجانب الأثري مما يحويه من مادة علمية، فكان فهم بعض المصطلحات الأثرية وفهم المنهج الأثري في الدراسة من بين الصعوبات في الدراسة التي واجهتني بالإضافة إلى تشعب الموضوع، لكن رغم ذلك حاولت أن أتقدم في هذا البحث وأجيب على مختلف التساؤلات التي وطئت بها موضوع دراستي

الفصل الأول: المغرب الأوسط وحواضره

المبحث الأول: موقع المغرب الأوسط وحدوده الجغرافية.

المبحث الثاني: تطور المدينة في المغرب الأوسط.

المبحث الثالث: حواضر ومدن المغرب الأوسط.

المبحث الرابع: أهم مقومات المغرب الأوسط.

المبحث الأول: موقع المغرب الأوسط وحدوده الجغرافية.

يقع المغرب الأوسط ضمن مجال جغرافي كبير وواسع يمثل الجناح الغربي للدولة الإسلامية، وهو ما يعرف بالمغرب الإسلامي، حيث تمتد حدود هدا الأخير من ضفة النيل بالإسكندرية[1] شرقا، إلى غاية المحيط الأطلسي ـ أو ما كان يسمى في العصر الوسيط ببحر الظلمات غربا، ومن بحر الشام[2] أو بحر الروم على اختلاف التسمية شمالا، إلى غاية بلاد السودان جنوبا، وهذا على حسب ما ذكره ابن عذاري المراكشي[3]، وقد جاء لفظ " المغرب " في كتاب " الكامل في التاريخ لابن الأثير عندما تحدث عن الخلاف الذي وقع بين سيدنا علي[4] رضي الله عنه والخوارج الذين قتلوا جماعة من أصحابه فخاطبهم بقوله:" ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم أقتلهم بهم، ثم أنا تاركم وكاف عنكم حتى ألقى أهل المغرب"[5] وقد كان يقصد أصحاب الشام حيث كانوا يتجهون غربا عند مسيرهم إلى بلادهم. بل إن الرواية التي أوردها ابن عذاري في البيان[6] عن لفظ المغرب تعود إلى أقدم من ذلك، فقد أورد أن النبي صلى الله عليه وسلم مدح أهل المغرب وذكرهم بخير وقد كان يقصد بلفظ المغرب الجهة الغربية للعالم الإسلامي آنذاك.

أما بالنسبة لحدود المغرب الأوسط، فهناك تباين واختلاف في روايات الجغرافيين والمؤرخين في رسم حدوده، ولعل هذا الاختلاف جاء نتيجة للصراعات السياسية والعسكرية التي كان المغرب الأوسط مسرحا لها، حيث كان يشهد توسعا تارة وانحسارا تارة أخرى في كثير من فترات تاريخه، وسوف نتعرض إلى ذكر أهم آراء المؤرخين والجغرافيين الذين ذكروا حدود المغرب الأوسط في مؤلفاتهم.

يعود أول ذكر للفظ المغرب الأوسط إلى كتاب أبي عبيد البكر (ت 487 هـ /1094م)فعند تقسيمه لبلاد المغرب الإسلامي جزأها إلى ثلاثة أقسام هي كالتالي: إفريقية

---

[1]الإسكندرية: مدينة بأرض مصر يقال أن الاسكندر هو الذي بناها وسماها باسمه، وهي مدينة برية بحرية لها مباني طويلة مرتفعة. ينظر: كاتب مراكشي من كتاب القرن 6هـ،الاستبصار في عجائب الأمصار، وصفة مكة والمدينة، ومصر، وبلاد المغرب. تع: سعد زغلول عبد الحميد، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، د،ت. ص:100.

[2]الشام: بلاد كثيرة وكور عظيمة، من مدنها فلسطين واليرموك وقنسرين وحلب وطبرية وطرابلس الشام والغور وغيرها، والشام اسم لجميع تلك الكُور. ينظر: محمد بن عبد المنعم الحميري،الروض المعطار في خبر الأقطار. تح: إحسان عباس، بيروت: مطابع هيدلبرغ، د،ت. ط:2، ص: 335.

[3]ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. ج:1، تح: ليفي بروفنصال، وكولان، بيروت: دار الثقافة، بدون ت، ص، ص:6،5.

[4]علي بن أبي طالب: بن هاشم بن عبد مناف، يكنى أبا الحسن، ابن عم النبيη ورابع الخلفاء الراشدين، توفي في رمضان سنة 40 للهجرة. ينظر: ابن عبد البر القرطبي:الاستيعاب في أسماء الأصحاب. مج: 3، تح: علي محمد البجاوي،بيروت: دار الجيل، ط:1، 1992م. ص: 1089، رقم: 1853.

[5]عز الدين بن الأثير الجزري: الكامل في التاريخ، مج:3، تح: أبي الفدا عبد الله القاضي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط:1، 1987م، ص:219.

[6]ابن عذاري، المصدر السابق، ص، 6.

وعاصمتها مدينة القيروان[1]، والمغرب الأوسط وعاصمته تلمسان[2]، والمغرب الأقصى من غرب تلمسان إلى حدود المحيط[3]، المعروف ببحر الظلمات، حيث أشار البكري إلى حدود المغرب الأوسط الغربية لكنه لم يشر إلى حدوده الشرقية.

ثم جاء بعده الجغرافي الشريف الإدريسي (560هـ /1164م) وذكر بأن حدود المغرب الأوسط بدايتها من مدينة بونة (عنابة) من جهة الشرق إلى غاية مدينة سويسرات (مستغانم) من جهة الغرب، فالإدريسي في تقسيمه هذا يرى بأن بلاد المغرب الأوسط في تلك الفترة هي ما كانت تحت حكم الحماديين الذين كانت عاصمتهم في بجاية، ويظهر ذلك في قوله عند حديثه عن بجاية: « وهي في وقتنا هذا مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد»[4]، وبالتالي فحدود المغرب الأوسط الغربية عند الإدريسي تنتهي عند مدينة سويسرات، مخرجا بذلك بقية المدن الغربية كتلمسان وغيرها من حدود المغرب الأوسط، أما الحدود الجنوبية له فلم يشر إليها ربما لعدم وضوحها في تلك الفترة.

أما صاحب كتاب الاستبصار (ق 10هـ/16م) فذكر بأن حدود بلاد المغرب الأوسط تبدأ بالقرب من مدينة مليانة شرقا، إلى غاية بلدة تازا من بلاد المغرب الأقصى غربا، أما في العرض فمن البحر الذي على ساحله (البحر المتوسط) إلى مدينة وارجلان وبقية مدن الصحراء المسامتة لها[5]، وهنا نرى أيضا بأن صاحب كتاب الاستبصار لا يتجاوز بتقسيمه هذا مدينة مليانة شرقا كحد أقصى للمغرب الأوسط، ولم يعتبر مدن الشرق كبونة وقسنطينة وبجاية تابعة للمغرب الأوسط .

أما ابن سعيد المغربي صاحب كتاب الجغرافيا (685هـ /1286م) فقد ذكر بأن بجاية هي قاعدة المغرب الأوسط، حيث عين حدوده الشرقية من بونة إلى غاية تلمسان غربا التي « هي الآن قاعدة بني عبد الواد من زناتة »[6] ورغم أن سلطان الحفصيين حكام المغرب الأدنى كان يمتد إلى غاية بجاية فإن ابن سعيد جعل هذه الأخيرة ضمن مجال المغرب الأوسط، واعتمادا على قول ابن سعيد المغربي فإنه يعتبر أكثر الجغرافيين الذين حددوا مجال المغرب الأوسط القريبة من مساحته الحالية.

---

[1]القيروان: هي قاعدة البلاد الإفريقية وأم مدائنها، وأكثرها بشرا وأيسرها أموالا، وأوسعها أحوالا. ينظر: الحميري، المصدر السابق، ص: 486.

[2] تلمسان: قاعدة المغرب الأوسط، وهي مدينة عظيمة قديمة، فيها آثار للأول، وهي دار مملكة زناتة. ينظر: الحميري، المصدر نفسه، ص: 135.

[3] البكري أبو عبيد، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب. وهو جزء من كتاب المسالك والممالك. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، د،ت.، ص:76.

[4]محمد بن عبد الله الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مجموعة من المحققين، مج:1، بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية، د. ت. ص: 222.

[5]مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، وصفة مكة والمدينة، ومصر، وبلاد المغرب. تع: سعد زغلول عبد الحميد، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، د،ت.ص: 176.

[6]ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا. تح: إسماعيل العربي، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط:1، 1970م. ص: 140.

ليأتي بعده الجغرافي الحميري صاحب الروض المعطار في القرن التاسع الهجري، محددا مجال المغرب الأوسط من وادي "مجمع" القريب من مدينة مليانة شرقا إلى مدينة تلمسان غربا، وذلك عند قوله: «تلمسان قاعدة المغرب الأوسط، وهي أول بلاد المغرب»[1] لكنه لم يتعرض لحدود المغرب الأوسط من جهة الشمال والجنوب، وربما يرجع عدم ذكره لحده الشمالي لأن البحر كان حده وهو شيء لم ير الحميري أنه يستحق أن يذكر، أما حده الجنوبي فقد كان مفتوحا على صحراء واسعة فلا يمكن تعيين حد معين بها.

ويذكر المؤرخ العلامة عبد الرحمن بن خلدون (808هـ /1406م) بأن حدود المغرب الأوسط تنتهي شرقا عند مدينة بونة، وغربا عند مدينة تازا، وقاعدة المغرب الأوسط هي تلمسان، وجعل ذلك كله في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة للأرض[2].

كما يشير الحسن الوزان (957هـ /1550م) إلى حدود المغرب الأوسط بأنها تبدأ من وادي ملوية غربا، إلى بجاية شرقا والتي كانت تتبع أحيانا لسلطة الحفصيين وتارة لسلطة الزيانيين[3] .

أما معاصره كربخال الذي عاش في شمال إفريقيا منتصف القرن العاشر الهجري، فيرى بأن حدود المغرب الأوسط تبدأ غربا من وادي ملوية إلى بجاية شرقا، حيث ذكر بأن إقليم بجاية هو: « عند خيرة الكتاب معدود في مملكة تلمسان»[4].

وبعد استعراض جميع هذه الآراء يمكننا أن نخرج بنتيجة عامة وهي أن حدود بلاد المغرب الأوسط كأقصى اتساع لها تبدأ من حدود وادي ملوية غربا لتنتهي شرقا عند مدينة بجاية، أما شمالا فهي تبدأ من ساحل البحر وتمتد إقليم توات جنوبا، وعلينا أن نشير إلى أن هذه الحدود لم تكن ثابتة، فقد كانت تتغير تبعا للظروف والتقلبات السياسية، لدلك لا يمكن بحال من الأحوال أن نرسم حدودا ثابتة لبلاد المغرب الأوسط في الفترة الوسيطة.

المبحث الثاني: تطور المدينة والعمران في بلاد المغرب الأوسط:

1- مفاهيم واصطلاحات حول العمارة :

تعتبر العمارة من المظاهر الهامة التي تبرز مكانة وتحضر الدولة، وإن وجودها بفنها المعماري دليل على وجود موروث وتأثيرات معمارية تعمل على صقل نوعية العمارة للأفضل، وبالحديث عن عمارة بلاد المغرب الإسلامي فلها أصول معمارية قديمة، كما أنها امتداد ولو بنوع من التشابه في الهندسة والزخرفة، وحتى البناء لبلاد المشرق الإسلامي والأندلس، وبالرجوع إلى سبب التشابه فهو وجود قاسم مشترك ألا وهو الدين الإسلامي،

---

[1] الحميري، المصدر السابق، ص: 135.

[2] عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة. مراجعة: سهيل زكار، بيروت: دار الفكر، 2001م. ص: 76.

[3] الحسن الوزان، وصف إفريقيا. ج:2، تر: محمد حجي، ومحمد الأخضر، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط:2، 1983م. ج:1، ص:16.

[4] مارمول كربخال: إفريقيا. ج2، تر: محمد حجي وآخرون، الرباط: دار الشروق للمعرفة1989م، ص: 375.

وتعاليمه الخاصة بمجال العمران والعمارة والفن، فلزمت ضوابطه الشرعية السيرورة في الحياة المعمارية ونظمت طرق وأماكن البناء وكيفية الزخرفة والفن، فإلى أي مدى ساهمت التعاليم الدينية في إظهار العمارة الإسلامية لبلاد المغرب الإسلامي بشكلها الحضاري؟

1.1المدينة والعمارة في المغرب الأوسط :

العمارة بمفهومها الواسع تتعدى مجال العمران، وأهم مظهر يبين صلة الحضارة فيهما هو المدنية المتشكلة فيهما، أما لمفهوم (المدينة، العمارة) عدة تعريفات حسب اختصاص من تعرض لهما بالتعريف، يمكن أن ندرج لهما تعريفاً في اللغة ثم الاصطلاح على النحو التالي:

1.1.1.مفاهيم في اللغة والاصطلاح حول المدينة والعمارة:

أ. المدينة:

المدينة في اللغة من كلمة مدَنَ، أقام، فعل ممات ومنه المدينة للحصن يبنى في أصمطة الأرض جمع مدائن ومُدُنْ، ومُدن، ومَدَّن المدائن تمديناً مصدرها، ومدين قرية شعيب عليه السلام[1].

يرى القزويني في المدينة أن وجودها يكون في حصول الهيئة الاجتماعية فلو اجتمعوا في الصحراء لتأذوا بالحر والبرد والمطر والريح، ولو تستروا بالخيام لم يأمنوا مكر للصوص والعدو؛ ولو اقتصروا على الحيطان والأبواب كما ترى في القرى التي لا سور لها لم يأمنوا صولة ذي بأس، فألهمه الله تعالى اتخاذ السور والخندق والفصيل، فحدثت الأمصار والقرى والديار، ثم أن الملوك الماضية لما أرادوا بناء المدن، أخذوا آراء الحكماء في ذلك فالحكماء اختاروا أفضل ناحية في البلاد وأفضل مكان في الناحية، وأعلى منزل في المكان من السواحل والجبال ومهب الشمال، لأنها تفيد صحّة أبدان أهلها وحسن أمزجتها[2]، القزويني في هذا المفهوم يجعل حاجة الإنسان الأنثروبولوجية؛ من تحصين وحذر وصحة، سبباً وجيها لما تظهر عليه المدينة من مظاهر عمرانية، أما عند اليوناني باوسينياسPausanias(ت 176م) أنها السلطة والجمنازيوم[3] والمسرح والسوق وماء الشرب، وتحديد الحدود وأعضاء أو ممثلون عن المدن في المجلس[4]، نفس المفهوم حول المدينة لدى اليوناني الذين يختلف في المكان والزمان عن البلاد الإسلامية، والمقصود أنها وجدت وتميزت بمظاهر العمارة وذلك لتلبية الحاجيات العامة والخاصة للساكنة.

---

[1]الفيروزآبادي: القاموس المحيط، بيروت: مكتب تحقيق مؤسسة الرسالة، (د،ط)، 2005، ص 1234. وابن منظور: لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، القاهرة: دار المعارف، ط 1981م، ص: 4161.

[2] زكريا بن محمد بن محمود القزويني: آثار البلاد وآخبار العباد، بيروت: دار صادر،(د،ط)، ص- ص: 7-8.

[3]جمنازيوم: صالة يتمرن فيها الطلاب على الألعاب الرياضية. ينظر: احمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، القاهرة: عالم الكتب، ط1، 1429هـ/2008م، ص: 400.

[4] محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (د،ط)، 198، ص 43.

أما ما ذكره محمد عبد الستار عند راتزل فالمدينة هي اتحاد طويل الأمد بين الجماعة والمساكن البشرية، تعطي مساحة كبيرة عند تقاطع ومفترق الطرق التجارية الكبرى[1]، كما أن المدينة الإسلامية عند القزويني تتميز بالمساجد والجوامع والأسواق والخانات والحمامات، ومراكض الخيل، ومطاعن الإبل، ومرابض الغنم، وبقية مساكنها لدور السكان[2].

كما أن هناك مفهوم أخر للمدينة مقارنة بالقرية على أن هذه الأخيرة هي ما عاش للزراعة وعلى الزراعة، وأن المدينة هي ما ليس كذلك؛ أساس الفرق هو نمط الحياة، فالحرفة الأولية تشمل مدينة بالطبع كالتعدين، وأحياناً قطع الأشجار، وصيد الأسماك، وإنما الزراعة وحدها أساس هي نقيض المدينة[3]، لكن يذكرها ابن خلدون

على أن الأمصار الصغيرة والقليلة الساكن فأقواتهم قليلة لقلة العمل فيها، وما يتوقعونه لصغر مصرهم من عدم القوت، أما الصنائع الأمصار الموفورة العمران[4]، ويرجع الأمر في ذلك إلى كثرة الحاجة في المدينة لعدد الكبيرة للساكنة فيها.

ب. العمارة:

العمارة هي تشيد وبناء وإصلاح وتعمير عكسه هدم وخراب لقوله تعالى في سورة التوبة[أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[5].العمارة لغة مأخوذة من الفعل عَمّر والعمر بالفتح وبالضم يقال: العمره، والعمر اسم لمدة عمارة البدن بالحياة فهو دون البقاء[6]أما العمارة اصطلاحا: فهي أكثر النشاطات صلة بتجسيد الواقع الحضاري لأمة كأنها تقوم بتحديد النمط الحياتي والسلوكي خلال تأثيراتها المباشرة على البيئة البشرية وعكسها للمفاهيم والرموز المادية والمعنوية في أي فترة تاريخية[7]، كما يمكن أن تكون أسلوب لتوجيه الحركة داخل الفراغات، وهي فن علمي لإقامة الكتل في أبعادها الثلاثة بشرط توفير

[1] محمد عبد الستار عثمان، المرجع السابق، ص: 12.
[2] القزويني، المصدر السابق ، ص: 8.
3 جمال حمدان:جغرافية المدن، القاهرة: عالم الكتب، ط2، (د، ت)، ص: 10.
[4] عبد الرحمان بن خلدون: المقدمة، تح: عبد الله محمد الدروسي، دمشق: دار يعرب، ط1، 1425هـ-2004م، 26.
[5] سورة التوبة الآية19 .
[6]محمد بن محمد الحسين، محمد بن محمد الحسين: تاريخ العروس في جواهر،بيروت: دار الهداية، 2002ص: 23.
[7]محروق إسماعيل: العمارة الإسلامية في كتب رحالة المغرب الإسلامي من القرن 7هـ إلى القرن 10هـ 13 /م حتى 16م .، كلية العلوم الإنسانية، جامعة تلمسان ، 2018، ص: 91.

احتياجات الناس[1]، وهي الحي العظيم تنفر بإقامتها ونجعتها، وجمعها عمائر، قال الجوهر: والعمارة القبيلة والعشيرة[2] أما فن العمارة فيعرف بأنه الفضاء المحصور بين الجدران[3]

يقدم لنا ابن خلدون مفهوما للعمران فيصفه بأنه ((التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجة لما في طباعهم من التعاون على المعاش، ومن هذا العمران ما يكون بدويا وهو الذي يكون في الضواحي والجبال، وفي الحلل المنتجعة في القفار وأطراف الرمال، ومنه ما يكون حضريا وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن للاعتصام بها والتحصين بجدرانها))[4]، وكذلك يقول: ((اعلم أن المدن قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه، فتؤثر الدعة والسكون وتتوجه لاتخاذ المنازل للقرار، ولما كان ذلك للقرار وللمأوى وجب أن يرى فيه دفع المضار بالحماية وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها))[5]العمارة كانت أهم مطلب للإنسان في حياته لذلك أوجد البيت أو المنزل أو الدار، والتي هي مسميات يمكن أن تختلف نوعا ما في مفهومها إلا أن لها نفس المدلول، كما ظهرت المدن ودعت الحاجة إلى تحصينها، وظهرت المساجد، وبحصول الحضارة والترف ظهرت الفنون التي أبهرت في مظاهرها فن العمارة الإسلامية.

يقول الباحث قبيلة فارس المالكي نقلا عن أرنست بوردين في كتابه Pesign: A Resorce Architectural Visual في تعريفه للعمارة: هو ذلك الدافع الغريزي عند الإنسان للبناء بغرض الالتجاء، فقد اعتدنا على التفكير في المبنى كمأوى، ومسكن يعيش فيه الإنسان ومكتب يعمل فيه، ومكان مقدس للعبادة، وميادين وأبنية أخرى للترفيه، فالأساس بالالتجاء أمر غريزي، ولذا يظهر لنا أنه من الطبيعي أن غالبية المباني التي تغص الأرض توفر المأوى، والملجأ والمنفعة، وأنها توفر ما نسميه العمارة[6].

أما التقيُد بمصطلح العمارة الإسلامية فهو يحتم نمطية التزامها في بنائها بتعاليم الإسلام، وينطبق تعريف العمارة الإسلامية في تلك الحالة على المباني المقترنة بخدمة العقيدة فكراً وممارسة لغرض ديني، وليست العمارة تجسد عقيدة الإسلام وحسب، بل هي العمارة الناطقة بهوية الحضارة الإسلامية المعبرة عن العلاقة بين العقيدة والمجتمع، والملبية لحاجيات المسلمين سواء الدينية كالمساجد والزوايا، أو المنازل والكتاتيب، ولمعالجات معمارية متنوعة أكسبت تلك المنشآت سمة مميزة من إقليم لآخر ومن مصر لمصر[7]، كما أن

---

[1]يحي وزيري: موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1991، ص: 21.

[2]أحمد البهنسي:عمارة المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، رسالة دكتوراه،كلية العلوم الإنسانية، جامعة عين شمس، . 1996. ص: 234.

[3] يحي وزيري، المرجع السابق، ص: 21.

[4]عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص: 34

[5] المصدر نفسه، ص: 33.

[6] قبيلة فارس المالكي: تاريخ العمارة، الأردن: دار المناهج للنشر والتوزيع، ط1، 1432هـ-2011م، ص: 15.

[7]مجموعة كتاب وباحثين:فنون العمارة في المدينة الإسلامية، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط 1، 2019م، ص-ص: 13-14.

تاريخ العمارة عبر العصور إنما هو دراسة للعمارة من خلال التاريخ فتكون سجلاً له شاهداً على صدق رواياته[1].

من خلال هذه التعريفات المستقاة من مصادرها المختلفة نجد ذلك التداخل المفاهيمي بين المصطلحين (المدينة- العمارة)، فالمدينة من مظاهرها العمارة وكلاهما فيهم التشييد والبناء والحاجة الإنسانية، كما أنا وجودها وازدهارها يكون شاهدا لمدى بلوغ الحضارة والرقي في المجتمعات، حيث يعتبران من مصادر التأريخ للمجتمعات الإنسانية الغابرة بصفة عامة، ولا نستثني بلاد المغرب الأوسط التي يمكننا الخروج من خلال دراستنا بعدة مظاهر حضارية انبثقت عن مجال العمران.

كما أن المدن التي أسسها المسلمون مثل البصرة والكوفة في العراق والفسطاط في مصر معسكرات وقواعد لمواصلة الجهاد، ونشر الدعوة، وكان أول من بنى فيها المسجد الجامع ودار الإمارة، ثم تقسيم المدينة إلى أقسام أو خطط تنزل كل قبيلة فيخطه ما تلبث أن تتحول إلى أحياء معمورة، تتخللها الطرق التي تؤدي إلى المسجد الجامع في وسطها[2]، لذا فإن وجود «المدن والأمصار من عوائد الترف والحضارة»[3]، وذلك لتوفر جّل الصنائع التي تلبي الحاجيات.

أما أمصار وبلاد المغرب الإسلامي بما فيها المغرب الأوسط، فقد كانت هذه «الأقطار للبربر منذ ألاف السنين قبل مجيء الإسلام، وكان عمرانها كله بدوياً، ولم تستمر فيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها، والدول التي ملكتهم من الإفرنج والعرب لم يطل أمد ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة، وأيضاً فالصنائع بعيدة عن البربر لأنهم أعرق في البداوة والصنائع من توابع الحضـارة»[4]، ويذكر في نفس الصدد أن «إفريقية والمغرب لم يكن فيها قبل الإسلام ملك ضخم»[5]، فلم تعرف البلاد تواجد لإمبراطوريات أو ملك واسع للسكان الأصليين، ما عدى الاحتلال القديم الذي كان تواجده في المناطق الشمالية من كل بلاد المغرب، لذا فإن المدن في بلاد المغرب الأوسط قليلة[6]، كما أن ابن خلدون يحدد استحكام الحضارة وبروزها في تعاقب الملوك في المصر واحداً بعد الأخر فتزداد بذلك وتترسخ[7]، كما يذكر محمد الطمار من خلال حديثه على الجغرافيين أن المغرب الأوسط عرف تطوراً

[1] قبيلة فارس المالكي، المرجع نفسه، ص 15.
[2] مجموعة كتاب: المرجع السابق، ص: 18.
[3] ابن خلدون: المصدر السابق، ص 247
[4] ابن خلدون: المصدر نفسه، ص 28.
[5] ابن خلدون،المصدر نفسه، ص: 44.
[6] محمد الطمار: المغرب الأوسط في ظل صنهاجة، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية،ط، 2010، ص: 145.
[7] ابن خلدون: المصدر السابق، ص: 43.

كبيراً فيما يخص العمران والاقتصاد وبلغ أوج ازدهاره في عهد الدولة الحمادية، وفي أوائل العهد الموحدي أيضاً[1].

إن من سوء حظ بلاد المغرب الأوسط أن عواصمها القديمة وكثير من مدنها المشيدة أثناء القرون الوسطى قد اندثرت، بل منها مالا يعرف موقعها الآن، فمن العواصم نذكر بالخصوص تاهرت، وأشير، وقلعة بني حماد، الناصرية أو بجاية، وسدراتة العاصمة الثانية لبني رستم بالصحراء، وهناك مدن عديدة قد أصابها ما أصاب هذه العواصم من الهدم والتخريب، بحيث خلت من السكان واندثر كل ما كان بها من العمران، ومن تلك المدن فلنذكر على الخصوص طبنة، الواقعة قرب بريكة الحالية، وحمزة (البويرة حاليا)، ومتيجة وقزرونة (البليدة الآن)، والخضراء (عين الدفلى الآن)، وشلف، وتاجنة التي هي بالقرب من تنس وتاهرت القديمة، والعباسة التي كانت بالقرب منها، والبطحاء التي كانت قرب غليزان الحالية، وتاسالة الواقعة في سفح الجبل الذي سميت باسمه من ناحية سيدي أبي العباس، وهناك مدن اندثرت لا يعرف موقعها بالضبط كقصر عجيسة، ومرسى الدجاج[2].

كما يمكن الإشارة إلى التأثير الأندلسي في عمارة بلاد المغرب الإسلامي وبالخصوص المغرب الأوسط في مجال العمارة والبناء، وظهر خاصة في العهد المرابطي والموحدي، إذ استجلب يوسف بن تاشفين المرابطي من قرطبة عدداً من الصناع إلى مدينة فاس لبناء وترميم مساجدها وسقايتها وحماماتها وخاناتها، وقد استفاد المرابطون من التقاليد المعمارية الأندلسية، واقتبسوا أنظمتها الفنية المعمارية[3]، لذا فإن «البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف والدعة»[4]، وهذا ما تجلى في تخطيط بيوت الصلاة في المساجد التي شيدوها بالمغرب الأوسط، مثل جامع تلمسان، أما في العهد الموحدي فظهر التأثير واضحاً للحضارة الأندلسية على المباني والمنشآت، ولذلك ظهرت بصمات المهندسين والفنيين الأندلسيين بمدينة تلمسان في الناحية العمرانية منذ العهد المرابطي والموحدي[5].

المبحث الثالث: حواضر ومدن المغرب الأوسط :

احتوت بلاد المغرب الأوسط على العديد من المدن والحواضر التي برزت في مجاله الجغرافي، ولعبت دورا حضاريا في تكوين شخصية مستقلة لكيانه، وفي هذا الفصل سوف

[1]محمد الطمار، المرجع السابق، ص: 156.
[2]الحاج محمد بن رمضان شاوش: باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة بني زيان، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط 2011م، ج1، ص: 156.
[3]محمد سعيداني: الأندلسيون وتأثيراتهم الحضارية في المغرب الأوسط من القرن السابع، إلى القرن التاسع الهجريين من القرن الثالث عشر إلى الخامس عشر الملاديين، أطروحة دكتوراه، إشراف: أ.د محمد بن أحمد، جامعة احمد بن بلة وهران، 1436-1437هـ - 2015-2016م، ص: 168.
[4]ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص: 08.
[5]محمد سعيداني، المرجع السابق، ص: 168.

نحاول معرفة حدوده الجغرافية والتعريف ببعض المدن والحواضر التي ورد وصفها في المصادر الجغرافية والتاريخية وما احتوته من مظاهر حضارية.

1 مدينة بجاية:

تعد مدينة بجاية من بين أهم مدن المغرب الأوسط نظرا لموقعها الجغرافي الذي بنيت فيه، فهي تقع على ساحل البحر المتوسط، كما أنها تحتوي على ميناء طبيعي مكنها من لعب دور الوسيط التجاري، بين مدن المغرب الأوسط وبقية دول أوربا، وقد ورد ذكر بجاية ووصفها في العديد من المصادر التاريخية والجغرافية،فقد أشار إليها الادريسي بقوله: « ومدينة بجاية على البحر، لكنها على جرف حجر ولها من جهة الشمال جبل يسمى أمسيون، وهو جبل سامي العلو صعب المرتقى.....والسفن إليها مقلعة وبها القوافل منحطة، والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة، والبضائع بها نافقة، وأهلها مياسير تجار، وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد »[1]، كما أن غناها بالثروة الغابية مكنها من أن تكون قاعدة صناعية بامتياز، فقد أقيمت ببجاية دارا لصناعة السفن التجارية والحربية نظرا لكثرة ووفرة الأخشاب في أوديتها وجبالها بالإضافة إلى ما ازدهرت به من بقية الصناعات الأخرى مثل صناعة المواد الطبية، التي كانت تستخرج من النباتات التي تنمو في جبالها، مما جعلها قطبا تجاريا مهما لكثير من البلدان والمدن المجاورة على غرار: إيكجان وبلزمة وسطيف وباغاية وقالمة وتبسة وبسكرة وطبنة[2].

كما كانت بجاية تتمتع بميناء كبير محمي طبيعيا جعلها طريقا هامة من طرق المواصلات التجارية[3]، ومفعما بحركة النقل البحري، أما عن أصل التسمية وضبطها فيقول ياقوت الحموي: «بجاية بالكسر وتخفيف الجيم وألف وياء، وهاء: مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب»[4] وقد تعددت الأسماء التي أطلقت على هذه المدينة منها: بغايت، وبجاية وهي تسمية لقبيلة من البربر يسمون بهذا الاسم، إلا أن الكاف فيهم بلغتهم ليس كافا بل هي بين الجيم والكاف،[5] صلدة وهواسم أطلقه الفينيقيون، ثم غيره الرومان بعدهم إلى صلداي، وسماها بعدهم الوندال قورايا التي تعني الجبل[6]، ثم لما شيدها الناصر بن علناس سماها باسمه الناصرية وبنى بها قصر اللؤلؤة[7] لكن الأوروبيين أطلقوا عليها اسم بوجي التي

---

[1]محمد بن عبد الله الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مجموعة من المحققين، مج:1، بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية، د. ت. ص، ص: 260،259.

[2] الإدريسي، الدولة الصنهاجية. تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من ق10م- 12م. تر: حمادي الساحلي، بيروت: دار الغرب الإسلامي 1992م. ط: 1. ج: 2 ، ص: 259.

[3] الهادي روجي إدريس:الدولة الصنهاجية. تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من ق10م- 12م. تر: حمادي الساحلي، بيروت: دار الغرب الإسلامي 1992م. ط: 1. ج: 2 ، ص: 107.

[4]ياقوت الحموي،معجم البلدان، ج:1، بيروت: دار صادر1977م. ص: 339.

[5]عبد الرحمن بن خلدون: العبر. ج:6، مرا: سهيل زكار، بيروت: دار الفكر،2001م. ص: 231.

[6]بوتشيش أمينة: بجاية دراسة تاريخية وحضارية ق 6 -7 هـ . رسالة ماجستير إشراف عبدلي لخضر، قسم التاريخ جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان 2007- 2008م . ص: 01.

[7]لسان الدين ابن الخطيب: أعمال الأعلام. القسم الثالث، تح: مختار العبادي وابراهيم الكتاني، الدار البيضاء: دار الكتاب 1964. ص: 96.

تعني الشمعة لأن بجاية اشتهرت بصناعة الشمع فكان تجار غرب حوض البحر الأبيض المتوسط يستوردونه منها، فبقي هذا الاسم متداولا إلى يومنا هذا[1].

وقد اختلفت آراء المؤرخين حول سبب بناء بجاية، حيث يرى الإدريسي أنها عمرت بخراب القلعة التي بناها حماد

بن بلكين[2] أي بعد هزيمة سبيبة التي وقعت سنة 457هـ، وخوفه من البقاء فيها لأنها صارت هدفا لغزوات العرب الهلاليين، بينما يرى ابن الأثير أن سبب بنائها كان رغبة الناصر في القرب من مدينة المهدية بإفريقية دار ملك بني عمومته أبناء زيري ليستطيع غزوهم، وذلك بإشارة من الوزير الزيري محمد بن البعبع[3]، وهو نفس السبب الذي ذكره النويري في نهاية الأرب[4] وأيده الباحث بورويبة[5] بقوله: « ... ونظن أن السبب الرئيسي لتشييد بجاية هو أن الناصر كان يريد فتح المهدية....لذلك اختار مرسى مأمونا أقرب إلى إفريقية من المراسي الموجودة في بمملكته، وواقعا في ناحية غنية بالحديد والغابات تسمح له بإنشاء الأسطول الذي يحتاج إليه لتحقيق مشروعه»[6]. وعلل ذلك ببقاء القلعة عاصمة ثانية لبني حماد، حيث شيد فيها الأميران الحماديين عدة مباني مشهورة بها.

ويبدوا أنه يوجد اختلاف بين المؤرخين في السبب الداعي إلى بناء مدينة بجاية، فبينما يرى البعض أن بناء بجاية كان ملجأ للحماديين الفارين من هجمات الهلاليين، يرى البعض الآخر أن بجاية تمثل توسعا لسلطتهم، وقد حاول الباحث عبد الحليم عويس التوفيق بين هاته الآراء بقوله: «في تصورنا أن... خراب القلعة كنتيجة لموقعة سبيبة كان هو الباعث على التفكير في بناء عاصمة جديدة...وفي فترة التفكير في موقع العاصمة الجديدة يمكن أن تكون قصة ابن البعبع قد حدثت... كما لا شك أن من أهداف العاصمة الجديدة حماية الدولة الحمادية من غارات الهلاليين وإتاحة مكان أفضل لها بالنسبة لمنافسيها في تونس، ولا نجد أكثر وضوحا وإيجازا في إبراز سبب تعمير بجاية من عبارة الادريسي: وأما مدينة بجاية في ذاتها فإنها عمرت بخراب القلعة التي بناها حماد»[7]، وبهذا يكون هذا الرأي الذي ذهب إليه هذا الباحث قد جمع بين الآراء المختلفة ووفق بينها.

2- مدينة بونة:

[1] بوتشيش أمينة، المرجع السابق ، ص: 01.

[2] الادريسي، المصدر السابق، ص، ص: 259، 260.

[3] عز الدين بن الأثير الجزري: الكامل في التاريخ، مج:8، تح: أبي الفدا عبد الله القاضي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط:1، 1987م،، ص:374.

[4] شهاب الدين النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب. ج:24، تح: عبد المجيد ترحيني، بيروت: دار الكتب العلمية 2004. ط:1. ص: 124.

[5] رشيد بورويبة: الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية 1979م. ص: 68.

[6] رشيد بورويبة، المرجع نفسه، ص: 68.

[7] عبد الحليم عويس: دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري. القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع،1991م. ط: 2، ص، ص:99، 100.

وتسمى ببلد العناب وذلك لكثرة ما يزرع بها من أشجار العنب، وقد كان أهلها يتخذون من خشبه سقفا لبيوتهم ووقودا لنيرانهم، وهي من بناء الأول كما جاء وصفها في المصادر الجغرافية، وقد ذكرها الحميري بقوله: « وهي من بلاد افريقية قريبة من فحص قل وهي مدينة قديمة من بناء الأول وبها آثار كثيرة وهي على ساحل البحر.... وقد سورت بعد الخمس والأربعمائة »[1]،، أما سكانها فهم من البربر مثل قبيلة مصمودة وأوربة وغيرهما[2]، بلغ عدد ساكنيها أواخر الفترة الوسيطة حوالي ثلاثمائة كانون على حسب تعبير الحسن الوزان[3]، وكانت في القديم مركزا قرطاجنيا ثم أصبحت مرسى رومانيا تحت اسم هيبون[4].

وأشار العبدري ـ الذي عاش في أواخر القرن السابع وبداية الثامن الهجري ـ أن موقعها على ساحل البر كان سببا في تعرضها لهجمات النصارى الذين كانوا يقومون بأسر المسلمين وطلب الفدية منهم[5]، وهو ما يؤكد قول الإدريسي أن بونة كانت في فترة من فترات تاريخها تحت حكم روجار ملك صقلية[6].

3- مدينة قسنطينة :

يتضح من اسمها أنها تنسب إلى قسطنطين القيصر الروماني(حكم 306- 337 م) والذي جدد بناءها، وكانت تسمى قبلها قرطة فحرف الرومان اسمها الفينيقي إلى سيرتا[7]، وقد أضاف مؤرخ قسنطينة ابن المبارك رأيا آخر فقال: « اختلفت الأقوال فيمن بناها فقيل بناها قسطنطين الذي بنى القسطنطينية العظمى التي اسمها اليوم إسلامبول... وقيل بناها عامل على وطن إفريقيا.... والصحيح أنها مدينة قديمة بناها الذي بنى مدينة قرطجنة بنيت في زمن عاد من قبل إبراهيم عليه السلام»[8]، وهي قلعة كبيرة جدا حصينة «عالية لا يصلها وهي من حدود افريقية مما يلي المغرب إليها ينتهي رحيل عرب افريقية مغربين في طلب الكلأ»[9]، وتسميها بعض المصادر الجغرافية قسنطينة الهواء[10] وذلك بسبب وقوعها في قمة شاهقة، حيث يحيط بها الوادي من جميع الجهات كالعقد مستديرا، وهي من أحصن البلاد[11] نظرا لعلوها ووقوعها فوق جبل شاهق، ولهذا كانت تسمى الحصن الإفريقي، حيث بنيت على

---

[1]الحميري، المصدر السابق، ص: 115.
[2]البكري، المصدر السابق، ص، ص: 54، 55.
[3]الحسن الوزان، المصدر السابق، ج:2، ص: 61.
[4]أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، 1350هـ، ص: 223.
[5]أبو عبد الله محمد العبدري. رحلة العبدري، تق: سعد بوفلاقة. الجزائر: منشورات بونة للبحوث والدراسات. ط: 1، 2007م. ص: 66.
[6]الإدريسي، المصدر السابق، ص: 291.
[7]أحمد بن مبارك العطار: تاريخ بلد قسنطينة. تح: عبد الله حمادي، قسنطينة: دار الفائز للطباعة والنشر والتوزيع2011م. ص: 95.
[8] أحمد ابن المبارك العطار، المرجع نفسه، ص: 13.
[9]ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص: 349.
[10]ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص: 142.
[11] الإدريسي، المصدر السابق، ص ص: 94 – 96.

طرفي صخرة، وتطل على الهاوية من جهاتها الثلاث، ماعدا الجهة الرابعة فإنها متصلة بالأرض[1] وقد صارت تابعة للدول التي تعاقبت عليها كالحماديين والحفصيين، وقد قدر الحسن الوزان عدد ساكنيها بحوالي ثمانية آلاف نسمة، ووصفها بأنها مليئة بالدور الجميلة والبناءات المحترمة[2] أكثرها من الحجارة المنحوتة[3] مما يدل على أنها من آثار الأمم السابقة.

4-مدينة الجزائر:

يقول البكري عن مدينة الجزائر: « جزائر بني مزغنى مدينة جليلة قديمة البنيان فيها آثار للأول وأزاج تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم..... ولها أسواق ومسجد جامع»[4] وتتمتع المدينة بمرسى مأمون تتدفق فيه عين عذبة يقصدها أصحاب السفن من الأندلس وافريقية وغيرها من البلاد، وبمدينة الجزائر أسواق عامرة ويتصل بها فحص متيجة الواسع الكثير الخصب الذي تشقه الأنهار[5] وذكرها العبدري على عادته بوصفه المسجوع فقال: « وهي مدينة تستوقف بحسنها نظر الناظر، ويقف على جمالها خاطر الخاطر، وقد حازت مزيتي البر والبحر وفضيلتي السهل والوعر، لها منظر معجب أنيق، وسور معجز وثيق»[6].

أما عن سبب تسميتها بالجزائر فيرى الحسن الوزان بأنها سميت بذلك بسبب مجاورتها لجزر ميورقة ومنورقة ويابسة، وأن الاسبانيين يسمونها ألجي، أما بني مزغنة فلأن هذه القبيلة هي من بنت المدينة فأطلق عليها القدماء هذا الاسم[7] ويصفها بأنها مدينة كبيرة جدا وأسوارها رائعة ومتينة تزيد من حصانتها ضد أي هجوم محتمل، ومساكن أهلها جميلة وأسواقها واسعة ومنسقة لكل حرفة مكان خاص بها، كما كانت تتوفر على عدد لا بأس به من الفنادق مما يدل على أنها كانت قبلة للزوار والتجار الذين كانوا يقصدونها لقضاء حاجاتهم، كما لا ننسى جامعها الكبير المطل على شاطئ البحر وأمامه ساحة جميلة جدا.[8]

بينما ينقل إلينا توفيق المدني رأيا آخر حول سبب تسمية مدينة الجزائر فيقول: بأنها كانت في القديم تسمى إيكوسيوم، ولم تكن ذات أهمية أيام الاحتلال الروماني، ثم تعرضت للتخريب من طرف الوندال، وصارت مستقرا لقبيلة بربرية تسمى بني مزغنة، وخلال القرن العاشر الميلادي أسس بلكين زيري بن مناد الصنهاجي في ذلك المكان مدينة سماها جزائر

[1] أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص: 231.
[2] الحسن الوزان، المصدر السابق، ج:2، ص: 56.
[3] العبدري، المصدر السابق، ص: 58.
[4] البكري، المصدر السابق، ص: 66.
[5] الحميري، المصدر السابق، ص: 163.
[6] العبدري، المصدر السابق، ص: 49.
[7] الحسن الوزان، المصدر السابق، ج: 2، ص: 37.
[8] الحسن الوزان، المصدر نفسه، ج: 2، ص: 37.

بني مزغنة لأن صخورا في البحر كانت تقابل المدينة[1] وقد انعدمت اليوم لأنها استخدمت في أعمال المرسى.

5-مدينة مليانة:

مدينة مليانة من المدن القديمة تقع في موقع حسن، وبجنوبها يقع جبل وانشريس،[2]وقد جددها زيري بن مناد الصنهاجي من جملة ما جدده من المدن الأخرى أسكن بها ولده بلكين وهي مشرفة على فحص كبير وبها أسواق عامرة[3] تقع مليانة بين تنس والمسيلة وبقرب نهر شلف، وهي مدينة آهلة بالسكان، وتحتوي المدينة على آبار عذبة، وأسواقها عامرة، وبها مزارع وفحوص كثيرة الخصب تسقى من وادي شلف[4]، ويذكر الحسن الوزان أن أصل بنائها يعود للرومان وقد سموها ماكنانة لكن العرب حرفوا هذا الاسم وسموها مليانة، وتبعد عن البحر بنحو أربعين ميلا، تحيط بها أسوار عالية، أما دورها فهي متقنة الصنع وبها سقايات جميلة[5] وهي تقع على رأس جبل زكار الغربي، واستمرت عامرة طيلة أيام العرب[6]، وقد وصفها العبدري في رحلتها عندما زارها بقوله: «البلدة الخصيبة مليانة وهي مدينة مجموعة مختصرة وليست مع ذلك عن أمهات المدن مقصرة، أشرفت من كثب على وادي شلف»[7] وتكاد تجمع المصادر التاريخية أن مؤسسها هو بلكين بن زيري الصنهاجي.

6-مدينة وهران:

قال ياقوت الحموي في المشترك بأن لفظ وهران: « بفتح الواو وسكون الهاء وراء وألف ونون، وهران مدينة لطيفة في بلاد البربر من أرض المغرب بينها وبين تلمسان سرى ليلة على ضفة البحر»[8] وهي من أعظم المدن الجزائرية عمرانا واتساعا وحركة، وبها أسواق مقدرة وصنائع كثيرة.... وهي تقابل مدينة ألمرية من ساحل بحر الأندلس[9] وهي ذات مياه سائحة وأرحاء ماء وبساتين ولها مسجد جامع، وبناها محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الأندلسيين[10] ومنها كانوا يحملون ما يحتاجونه من سلع[11]....

كان اسم وهران في القديم إيفري الكهوف إلى أن هاجر إليها الأندلسيون وأسسوا مدينة وهران الحديثة سنة 902هـ، وقد اشتهر مرساها الكبير ـ الذي لا مثيل له ـ شهرة

---

[1]أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص ص: 206، 207.
[2]الإدريسي، المصدر السابق، ص: 253.
[3]البكري، المصدر السابق، ص: 69.
[4]الحميري، المصدر السابق، ص: 547.
[5]الحسن الوزان، المصدر السابق، ج:2، ص: 35.
[6] أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص:240.
[7] العبدري، المصدر السابق، ص: 47.
[8] ياقوت الحموي، المشترك لفظا والمفترق صقعا، بيروت: عالم الكتب، ط: 2، 1986م. ص: 337.
[9]الادريسي، المصدر السابق، ص: 252.
[10]البكري، المصدر السابق، ص: 70.
[11]الحميري، المصدر السابق، ص: 613.

عالمية واسعة خاصة أيام الخليفة الموحدي عبد المومن بن علي الذي جعله مرسى لأسطوله ودارا للصناعة[1]، وقد قدر الحسن الوزان في مطلع العصر الحديث عدد سكانها بحوالي 6000 بيت، وأرجع بنائها إلى الأفارقة الأقدمون على شاطئ البحر، حيث تتوفر على كل مميزات المدينة المتحضرة من مساجد ومدارس وملاجئ وفنادق وحمامات[2] وكل ما تحتاجه المدينة من مرافق.

7-مدينة وارجلان :

كانت هذه المدينة مركز عبور بين بلاد المغرب الأوسط وجنوب الصحراء، فقد كانت محط رحال الاباضية بعد هروبهم من عاصمتهم تيهرت في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، وعند وصولهم إلى وارجلان أسسوا بها قرى كثيرة أهمها سدراته، ثم بعد أن رحلوا عنها إلى وادي ميزاب أو ما يعرف بغرداية حاليا حل بواركلان كثير من الزنوج ونشأت بها مملكة زنجية[3]، وقد ذكر الادريسي بأن أهلها كانوا مياسير وتجارا أغنياء تربطهم ببلاد السودان الغربي تجارة واسعة، وغالب أهلها كانوا على مذهب الخوارج النكار الوهبية[4].

وكانت ورقلة مشتهرة بواحات النخيل وكثرة البساتين الخصيبة، وصفها الحميري فقال: « وهو بلد خصيب كثير النخل والبساتين، وفيه سبع مدائن مسورة حصينة بعضها قريب من بعض، وهي كثيرة الزرع والضرع والبساتين والمياه»[5] كما أن أهلها كانوا يتعاملون بالعملة المرابطية المضروبة من الذهب[6]، في تجارتهم وتعاملاتهم.

8- مدينة سدراتة:

كانت هذه المدينة ملجأ للاباضيين عند خروجهم من تيهرت هاربين من بطش الشيعة العبيديين الذين سيطروا على المغرب الأوسط سنة (296هـ /820م)، فنزلوا أولا بوارجلان حيث تلقاهم جمع من أهلها ثم قصدوا مسجد سدراته فتلقاهم إمامه واسمه صالح جنون[7] وهو من علماء الطبقة السابعة[8] حيث كان شيخ الاباضية بوارجلان خلال حكم الرستميين، وهو من قام بدعوة يعقوب بن أفلح بإقامة دولة للاباضيين بالمنطقة[9]، وكانت له مساهمات فعالة

---

[1] أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص ـ ص: 245 ـ 247.
[2] الحسن الوزان، المصدر السابق، ج: 2، ص: 30.
[3] أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص: 240.
[4] الإدريسي، المصدر السابق، ص: 296.
[5] الحميري، المصدر السابق، ص: 600.
[6] الإدريسي، المصدر السابق، ص: 296.
[7] أبو زكريا يحي بن أبي زكريا: سير الأئمة وأخبارهم. تح: إسماعيل العربي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1984م. ص: 188.
[8] أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني: طبقات المشائخ بالمغرب. تح: إبراهيم طلاي، ج: 1، ص: 144.
[9] أبو زكريا يحي، المصدر السابق، ص: 105.

في تنشيط الحركة العلمية بها حتى وفاته، وتخليدا لذكراه فقد سميت المقبرة التي دفن بها باسمه[1] ولا تزال مزارا للاباضية إلى الآن.

ويبعد موقع سدراتة الأثري[2]بحوالي 800كلم جنوب الجزائر العاصمة حاليا، وما يقارب 14كلم جنوب غرب مدينة ورقلة، مشرفا على مصب واد مية ومتربعا على مساحة تقارب 02كلم، وامتداد يصل إلى1600م في اتجاه شمال-غرب، جنوب شرق، تحيط به من الجهة الجنوبية والجنوبية الغربية سلسلة من التلال تعرف محليا باسم (قارة) وأشهرها قارة كريمة، في حين تتوزع أطلال معالمه في شكل مجموعة من التلال يتراوح ارتفاعها ما بين 140.99م إلى 150.10م،[3] لكن للأسف فإن مدينة سدراتة لم تعد موجدة اليوم سوى بعض المعالم والأطلال الباقية لتدل على وجود مدينة وسيطية كانت تعج بالحركة والحيوية لمدة ثلاثة قرون في جنوب المغرب الأوسط قبل أن تتعرض للتخريب والهدم على يد المنصور الحمادي خلال القرن 5هـ/11م، ثم الهجوم الثاني على يد إسحاق الميورقي خلال القرن 7هـ/13م أثناء حملته على وارجلان.

9- مدينة المسيلة:

اختلفت المصادر حول من بنا مدينة المسيلة، حيث يذكر الحسن الوزان أنها عتيقة بناها الرومان على بعد مائة وأربعين ميلا من بجاية في تخوم صحراء نوميديا[4]، بينما يقول الإدريسي أن المسيلة مستحدثة، استحدثها علي الأندلسي في ولاية إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب[5]، أما الحميري فيرجع تأسيسها إلى أبي القاسم إسماعيل بن عبيد الله الشيعي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة للهجرة، من بلاد الزاب بالمغرب بالقرب من قلعة أبي الطويل[6]، وكان هدف بناءها عسكريا في بادئ الأمر وهو مراقبة القبائل الخارجة عن طاعة الدولة الفاطمية مثل قبيلة مغراوة المتحالفين مع الأمويين في الأندلس، وبنو برزال حلفاء الرستميين[7]، ويكثر بالمدينة النخيل وبساتين الفاكهة التي تشقها الأنهار ذات المياه العذبة، وهي من أهم مدن سهل الحضنة وقد كانت في العصر الوسيط ذات مكانة فكرية وأدبية كبيرة، على عهد الحماديين[8] ومن أهم القبائل التي كانت تقطن بها نذكر: بنو برزال، هوارة، صدراتة، مزاتة وعجيسة[9] وغيرها....

10- مدينة أشير:

---

[1]الدرجيني، المصدر السابق، ص: 154.

[2]علي حملاوي (2001)، آثار الدولة الرستمية بالجزائر، مدينة سدراتة الأثرية، مجلة العربي، العدد517، وزارة الإعلام، الكويت، ص: 84، 85.

[3] جلجال فاطمة: التنقيب الأثري لموقع سدراتة (ورقلة) وأهم اكتشافاته المعمارية مجلة دراسات وأبحاث، المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد: 15، عدد: 1 جانفي 2023. ص - ص: 476، 490.

[4] الحسن الوزان، المصدر السابق، ج:2، ص: 52.

[5]الإدريسي، المصدر السابق، ص: 254.

[6]الحميري، المصدر السابق، ص: 558.

[7]مختار حساني: الحواضر والأمصار الإسلامية الجزائرية. عين مليلة: دار الهدى2011م. ج:1، ص: 105.

[8]أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص: 238.

[9]الإدريسي، المصدر السابق، ص: 254.

بينها وبين مدينة المسيلة مرحلة واحدة، وعي عبارة عن حصن منيع يقع في بلاد الزاب بناها الأمير الحمادي زيري بن مناد الصنهاجي لذلك يقال لها أشير زيري حيث تم اتخاذها عاصمة للدولة الحمادية قبل انتقالهم إلى العاصمة الجديدة بجاية[1] وقد كانت أشير في الأصل مدينة قديمة بناها الأولون وتركوا فيها آثارا عجيبة بنوها بين جبال شامخة تحيط بها[2]، وفي سنة 1153م قام الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي بهدم أشير[3] حتى لا يتخذها أعداؤه مركزا وقاعدة للفتنة والاضطراب.

11- مدينة تيهرت:

وهي تنقسم إلى مدينتين كبيرتين أحداهما قديمة رومانية عبارة عن حصن تسكنه قبيلة بربرية تسمى برقجانة، وأخرى حديثة بنيت على سفح جبل جزول، وهي مدينة يحيط بها سور به ثلاثة أبواب هي: باب الصبا، وباب المطاحن، وباب الأندلس، ولها أسواق عامرة وحمامات كثيرة[4] وقد بناها عبد الرحمن بن رستم واتخذها عاصمة لدولته، وكان يسكنها عدد من القبائل البربرية، ولها جامع كبير ينكون من أربع بلاطات، كما أنه كانت بها قلعة عظيمة تطل على سوقها، وكان بها حوالي اثني عشر حماما، ولها سور من الحجر به ثلاثة أبواب[5]، تؤدي إلى اتجاهات مختلفة، وكانت تيهرت عاصمة سياسية وثقافية في عهد بني رستم ويتبع لها الكثير من المدن كمنداس ووهران وشلف والبطحة وتنس[6] وغيرها من المدن والقلاع التي تحيط بها.

12- مدينة تلمسان:

لعل أحسن من جمع شتات أخبار هذه المدينة من المصادر ورتبها هو صاحب باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، فذكر بأن تلمسان تم اختطاطها من طرف أمراء بني يفرن الزناتيين وكان اسمها في البداية أكادير، وفي أواخر القرن الثاني للهجرة صارت تسمى تلمسان وهي لفظة مركبة تعني أنها تجمع بين التل والصحراء[7]، وهي مدينة عريقة في القدم بها آثار الأمم السالفة ومنها آثار رومانية مما يدل على أن الرومان قد سكنوا هذه المنطقة وبنوا فيها قواعدهم، أما في العهد الزياني فقد بلغت تلمسان أقصى اتساع عمراني لها حيث صارت مدينة سلطانية يسكنها السلطان في قصره المجاور للمسجد الجامع[8]، وقد عرفت تلمسان مراحل تطور عمراني كبيرة منذ القرون الأولى للهجرة حتى عهد بنو زيان

[1] أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص: 235.
[2] الإدريسي، المصدر السابق، ص: 254.
[3] أحمد توفيق المدني، المرجع السابق ، ص: 235.
[4] البكري، المصدر السابق، ص: 68.
[5] إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 148.
[6] المقدسي، المصدر السابق، ص: 180.
[7] محمد بن رمضان شاوش، المرجع السابق، ص: 43.
[8] عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص: 108.

بداية من السلطان يغمراسن الذي كان شديد الاهتمام بالتشييد والبناء والعمارة،فهو الذي بني الصومعتين بالجامعين الأعظمين من أكادير[1]بالإضافة إلى ما بناه من قصور وأسوار،وقد ذكرها أبو عبيد البكري فقال: « هي قاعدة بلاد المغرب الأوسط..... ودار مملكة زناتة»[2] ومن أشهر أنهارها نهر سطفسيف الذي يصب في نهر تافنا الموصول بمدينة أرشقول القريب منه، ولتلمسان مسجد جامع معروف بناه المرابطون وأدخل عليه الموحدون بعض التعديلات وهو يقع في وسط المدينة حاليا، كما عرفت بكثرة مدارسها التعليمية حيث كانت حاضرة علمية تستقطب العلماء والطلبة على حد سواء « فلم تزل تلمسان دارا للمحدثين والعلماء وحملة الرأي على مذهب مالك»[3]، وذلك بسبب عناية سلاطين الدولة الزيانية الذين عرفوا بحبهم للعلم والعلماء.

13- مدينة باغاية:

هي مدينة خنشلة حاليا الواقعة بجبل الأوراس، ولعل أهم حدث تاريخي وقع بالقرب منها هو قيام أبو يزيد مخلد بن كيداد النفزي الزناتي النكار على أبي القاسم بن عبيد الله الشيعي، والتي عرفت بثورة صاحب الحمار. وحول مدينة باغاية كانت تنتشر العديد من القلاع التي كانت تسكنها قابل مثل هوارة ومسكيانة وغيرها والذين كانوا على المذهب الخارجي الاباضي، أما داخل المدينة فكانت تسكن قبائل لواتة وضريسة، وكانت مدينة باغاية ملجأ البربر والروم حيث كانوا يتحصنون من عقبة بن نافع الفهري

أين هزمهم فيها، وبجبل الأوراس كانت الكاهنة تستقر وتتحصن من حملات الفاتحين. أما في العهد الحمادي فقد شهدت باغاية غارات شنها عليه حماد بن بلكين بعد أن عتب على أهلها وقتلهم قتلا ذريعا[4].

14- مدينة تنس:

تأسست هذه المدينة حوالي 262هـ من طرف الأندلسيين، وهي تقع بالقرب من مدينة مليانة ولا يفصلها عن البحر سوى ميلان، يحيط بها سور كنوع من التحصين الذي كان عادة تلك الفترة، وبداخل مدينة تنس قلعة عالية يصعب الوصول إليها لذلك اتخذها عامل المدينة سكنا له ولحاشيته نظرا لمناعتها، ولها مزارع وأقاليم وأعمال تابعة لها، أما داخل المدينة فقد كان بها المسجد الجامع وتتوسطها الأسواق والحمامات، وهي كثيرة الزرع رخيصة الأسعار[5] حتى أن أهل الأندلس كانوا يحملون الطعام منها إلى بلادهم، وكذلك الحال مع بقية

[1]محمد بن عبد الله التنسي، نظم الدر والعقيانفي بيان شرف بني زيان، المرجع السابق، ص: 125.
[2]البكري، المصدر السابق، ص: 259.
[3]البكري، المصدر نفسه، ص: 259.
[4] الحميري، المصدر السابق، ص: 76.
[5] الحميري، المصدر نفسه، ص: 138.

بلاد المغرب الأوسط، ومن أهم منتوجاتها القمح والعسل[1] وغيره من المنتوجات الأخرى التي تتميز برخص الأسعار، وكانت تنس في أغلب الأوقات تابعة لحكم ملك تلمسان.

مدينة طبنة:

تقع طبنة في الناحية الشرقية من الحضنة ضمن إحدى بلديات بريكة التي تدعى حاليا بلدية بيطام على بعد 4 كلم جنوب غرب بريكة، وعلى بعد 81 كلم من باتنة ،وتبعد عن قسنطينة ب 162 كلم وعن المسيلة ب 76كلم[2]، وقد ورد ذكرها في العديد من المصادر التاريخية والجغرافية حيث كانت مدينة قديمة وجدت منذ العهد الروماني، فيذكر اليعقوبي أنها تبعد عن مدينة القيروان عشر مراحل[3]، وهي من المدن التي تم فتحها في عهد موسى بن نصير، وتكاد تجمع المصادر أن الذي جدد بنائها هو أبو جعفر عمرو بن حفص المهلبي[4] أحد أشهر قادة العسكر العباسي.

وقد ضبط ياقوت الحموي اسمها منعا لنطقه خطأ فقال: « طُبنة بضم أوله ثم السكون ونون مفتوحة، وهي فيما أحسب عجمية »[5]، ويبدو أنها كانت من أعظم بلدان المغرب الاسلامي في تلك الفترة لأن ياقوت الحموي ذكر بأنه ليس بين القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها[6].

ونظرا لاتساع عمرانها في تلك الفترة الوسيطية فقد كانت تضم أجناسا مختلفة من الناس، فقد أشار اليعقوبي في كتابه البلدان إلى ذلك بقوله: « ومدينة الزاب العظمى طُبنة وهي التي ينزلها الولاة وبها أخلاط من قريش والعرب والجند والعجم والأفارقة والروم والبربر»[7] وهو الأمر الذي يؤكده البكري من خلال وصفه للمدينة حيث يقول:« وسورها مبني من الطوب، وبها قصر وأرباض وداخل القصر جامع وصهريج كبير يقع فيه نهرها ومنه تسقى بساتينها.... سكنها العرب والعجم»[8] .

ونظرا لشساعة عمرانها فقد كان لمدينة طُبنة العديد من الأبواب المؤدية إلى داخلها، منها باب خاقان المبني من الحجر وعليه باب من حديد وهو باب سري، وبغربيه باب الفتح حيث كان يفصل بينهما شارع كبير يقسم المدينة إلى نصفين، ويتخلل طرق المدينة جداول الماء التي كان الناس يستخدمونها في حاجاتهم اليومية، هذا بالإضافة إلى كثرة الأسواق داخل المدينة والبساتين المنتشرة خارجها والتي أشار إليها غير واحد من الجغرافيين[9]، وكانت تتمتع بوفرة المنتجات الزراعية مثل الحبوب والقطن والحنطة والشعير والكتان،

---

[1] الحسن الوزان، المصدر السابق، ج: 2، ص: 35.

[2] حنان عطية : **مدينة طبنة من خلال المصادر والدراسات الأثرية.** مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ. مج: 18، عدد:01 أوت 2022م.

[3] اليعقوبي، المصدر السابق، ص: 190.

[4] البكري، المصدر السابق ، ض:50.

[5] ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج: 4، ص: 21.

[6] ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج: 4، ص: 21.

[7] اليعقوبي، المصدر السابق، ص: 190.

[8] البكري، المصدر السابق ، ص، ص: 50، 51.

[9] البكري، المصدر السابق ، ص:51.

وتتميز بوفرة الماشية من البقر والغنم[1] كما أن أهلها اشتغلوا بضروب التجارات المختلفة كالتمور والفواكه وغيرها.

المبحث الرابع: مقومات حواضر المغرب الأوسط:

1. قراءة في أهم مقومات وحواضر بلاد المغرب الأوسط مابين القرن 5-9هـ/ 11-15م:

قبل الخوض في المجال العمراني لحواضر بلاد المغرب الأوسط وجب التطرق لأهم المقومات التي وجدت لديها، فهي تعتبر الأرضية التي من خلالها استأثرت بها كل من الناصرية وقبلها القلعة التابعتين للحكم الحمادي، وكذلك تلمسان الزيانية، بإمكانيات هامة جعلتهم يتبوءون الصدارة والتفضيل في الاهتمام والارتقاء بهم، فحدث أن أصبحوا من أهم حواضر بلاد المغرب الإسلامي عامة، والمغرب الأوسط خاصة، كما أن مجال الدارسة يحصرنا بين هذه الحواضر السابقة الذكر.

كما أن التطرق للمقومات في كل من بجاية أو تلمسان صاحبه إشارات واسعة في المجال المعماري التي عرفتها حواضر بلاد المغرب الأوسط.

2.1. مقومات القلعة والناصرية(بجاية):

أسس الحماديون القلعة وأصبحت عاصمتهم، فكانت شبكة الطرق تصلها من شتى المدن شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً على غربيها تقع المسيلة وأشير، وبين هذه المدينة وتاهرت تمتد طريق عليها عواز وهي محطة القوافل[2]، إن استحداث تلك الشبكات سهل تدفق السلع والمواصلات التي تعتبر من ركائز وأساسيات الاقتصاد، فالقلعة كانت على درجة هامة من التطور خاصة في المجال الاقتصادي، يذكر صاحب كتاب تاريخ بجاية لويسيان غولفانLucien Golvinالمتخصص في دراسة الفن في المغرب العربي أن فكرة تقاسم دور العاصمة الحمادية بين بجاية والقلعة، هو أن بجاية في عهد الناصر لم تكن سوى ملجأ طارئاً غير أن الناصر هيأها إلى دورها القادم، فهو كان ينوي ولا شك أن يجعل من مدينته التي أطلق عليها تسمية الناصرية، مجرد ميناء آمن يمكن أن يحتمي به في حالة الشدة، بل على العكس من ذلك فإنه باختياره لمدينة بجاية، يبدو أنه وجّه نحو مينائها مستقبل أسرته الحاكمة، ولهذا الغرض شيد قصره، ثم أعفى السكان من الخراج حتى يشجعهم على تعمير المدينة الجديدة، وأخيراً ربط القلعة والناصرية بطريق ملكي جديد طريق السلطان، لكن ابنه وخليفته المنصور هو الذي كان له فضل جعل بجاية عاصمة لبني حماد[3]، ومن البديهي أن بجاية التي تمصرت بخراب القيروان قد ورثت جزءا كبيرا من حضارة تونس بخاصة، فقد

[1] ابن حوقل، المصدر السابق، ص- ص: 85- 88

[2] محمد الطمار، المرجع السابق، ص: 170.

[3]محمد بن عميرة ولطيفة بن عميرة: تاريخ بجاية في ظل مختلف الأنظمة السياسية من عهد القرطاجين إلى عهد الأتراك العثمانين، الجزائر: وزارة الثقافة دار الفاروق، ص: 71.

أملت عليها الظروف أن تقوم بالعبء الذي كان مطروقاً عليها وعلى القيروان فأصبحت العاصمة الحضارية للمغربين الأوسط والأدنى[1]، إن هذه القيمة الحضارية التي حظيت بها بجاية كفلت لها التطور بمختلف ميادين الحياة بما فيها الجانب العمراني الذي من خلال مظاهره يمكن أن نتعرف على مدى بلوغ الحضارة.

وعلى ما سبق فإن مدن الحماديين لم تكن تخلو من الفنادق والمساجد الضخمة، ودور العلم، وأماكن لحفلات المعارض، وغيرها من مستلزمات المدن المتقدمة[2]، لذا فإنه خلال النصف الثاني من القرن 5هـ/ 11م ظهرت تحولات مهمة ساهمت في تشكيلها الهجرة الهلالية والجفاف مما أدى إلى انتقال مركز ثقل الحياة المغربية إلى المناطق الساحلية كما عرفت نفس الفترة تخلي الدولة الحمادية عن المؤسسات القبلية لصالح المؤسسات الإدارية المشرقية، وهذا ما شجع الحماديين على الانتقال إلى ساحل البحر الذي أصبح مصدراً للثراء نتيجة رواج التجارة المتوسطية خصوصاً مع الأندلس والمدن الإيطالية[3]، المهم من هذا القول أن انتقال الناصر إلى بجاية سنة 461هـ/ 1068م لم يكون نهائياً، إذ استمر في غالب الأحيان يسكن القلعة التي احتفظت بدورها[4].

إن الانتقال إلى بجاية روعي فيه عدة عوامل كاختيار الموقع، فهذا الاختيار متشابه جداً مقارنة بالمدن الصنهاجية التي بنيت أو أعيد بناؤها على أنقاض مدن قديمة، فنموذج قلعة بني حماد ومدينة جزائر بني مزغنة، تكرر في بجاية من حيث بناء المدينة عند منحدر سفح الجبل لسهولة الدفاع عنها باستدارة السور حتى أعلى قمة الجبل، فمدينة بجاية تم تشيدها عند منحدر جبل أميسيون (قوراية حاليا) المطل على البحر مباشرة مما أعطى للمدينة حصانة طبيعية عالية، ما عدا الجهة الشرقية المطلة على منطقة شبه سهلية[5]، كما تجدر الإشارة إلى الدور البارز الذي لعبه الناصر الحمادي؛ فقد كان يصعد كل مساء في سفينة متبوعاً بأكابر رجال بلاطه وبالعديد من الموسيقين فيقصد وسط الخليج ليتأمل من هناك تقدم عمله[6]، وقد لامس اندماج المظهر الطبيعي مع تخيل المظهر المعماري، خيال الحاكم وبين مدى شغفه المعماري لإخراج بجاية على أفضل وجه، كما أن المنصور الحمادي جعل بلاطه أندلسياً تشبها بملوك الأندلس، ونشير إلى أن الأندلس اقتبست من إفريقية والمغرب أصنافًا من الأدب وأصنافاً من الفن.[7]

---

[1] عبد الحليم عويس: دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، القاهرة، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط2، 1411هـ/1991م،ص 273.

[2] عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص: 276.

[3] علاوة عمارة: التطور العمراني والتجاري لمدينة بجاية في العصر الوسيط، مجلة الأمير بد القادر لعلوم الإسلامية، العدد 26، 2008م، ص: 233.

[4] محمد بن عميرة ولطيفة بن عميرة، المرجع السابق، ص: 43

[5] علاوة عمارة، المرجع السابق، ص: 235.

[6] محمد بن عميرة ولطيفة بن عميرة، المرجع السابق، ص-ص: 44-45.

[7] عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص: 272.

هناك إشارة تاريخية للباحث علاوة عمارة على وجود بشري في منطقة بجاية قبل تأسيس المدينة، حيث قدم شواهد لعدد من الجغرافيين كابن حوقل والبكري، وصاحب الاستبصار، وكذلك كتب النويري فيما نقله عن ابن شداد، بأن بجاية قبل بناء المدينة الحمادية كانت موضع لقبيلة تعيش فيها لكن دون ذكر اسمها[1]، يذكرها الحسن الوزان أنها « لم تكن حاضرة ملك إلا منذ قليل حتى أيامنا الأخيرة»[2] حيث أنه يقصد وقته الذي يعيش فيه وبالتحديد الفترة الحمادية، كما أن المدينة بجاية «عمرت بخراب القلعة التي بناها حماد بن بلقين»[3]، لكن نقص المعلومات حول تاريخ المدينة الأميرية الناصرية بجاية يحول دون معرفة تاريخ التأسيس بدقة، بالرغم من إمكانية تقديم فرضية عام 457هـ/1064م كبداية لأعمال البناء وتاريخ 460هـ/ 1067م كزمن نهاية الأشغال، ونفس الشيء يخص طرق البناء والتنظيم الطبوغرافية للموقع، وكذلك أدوات البناء التي تم التعرف منها على بعض الأشياء بفضل بقاء بعض معالم المدينة الحمادية، والتي تشير بوضوح للآجر ولحجارة صلداي الرومانية[4].

بالرغم من المدة القصيرة التي عاشتها الدولة الحمادية 398ه-547هـ/ 1007-1152م، وبغض النظر عن المراحل البنائية لها إلا أن بنائيها استطاعوا أن يتموا مدينتهم في أحسن الظروف وبأتم تركيب معماري كامل[5]، كما أن الحماديون عرفوا فن الهندسة في تخطيط المدن، وكانت بجاية على ذلك العهد تقدر بمائة وخمسين هكتار أي150.000 متر مربع[6]، أما الأراضي الزراعية فمعظمها غير خصبة لا تستطيع أن تنتج حبوبا، لكنهم مغمورين بالثمار إذا يحيط بالمدينة عدد لا يحصى من الحدائق العامرة بالأشجار لا سيما من جهة الباب المؤدي إلى ناحية الشرق[7]،حيث أنها بنيت في ظروف تختلف عن القرن الذي بنيت فيه المدن البحرية في المغرب الأوسط[8]، حتى أصبحت في وقت الإدريسي «مدينة المغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد»[9]، فقد تبوأت مكانة جد هامة في المغرب الأوسط وأصبحت حاضرة من الحواضر الإسلامية، كما لا نستثني بذلك الدور الأساسي الذي لعبه الحكام في تأسيس وعمران المدينة، فقد كان الناصر الحمادي في بقية دولته مكرساً كل وقته لمراقبة تنفيذ الأشغال التي صممها ونظمها، بل كان يجبر رعاياه على بناء المنازل، ولكي يتخطى نقص مواد البناء كحجة لبطء الأشغال، فقد اتخذ قرارا وهو على كل شخص يريد

[1] علاوة عمارة، المرجع السابق، ص:232.
[2] الحسن محمد الوزان الفاسي: وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، (د،ت)،ج2، ص: 49
[3] الإدريسي، المصدر السابق، ص 170.
[4] علاوة عمارة، المرجع السابق، ص،ص:234، 235.
[5] محمد الطيب عقاب: لمحات من العمارة والفنون الإسلاميةّ في الجزائر، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، ط1، 2002م، ص 07.
[6] عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص: 274
[7] الحسن الوزان، المصدر السابق، ص: 50.
[8] علاوة عمارة، المرجع السابق، ص: 228.
[9] الإدريسي، المصدر السابق، ص: 90.

الدخول إلى المدينة أن يحمل معه حجراً، ومن لم يمتثل إلى هذا الأمر سيدفع رسماً بنقد ناصري[1]، وقد عرف أن لازدهار حركة التقدم العمراني في بجاية كان للناصر والمنصور الأثر الكبير في تحقيقه[2].

كانت بناءات بجاية تتفوق على كل التي سبقتها من المدن الأخرى؛ ولما صارت عاصمة الدولة الحمادية قصدها سكان كثيرون، من كل الجهات واستقروا فيها، وكانت مدينة بجاية الأجمل بسبب قصورها العديدة وبناياتها العجيبة[3]، فقد ازدادت دورها جمالاً كما كان بها مدارس كثيرة إضافة إلى زوايا المتصوفة وحمامات، وفنادق، ومارستانات، وكلها سروح مشيدة حسنة البناء، وأسواقها جميلة متناسقة، إلا أن المدينة كلها عقبات، بحيث أن الماشي لا يستطيع أن يخطو خطوات دون أن يصعد أو ينزل[4]، وما ساهم في تلك الجمالية هو نوع البنائين المهرة فمنهم من كانوا في مدن إفريقية وكذلك من الأندلسيين كانوا متواجدين فيها قبل عملية التأسيس، ولابد أن يكون عددهم قد تزايد[5]، وتركوا بذلك بصمات في عمران المدينة، لذا كان للحماديين نماذج متعددة متنوعة من فنونهم الصناعية، كالرخام، والخشب المنحوت، والرسوم الزخرفية، والبرونز والزجاج وغيرها[6].

ولا يمكن أن نستثني في هذه الدراسة ميناء بجاية الذي شكل العصب الحيوي لاقتصاد المدينة، فهذا الميناء « تحط فيه سفن الروم من الشام ومن أقصى بلاد مصر وبلاد اليمن والهند والصين وغيرها»[7]،لذا ومن خلال هذا النشاط التجاري ستعرف البلاد انتعاشا اقتصاديا واضحا من خلال توفر مختلف السلع خاصة من أقصى الشرق كالهند والصين، ويمكن أن يطلع الساكنة في دولة بني حماد على أجناس متعدد ذوو ثقافة مختلفة، لذلك نلاحظ تواجد « دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن لأن الخشب في أوديتها وجبالها وكثير يجلب من أقاليمها»[8]، كما أن بعض الدراسات مثل وثائق الجنيزة بالقاهرة التي أمدنا بها الباحث علاوة عمارة أنها تشير إلى مكانة بجاية في التجارة المتوسطية الإسلامية خصوصاً بسبب وقوعها على الطريق البحري الرئيسي الرابط بين المرية والإسكندرية، والذي لعب فيه التجار المصريون والبجائيون وحتى اليهود دورا معتبراً[9].

ولقد ازدهرت التجارة والصناعة في بجاية، حسب رأي محمد بن عميرة في كتابه تاريخ بجاية الذي رجح فيه أن مركز الحركة والنشاط البشريين، كان موجودا في قسم المدينة

[1]محمد بن عميرة، ولطيفة بن عميرة، المرجع السابق، ص: 44.
[2]عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص" 278.
[3]محمد بن عميرة، ولطيفة بن عميرة، المرجع السابق، ص-ص: 57-85.
[4]الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 50
[5]محمد بن عميرة، ولطيفة بن عميرة، المرجع السابق ، ص، 59.
[6]عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص: 274.
[7]مجهول، الاستبصار، المصدر السابق، ص19.
[8]مجهول، الاستبصار، المصدر السابق، ص: 19.
[9]علاوة عمارة، المرجع السابق، ص: 244.

المنخفض، قرب الميناء بدليل أن أحد النصوص أظهر ازدحام الجمهور في سوق باب البحر ملاحظا أنه كان غفيراً، ولقد اقتصرت المصادر على ذكر سوقين هما سوق الصوف والقيصرية[1].

كما أن الباحث علاوة عمارة أشارة إلى نقطة هامة وهي الدور التجاري لمدينة بجاية بعد فترة العهد الحمادي، وذلك من خلال اطلاعه على الوثائق اللاتينية للدور الكبير الذي لعبه ميناء بجاية في التجارة المتوسطية مع المدن الأوربية: جنوا، بيزا، نابولي مرسيليا، بالرمو، برشلونة، كما لخص دومنيك فاليريون Dominique Vale'ran دراسة الاتفاقية التجارية التي أبرمت بين جنوة وبيزا من جهة والخلافة الموحدية من جهة ثانية وتأثيرها في ازدهار تجارة بجاية مع العالم المسيحي التي أصبحت سوقاً أساسياً للبضائع الأوربية إلى جانب تونس وسبتة[2]، لذلك ساهمت تلك العلاقات الوطيدة التي ربطتها الدولة الحمادية مع دول الجوار، بروز عامل الازدهار وبخاصة الجانب الفني إذ كان الإبداع الفني نتيجة من نتائج ازدهار المجتمع ورخائه وخلوه من المشاكل الداخلية والخارجية التي تمتعت بها الدولة الحمادية في أكثر من نصف عمرها[3]، لذلك أشار الحسن الوزان إلى البجائيين بأنهم « أناس طيبون ميالون إلى المسرح والموسيقى والرقص لا سيما منهم الأمراء»[4].

تمت نهاية الدولة الحمادية بسقوطها على يد الموحدين، حيث تمكنوا من الاستيلاء عليها بدون قتال، واستسلام أميرها يحي بن العزيز لهم بقسنطينة، وتم نقله إلى المغرب الأقصى فعاش مكرماً إلى أن مات[5]، لكن بجاية استمر عمرها بعد سقوط الدولة الحمادية فحفظت سياجها وتزايدت مبانيها ومصانعها بتزايد أحوال الدولة الثانية وترفها[6]، وتحولت بجاية إلى عاصمة إحدى ولايات الدولة الموحدية، وغطت نفوذ ولايتها نفس الرقعة الجغرافية التي كانت وقت الأمراء الحماديين[7].

لقد ساهمت عدة عوامل والتي تعتبر من المقومات في بروز بجاية على مظهرها الحضاري، لذا كان من الأهم لدى الأمراء الحماديين الاعتناء بجمالها المعماري الذي خلف إرثا معماريا، تناولته معظم المصادر بشغف.

2.2 مقومات تلمسان:

[1] محمد بن عميرة، ولطيفة بن عميرة، المرجع السابق، ص-ص: 55-56.
[2] علاوة عمارة، المرجع السابق ، ص: 242.
[3] عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص-ص:271-272.
[4] الحسن الوزان، المصدر السابق، ص: 51.
[5] محمد بن عميرة، ولطيفة بن عميرة، المرجع السابق، ص: 101.
[6] محمد الطمار، المرجع السابق، ص163.
[7] محمد بن عميرة، ولطيفة بن عميرة، المرجع السابق، ص: 113.

شكلت تلمسان منذ فترات التاريخ الإسلامي المركز الأساسي الذي كانت تقوم حوله الدول الإسلامية المتتالية، والتي نشأت عبر مراحل مختلفة من المغرب الإسلامي قاطبة، والمغرب الأوسط على وجه الخصوص، وكان لابد للمدينة أن تتأثر بالفنون المختلفة التي كانت وليدة الحضارة الناشئة وتؤثر فيها، فتلمسان لم تكن مدينة علم ومعرفة فحسب بل كانت أيضاً مدينة فنون بكل ما تحمل هذه الفنون من أنواع وأصناف، ومن بينها الفن المعماري الإسلامي الذي يشكل إحدى مقومات الفن التلمساني الأصيل، ويعود ذلك لأسباب كثيرة منها موقع تلمسان الممتاز، الذي جعلها في قلب بلاد المغرب ذلك الموقع منحها امتيازات، وجعلها محط الاهتمام[1]، فتلمسان مدينة عريقة ذكرتها جل المصنفات الجغرافية وفصلت في ذلك فيذكرها البكري بأنها قاعدة «المغرب الأوسط»[2]، وهذه الصفة التي ذكرها بها توحي بمركز الهام في بلاد المغرب الأوسط وعصبها الحيوي وقد تجلى ذلك بموقعها الجغرافي الهام، الذي شمل مفتر الطرق التجارية الرابطة بين المغرب الأقصى، والأوسط والأدنى، وبلاد السودان[3]، ولها « سور حصين متقن الوثاقة وهي مدينتان يفصل بينهما سور»[4]، وكانت حصانة الصور مستمدة من«آجر حصين منيع»[5]، فكانت لها «أسواق ومساجد وجامع وأشجار وأنهار عليها الطواحين»[6]، وكذلك جميع الصنائع والتجارات موزعة على مختلف الساحات والأزقة»[7].

ولقد كان لتلمسان باب يعتبر نقطة عبور من ونحو المدينة للقوافل التجارية حسب الاتجاهات الرئيسية للحركة التجارية[8]، لذلك احتلت تلمسان خلال الفترة الزيانية مكانة قيادية في التجارة بالمنطقة لما تتمتع به من خصائص جغرافية واقتصادية؛ فقد كانت تلمسان بحكم موقعها المنتهى والمنطلق في نفس الوقت لطرق التجارة منطلقاً للبضائع القادمة من البلاد المسيحية[9]، وذلك لوجود مينائين مشهورين: ميناء وهران، وميناء المرسى الكبير، وكان يختلف إليها عدد كثير من تجار جنوة والبندقية، حيث يتعاطون تجارة نافعة عن طريق المقايضة[10]، وكذلك تلمسان كانت منتهى للبضائع القادمة من الصحراء عبر طرقها التجارية المعروفة، والذهب كان في مقدمة بضائعها[11].

---

[1] عبد المالك موساوي: فن الزخرفة في العمارة الإسلامية، دار السبيل،تلمسان، ط1، 2011م، ص: 06.
[2] البكري، المصدر السابق، ص: 90.
[3] علوي مصطفى، تلمسان من خلال كتب الرحالة والجغرافيين المغاربة والأندلسيين من القرن السابع الهجري إلى القرن التاسع الهجري الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين، أطروحة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، 1435-1436/2014-2015م، ص: 212.
[4] الإدريسي، المصدر السابق، ص: 135.
[5] ابن حوقل، المصدر السابق، ص، 134.
[6] البكري، المصدر السابق، ص: 88
[7] الحسن الوزان، المصدر السابق، ص: 19.
[8] مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية الأحوال الاقتصادية والثقافية، الجزائر: منشورات الحضارة، 2009م، ص: 113.
[9] علوي مصطفى، المرجع السابق، ص: 210.
[10] الحسن الوزان، المصدر السابق، ص: 09.
[11] علوي مصطفى، المرجع السابق، ص: 210.

أما في مجال البناء فقد تطورت صناعة مواد البناء في عهد الدولة الزيانية لوفرة الأيدي العاملة الأجنبية سواء من الأندلس أو الدول الأوربية، فقد ذكر يحي بن خلدون أن سلاطين الدولة الزيانية قد استعانوا بالأندلسيين لبناء المشاريع العمرانية وخاصة في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني، وكذلك السلطان أبي تاشفين الأول مستنصراً بآلاف عديدة من أسرى الروم، فخلف ذلك أثار لم تكن من قبل، ولا عرف لها بمشارق الأرض ومغاربها، مثل دار السرور، وأبي فهر وما سواها[1]، حتى في مجال الحياكة وورشاتها فقد ظهرت بتلمسان ورشا للحرفيين يقومون بحياكة ما يحتاج إليه السكان من ملابس[2].

ولكن حال جّل معالم وعمارة مدينة تلمسان اندثرت وخاصة مدنها الثلاث: أولاها أقادير أو تلمسان القديمة، وثانيها العباد الذي كان يشمل العباد السفلي، والعباد الفوقي، وثالثها المنصورة أو تلمسان الجديدة[3]، فالمنصورة كانت نشأتها عند حصار تلمسان الذي دام ثمانية أعوام وبضعة شهور، فبنيت المدينة أثناء ذلك الحصار، وكانت المنصورة وقتئذ تحتوي على أسواق عامرة ودور شاهقة، وحمامات كثيرة، ومتنزهات بديعة وطرق كبيرة، وشوارع عريضة، ومساجد متعددة، أضخمها الجامع الكبير ذي المئذنة الشامخة، وقصر باه، لكن بسبب ما الحق به من أيدي التخريب الذي أوقعه بنو عبد الواد بها عقب انصراف بني مرين بعد رفع الحصار عن تلمسان فإنه لم يبقى من المنصورة إلا أطلالها الجليلة والتي بها أسوار عالية وبروج عظيمة[4]، وكان للمنصورة أربعة أبواب: هي باب فاس غرباً، وباب هنين شمالاً، وباب المجاز شرقاً، وهناك باب رابع جنوباً لم يذكر اسمه[5]، أما العباد فهي مدينة صغيرة شبه ربض تقع في الجبل على بعد نحو ميل جنوب تلمسان، كانت وافرة السكان والصناع ومعظمهم من الصباغين، وبها دفن ولي الله ويوجد ضريحه في مسجد سيدي بومدين، وبها مدرسة وموقعها في غرب الجامع تبعد عنه بنحو سبعة أمتار، وهي مبنية فوق ربوة صغيرة وفندق لإيواء الغرباء أسسها بعض ملوك فاس من بني مرين، حسبما يقرأ ذلك في الرخامتين المنقوش عليهما أسماؤهم[6]، واسم العباد مشتق من العبادة لأنع جمع عابد، إذا كان في أول الأمر رباطا يجتمع به النساك، والزهاد والمتبتلون بقصد الانقطاع لعبادة الله والجهاد[7]، أما أسباب اندثارها فيرجع إلى:

أولا: تخريب وتدمير الأعداء، كما فعل بنو رستم بمدينة العباسة التي بناها بنو الأغلب بالقرب من عاصمتهم.

1مختار حساني، المرجع السابق، ص-ص: 96-97
2مختار حساني، المرجع نفسه، ص: 90
3الحاج بن رمضان شاوش، المرجع السابق، ص: 160.
4الحاج بن رمضان شاوش، المرجع نفسه، ص:222.
5الحاج بن رمضان شاوش المرجع السابق، ص-ص: 223.
6الحسن الوزان، المصدر السابق، ص: 24.
7الحاج بن رمضان شاوش، المرجع السابق، ص: 234.

ثانيا: نزوح بني هلال وبني سليم أثناء القرن 5هـ/11م وما نتج عنه من تخريب الأمصار والعبث فيها حتى أنهم تركوها قاعاً صفصفاً أفقر من بلاد الجن وأوحش من جوف البعير.

ثالثاً: الحروب والفتن التي أثراها بنو غانية من المرابطين بعد استيلائهم على بجاية عام 580هـ/ 1185م، وانتزاعها من يد الموحدين وما نتج عنها من هدم وتدمير.

رابعاً: الهجوم الإسباني على المدن الساحلية أوائل القرن 10هـ/16م، وتخريبها كما فعلوا في بجاية ووهران وهنين[1].

2-أصل الفن المعماري في بلاد المغرب الأوسط:

أسس الفينيقيون أقدم حاضرتين بالمغرب ونعني بهما مدينة أوتيك قرب تونس ومدينة ليكسوس قرب العرائش إيذانا بانطلاق الفن المغربي القديم من المشرق[2]، أما الفن البربري فهو فن الشعب الذي لعب الرجل دورا بارزا في فنونه المعمارية بينما كانت السيادة في فنونه التطبيقية للمرأة المغربية التي تركت بصمتها في جميع الفنون الزخرفية[3]، كما أن هذا الفن عرف الزخارف الهندسية دون الحيوانية أو النباتية، فليس في فن البربر أثر للأشكال الحيوانية أو النباتية أصل الفن المعماري في بلاد المغرب، كما أن المغاربة اكتسبوا من الرومان سن القوانين وفن العمارة وتنظيم المدن[4] وسبب هذا التأثير هو طول مدة الاحتلال الروماني لبلاد المغرب التي شيدوا فيها العمائر والمدن.

ويمكن القول أن الفن البربري تأثر منذ ألفي عام بمدنيات مختلفة ومزج عناصره المحلية بعناصر أخرى استمدها من القرطاجين والرومان والبزنطيين إلى أن انصهر أخيرا ذلك التراث في بوتقة الفن العربي الإسلامي محتفظا بشخصيته الخاصة وطابعه المتميز[5] كما يمكن الإشارة إلى وجود تقارب بين هندسي بين المباني البربرية القديمة والطراز المغربي الذي ظهر في فجر الإسلام بالمغرب فكل منهما يرجع إلى أصل مشرقي واحد[6].

1.2 نشأة العمارة الإسلامية:

[1] الحاج بن رمضان شاوش، المرجع نفسه، ص: 160.
[2] عثمان عثمان اسماعيل: تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصي .الرباط: الهلال العربي للنشر، 1992. ص: 215.
[3] عثمان عثمان اسماعيل، المرجع نفسه، ص: 198.
[4] عثمان عثمان اسماعيل، المرجع نفسه، ص: 193.
[5] عثمان عثمان اسماعيل، المرجع نفسه، ص: 211.
[6] عثمان عثمان اسماعيل، المرجع نفسه، ص، ص: 252، 253.

لما استقر الإسلام في عهد بني أمية وبلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساع لها اقتبس المسلمون من الفنون التي سبقتهم، كالفن الساساني والبيزنطي والروماني والقوطي[1]، لكن تبقى أراء بعض المستشرقين تذكر أن العرب بعيدين عن فن العمارة وقال بعضهم بأنهم لم يكونوا إلا مقلدين ومستعيرين، وأنهم لم تكن لهم عمارة خاصة بهم تستحق الذكر، وأن كثير من أساليب العمارة انتقلت إليهم عن أمم غير إسلامية[2]،لكن المتتبع لبدايات الفن الإسلامي بأشكاله المختلفة سواء بالتشييد، أو اختيار المواقع، أو الزخرفة والهندسة، أو بجماليات الفن المعماري الإسلامي يرى أنها مستوحاة من توجيه الدين الإسلامي، وأن نشأتها كانت بنشأة الإسلام والمسلمين، ونجد الكثير من أراء المستشرقين تحاول التقليل من شأن الحضارة الإسلامية عامة محاولين نسب الحضارة التي وصل إليها المسلمون إلى أمم آخري غير إسلامية،ويمكن الإشارة إلى أن الاحتكاك الحضاري بين العرب في الإسلام وغيرهم من الأمم قد بدأ منذ عصر الخلفاء الراشدين أنفسهم عن طريق الفتوحات الإسلامية مما فتح أعينهم على ألوان جديدة من العمائر والمنشآت[3].

ولما قامت الخلافة العباسية في العراق 132هـ/656م وفي ظل هذه الدولة نضج الفن الإسلامي وأصبحت له سمة مميزة عن باقي الفنون، وعلى الجانب المعماري بالخصوص تغيرت الأساليب المعمارية والزخرفية، فكان التأثير الفارسي واضحاً حيث اتجه البناءون إلى استعمال الأجر بدل الحجارة والدعامات بدلاً من العمدة والعقود المدنية وظهور المداخل الملتوية وإقامة قبتين على المحراب، إن المعماري المسلم اقتبس من فنون الحضارات السابقة ما يتلاءم مع بيئته، وما يتماشى مع تعاليم دينه وسد احتياجاته، وصاغ تلك الأساليب المعمارية وطورها واستثمر في ذلك حتى تخلص من جميع التأثيرات الأجنبية، وصار طرازا قائماً بذاته وأصبح من الصعب بما كان تميز تأثيرات الفنون الأخرى[4]

وإذا كان الفن الإسلامي قد تأثر منذ نشأته بحضارة الدول التي فتحها، وبخاصة الفنين الساساني والبيزنطي، فإنه قد استبعد منها الجوانب الأسطورية كما تحاشى المحاكاة الشكلية، وعالج فنونها التجريدية مما يتفق مع تعاليم الدين الإسلامي[5]

أما الطراز المغربي فيشهد أربعة قرون من التاريخ تبدأ من عصر القادة الفاتحين للمغرب ثم بعدها يدخل عصر الولاة تابعاً للدولة الأموية حيث نشطت التأثيرات الأموية في فترة تكوين الفن الإسلامي العام[6] كما لعبت الأندلس دورا هاماً في تكوين الفن المغربي[7].

---

[1]محروق اسماعيل، المرجع السابق، ص: 21.
[2]كريشي أرنولد بيجر: تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير.دمشق.دار الكتاب العرب1984. ص: 112.
[3]عثمان عثمان اسماعيل، المرجع السابق، ص:137.
[4]محروق اسماعيل، المرجع السابق، ص: 22.
[5]ثروت عكاشة، القيم الجمالية في فن العمارة الإسلامية.القاهرة.دار الشروق،ط1، 1994. ص: 38.
[6]عثمان اسماعيل، المرجع السابق ، ص: 247.
[7]السيد عبد العزيز سالم: العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها.الكويت.عالم الفكر. (د،ط)، 1988. ص: 74.

1.1.2 أسباب العمارة:

وجدت العمارة لحاجة الناس إليها، فقد تناول ابن الربيع العمارة وقسمها إلى قسمين: مزارع وأمصار، فأما الأمصار فقال: فيها وهي الأوطان الجامعة والمقصودة بها خمسة أمور أولها أن يستوطنها أهلها طلبا للدعة والسكون، ثانياً حفظ الأموال فيها من الاستهلاك، ثالثا صيانة الحريم والحرم من الانتهاك، رابعاً التماس ما تدعو الحاجة إليه من متاع، خامساً ما يتعرض للكسب وطلب المادة[1]

ومن أهم أسباب العمارة مايلي:

حفظ العقل: فقد شرع بناء المساجد والمدارس والزوايا والكتاتيب.

حفظ المال: فقد شرع الله بناء الأسواق وتنظيمها، كما منع من تضيق الطرقات بالبناء فيها أو الجلوس بما يفوت مصالح الناس.

الحاجيات: ولحفظ الحاجيات أجازت الشريعة اتخاذ الحمامات والدخول إليها، ونظمت كل ما يتعلق بأمر البناء.

التحسينات: وهو كل ما يعود إلى العادة الحسنة والأخلاق الفاضلة، فكل أمر في العمارة الإسلامية يدخل في هذا الجانب هو من باب التحسين، ومن ذلك اتخاذ المنارات، والقباب، والزخرفة، والصحون، والمقصورات[2]

كذلك عامل المحاكاة والتنافس يكون سباباً وجيهاً في العمارة، فمثلاً لما شرع إدريس الثاني في بناء عاصمة جديدة بعمرانها وتخطيطها، وأسوارها، ومرافقها، ومساجدها، ودور الإمارة، كان على وعيه بضرورة إقامة قيروان جديدة بالمغرب الأقصى يحتضن الإسلام[3] كما يمكن القول أن إنجازات السلاطين والخلفاء في ميدان العمارة والفنون كان إما تخليدا لأسمائهم وهذا ما ركز عليه المستشرقون، وإما لإظهار المكانة الحضارية التي وصلت إليها الدولة، فمثلاً برع الموحدون في تخليد ذكريات غزوات الإسلام العظيمة، فقد بنا يعقوب المنصور بعد انتصار المسلمين في وقعة الأرك منارة اشبيلية[4]، ويعرف عن قصور الموحدين في الرباط أنها من المباني الرفيعة، والمنارة البديعة، وقباب الجلوس للسادات والقصور العليا ما جعلها من متنزهات الدنيا[5].

2.1.2 مميزات العمارة:

---

[1]محمد بن ابي الربيع: سلوك المالك في تدبير الممالك، الرياض: دار العادرية، 1990. ص: 136.
[2]بلحاج طرشاوي: العمران ومقاصد الشريعة، رسالة دكتوراه، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة تلمسان، 2009.ص: 96، 98.
[3]عثمان عثمان اسماعيل، المرجع السابق ، ص: 264.
[4]محمد المنوني: حضارة الموحدين .الدار البيضاء:دار توبقال للنشر،1989م. ص: 164.
[5]محمد المنوني:العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين .الرباط:دار المغرب1397) .هـ1988/م.ص:245.

أ. مميزات البناء والعمارة في بلاد المغرب:

شهدت الفنون العربية الإسلامية ازدهارها الرائع في القرن 4هـ/10 م بالمشرق والمغرب والأندلس وبلغت عنفوانها بين القرنين السابع 7و 8هـ/13و 14م، وغطت مساحة واسعة، وعصور متعاقبة إلى أن دب إليها الهرم[1]، وبرؤية أكثر شمولية فإن مجال علوم العمران والبنيان يبدأ من مستوي تخطيط المدن وتنسيق حدائقها وفراغاتها وينتهي ببناء المباني وتصميمها الداخلي، وهناك علاقة مباشرة ما بين أسلوب تخطيط المباني وتخطيط المدن، وما يحمله العمران من دلالات وبين تكوين ثقافة أفراد المجتمع وتوجهاتهم الفكرية، كما أن للعمران والمباني دورا في تشكيل وبناء الإنسان بطريقة غير مباشرة لا يشعر به[2]، ومن السمات البارزة في مجال البناء للعمارة الإسلامية هو تركيزها على الداخل أكثر من الخارج، المنزل الإسلامي المشيد حول صحن داخل، ويطل على العالم الخارجي من خلال جدران عالية تتخللها نوافذ صغيرة ومجموعة من المشربيات تهيئ الانفتاح على الخارج[3]، وكذلك من أبرز الأنماط المعمارية الإسلامية أنها تتمحور في بنائها وواجهاتها وهندستها حول وجهة، أو بتعبير أدق نحو القبلة(المسجد الحرام)[4]

أما عن بلاد المغرب الإسلامي فقد احتفظ الطراز المغربي بخصائصه، ولم تطرأ عليه تأثيرات خارجية إلا في القرن5هـ/11م عندما ظهرت التأثيرات الأندلسية، فقد تأثر الطراز المغربي في الوهلة الأولى بالفن والعمارة المشرقية حيث انتقلت هذه التأثيرات إلى عمارة المغرب وأصبح أكثر ظهورا بها، ومن ذلك على سبيل المثال أن نظام البائكات التي تمتد متعامدة على جدران القبلة قد ظهر أولاً في المسجد الأقصى بالقدس ثم انتقل إلى بلاد المغرب[5]، كذلك كانت بعض المباني في بلاد المغرب تحمل مسحة التجديد فقد بنيت مدينة الرباط بالمغرب الأقصى على هيئة الإسكندرية من حيث الاتساع وحسن التقسيم وإتقان البنيان وتحصينها وتحسينها [6] كما أن عمارة الأدارسة في جامع القرويين بعقودها الموازية للقبلة شأن المساجد بالمشرق مثل مسجد دمشق وبعلبك وبعضها في مصر، وقد استمرت عمارة الطراز المغربي تلتزم بنظام العقود الموازية إلى بداية عهد المرابطين الذين استخدموا العقود العمودية على القبلة، كذلك في مدينة نكور اين الخليفة الوليد الأموي اتجهت الجهود إلى بناء رباط يحتوي على مسجد بمرافقه يستوحي تصميمه من جامع الإسكندرية

[1] عثمان اسماعيل، المرجع السابق، ص: 142.
[2] يحي وزيري، المرجع السابق، ص: 22.
[3] ثروت عكاشة، المرجع السابق، ص: 61.
[4] يحي وزيري، المرجع السابق، ص: 20.
[5] أحمد البهنسي، المرجع السابق، ص،ص: 18، 19.
[6] محمد المنوني، حضارة الموحدين، المرجع السابق، ص: 163.

بأسلوب معماري بسيط في نطاق الفن الإسلامي الشرقي، ومن هذا الطراز مسجد أغمات عيلانة سنة 85هـ الذي يكون أول مسجد إسلامي بالمغرب الأقصى[1]

كما ميز العمارة في بعض المناطق من بلاد المغرب البساطة، فقد كانت مظاهرها واضحة في العاصمة الرستمية تاهرت، حيث أن الحاكم الرستمي عبد الرحمان قام ببناء جامع المدينة بنفسه، وعندما زاره وفد من الكوفة وجدوا أن شخصاً يعجن له بينما يتولى هو بنفسه البناء[2] أما عن تأسيس فاس فكن ذلك إذاناً بتأسيس صرح الطراز المغربي الحقيقي في العمارة والفنون التطبيقية بربوع الدولة، ويستمر هذا الطراز في إمارة الأدارسة وبعد سقوطها وممالكهم شمالاً حتى تاريخ انقراض دولتهم الثانية بالشمال[3]

وقد اشتركت العمارة في بلاد المغرب والأندلس في كثير من صفات تشكيل الفراغ وتصمم الأعمدة والعقود وزخارف الحصن المفرغ[4]، كما تتميز عمارة جامع القرويين في القرن 4هـ/10م بأنها تجمع بين خصائص العمارة الزناتية المتأثرة بالطراز الفاطمي، وبين الطراز الأندلسي الذي ظهر في بعض عناصر المساجد[5]، كذلك في جامع الأندلسيين بالمغرب نجد التأثير الأندلسي واضحاً ففي المئذنة التي تعتبر الأثر الأندلسي الأموي في عمارة الجامع[6] ويرجع هذا التأثر على محاكاة التطور الحضاري الذي كانت عليه الأندلس.

ولقد بلغت العمارة الإسلامية والفنون عهدها الذهبي مع ظهور الطراز المغربي الأندلسي التي تعود ملامحه إلى جامع قرطبة سنة 169هـ/785م الذي بناه عبد الرحمان الداخل[7]، كما تظهر التأثيرات الأندلسية بجدية بعد موقعة العقاب سنة 609هـ/13212م حيث ترتب عن ذلك هجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب، وتظهر هذه التأثيرات في الأبراج المستديرة مثل قلعة (أمرجو) بالمغرب الأقصى وأسوار مدينة مراكش[8].

وكذلك كانت للمساكن الإسلامية خصوصية واضحة بحيث يفصل جناح النوم، وأهل البيت عن جناح المعيشة والزوار، ويكون ذلك إما بالفصل أفقياً عن طريق وجود مدخل متوسط للوحدة السكنية[9].

وقد حمل الفن المعماري في ظل الإسلام تعبيراً معمارياً جديداً إذ ربط هذا الفن بين المسجد والكعبة في مكة المكرمة، وتزاوج التعبير المعماري الأول الذي أحسه ساكن البادية

---

[1] عثمان اسماعيل، المرجع السابق ، ص - ص: 252 – 297.
[2] أحمد البهنسي، المرجع السابق ، ص: 82.
[3] عثمان اسماعيل، المرجع السابق، ص: 252.
[4] ثروت عكاشة، المرجع السابق، ص: 22.
[5] أحمد البهنسي، المرجع السابق، ص: 82.
[6] ليلى النجار: المغرب والأندلس في عهد المنصور الموحدي، رسالة دكتوراه 1989، جامعة أم القرى، ص: 250.
[7] محروق اسماعيل، المرجع السابق، ص: 22.
[8] أحمد البهنسي، المرجع السابق، ص: 123.
[9] يحي وزيري، المرجع السابق، ص: 121.

من صلته بالسماء من خلال صحن أعلاه مكشوف مع التعبير المعماري الجديد المستوحي من صلة العابد بالأرض[1].

ب. مميزات فن الزخرفة في بلاد المغرب:

للزخرفة الإسلامية عدت مميزات، ويشير إليها العالم الفرنسي بروجوان bougeoin إلى أنه في الفن الإغريقي عناية بالنسب والأشكال التجسيمية وبدقائق الجسم الإنساني والحيواني، بينما عرف الفن الياباني دقة في تمثيل المملكة النباتية، ورسم الأوراق والفروع والزهور، أما الفن الإسلامي فقد ميزه الأشكال الهندسية المتعددة الأضلاع بالأشكال[2]، وذلك للأثر الذي كان عليه موقف الإسلام من النحت والتصوير فاتجه المسلمون إلى الزخارف النباتية والهندسية والكتابة[3]، كما عمد الفنان المسلم إلى البعد عن تقليد الطبيعة في رسم الجذوع والأوراق والنباتات معلناً مبدأ التجريد والرمز في الفنون الإسلامية، وابتكر في مرحلة حاسمة لتطور فنونه أسلوباً زخرفياً جديداً هو أسلوب التوشيح أو التوريق كما هو معروف بالمغرب والأندلس[4].

لذا فقد تأثر العنصر النباتي في الزخارف الإسلامية تأثراً كبيراً بانصراف المسلمين عن استحياء الطبيعة وتقليدها تقليداً صادقاً أميناً، فكانوا يستخدمون الجذع والورقة لتكوين زخارف تمتاز بما فيها من تكرار وتقابل وتناظر وتبدو عليها مسحة هندسية جامدة تدل على سيادة مبدأ التجريد والرمز في الفنون الإسلامية[5].

وأما عن سبب الاعتماد عن الزخرفة النباتية فإن الفنان المسلم اكتشف بشكل واعٍ بأن الهدف محاكاة الطبيعة أو تقليد الكائنات الحية، وإنما إيجاد عالم مستقل من الأشكال والألوان للتعبير عن ما وراء الواقع، وبالتالي فالاتجاه إلى الزخرفة النباتية ناتج عن رغبة داخلية واعية وعن نظرة فكرية وروحية نابعة عن الإسلام، كما أن وحدة الفن الإسلامي أدت إلى ارتباط المنشآت الفنية بمعاني روحيه تتعلق بتوجيهات الإسلام[6]، وقد فرض هذا الفن نفسه على الأوروبيين وافتتنوا به، وأطلقوا عليه اسم Arabesque[7]، كما سّار الفن الإسلامي في تشابه إلى حد كبير في سائر البلاد الإسلامية على شيء طفيف من التباين اليسير الذي تحمله كل بيئة وتختص به وتمليه مواهب أهلها، ويرد البعض سر هذه الوحدة التي تجمع الفنون

[1] ثروت عكاشة، المرجع السابق، ص: 22.
[2] زكي محمد حسن، في الفنون الإسلامية القاهرة:دار الكتب العلمية، (د،ط)،2004. ص: 35.
[3] عثمان اسماعيل، المرجع السابق، ص: 119.
[4] عثمان اسماعيل، المرجع نفسه، ص: 129.
[5] زكي محمد حسن، المرجع السابق، ص، ص: 35، 36.
[6] محروق اسماعيل، المرجع السابق، ص:27.
[7] عثمان اسماعيل، المرجع السابق ، ص: 129.

الإسلامية إلى توحد الخط العربي الذي يكتب به المصحف الشريف وهو عامل هام لكنه ليس الوحيد[1].

كما يمكن الإشارة إلى ميل الفنانين المسلمين في بلاد المغرب والأندلس إلى تغطية المساحات وعدم تركها من دون زينة أو زخرفة فإن من أكثر ما يلفت النظر في العمائر والتحف الفنية الإسلامية ازدحام الزخرفة وكثرتها، واتصالها حتى تغطي المساحة كلها أو جزءاً منها، ولذلك كانت الفنون الإسلامية فنوناً زخرفية قبل كل شيء، وكانت فضلاً عن ذلك أعظم الفنون في الزخرفة، لذا فإن الميزة في الفنون الإسلامية هي تكرار الموضوعات الزخرفية على العمائر والتحف الإسلامية تكراراً يلفت النظر[2].

ج. التوجيه الديني للعمارة في بلاد المغرب الإسلامي:

لقد كان ظهور العمارة الإسلامية وبروزها إذاناً بميلاد فن معماري وزخرفي جديد كان التوجيه فيه بالدرجة الأولى يرجع إلى الدين فيذكر الماوردي وابن الربيع في تصويرهم عن المدينة الإسلامية أنه يرجع إلى المعطيات المأخوذة من الضوابط الشرعية، وأن بناء مسجد جامع يكون في وسطها ليقرب على الجميع، وهو أحد ثمانية شروط لإنشاء مدينة إسلامية[3]، ومن أولى محطات العمارة والبناء في الجانب الديني هو الخضوع الروحي، فكانت التقوى هي أساس البنيان والعمارة مصداقاً لقوله تعالي [**أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**)(سورة التوبة الآية 109)،، فقد استجاب الفن الإسلامي لاتجاه الدين فلم يستخدم التصوير لنشر التعاليم الدينية كالمسيحية أهمل فن اللوقات وعمل التماثيل، واقتصر على تزويد المؤلفات العلمية والأدبية، فأفرغ عبقريته في فنون الزخرفة الكتابية، والهندسة النباتية فبلغ فن الخط العربي جمالاً زخرفياً لم يبلغه فن آخر في تاريخ الإنسانية[4].

ومن أجل حفظ الدين الإسلامي تم اختيار موقع المدن، وبناء المرافق العامة، واختيار موضع المسجد وإبراز دوره داخل المجتمع، وعند بناء المساكن والمرافق روعيت فيها القيم والمبادئ الإسلامية على مستوى البناء والوظيفة والمقاس[5]، كذلك كانت التوجيهات الدينية واضحة في طرق تعيين مراكز البنايات وفصلها عن الأسواق، وأن يكون عن أطراف المدينة فقال الرسول الكريم ρ: **" هَذَا سُوقُكُمْ، فَلَا يُضَيَّقُ، وَلَا يُؤْخَذُ فِيهِ خَرَاجٌ**" وذلك عندما جعل للمدينة المنورة سوقاً.

[1]ثروت عكاشة، المرجع السابق، ص: 22.
[2]زكي محمد حسن، المرجع السابق، ص: 44.
[3]يحي وزيري، المرجع السابق، ص: 188.
[4]عثمان اسماعيل، المرجع السابق ، ص: 127.
[5]بلحاج طرشاوي، المرجع السابق، ص: 94.

كما يتدخل الدين في توجيه المباني نحو وجهة معينة شكلت قدسية لدى كافة المسلمين في أصقاع الأرض، فتوجيه المباني لم يكن محض الصدفة، بل كان نحو القبلة، وإن فكرة جعل البيوت اتجاهها موجودة منذ عهد سيدنا موسى υ من أجل تسهيل إقامة الصلاة بداخلها لأتباعه الذين أمنوا به ثم يأتي سيدنا رسول الله ρ ليؤكد هذا المفهوم[1]، فعن أبي أيوب الأنصاري أن الرسول ρ قال: "**لا تستقبلوا القبلة بغائط أو بول ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا**"، فالنهي عن عدم التوجه للقبلة لأنه يفقد المجتمع المسلم أهم العوامل التي تميز شخصيته حيث انه يشعر اتجاهها برباط روحي دائم بينه وبين مكة، وليس ذلك في المسجد فقط بل في بيته أثناء أداء الصلاة[2].

أما ما ميز تداخل الجانب الروحي والعمارة بفنها هو "الصحون" المتسعة والصحن هو الفراغ المكشوف المحدد بواسطة الجدران أو المباني، وهو الحلقة الرابطة المميزة لكل العمائر الدينية أو المدينة الإسلامية، وتظهر وظيفته في أن يكون المسلم على اتصال دائم بالسماء[3]، ففي البداية عندما كان الجامع مسطحاً من الأرض مسوراً غير مسقوف لم يكن ما يحجب نظرة المصليين إلى السماء، حتى إذا تطلب الأمر تغطية مكان الصلاة في الجامع اتقاء حرارة الشمس، وتقلبات العوامل المناخية في البلاد المختلفة، فحرص المعماري المسلم على أن تكون نظرة المسلم إلى السماء غير محجوبة فشطر المسجد شطرين أحدهما مسقوف للصلاة والأخر مكشوف وهو الصحن[4].

عند بلوغ الدولة الإسلامية أوج قوتها وبفتحها للإمبراطوريات المختلفة تأثرت بالفنون المعمارية لتلك الإمبراطوريات، وبطبيعة الحال انتقلت تلك التأثيرات إلى أصقاع البلاد الإسلامية وبما فيها بلاد المغرب الإسلامي، بيد أن بلاد المغرب كانت لها رواسب معمارية منذ العصر القديم أوحت للمعماريين المسلمين المزج بين التأثيرات المشرقية والمغربية وبما فيها بلاد الأندلس التي كان لها دور بارز في فن العمارة لبلاد المغرب.

كما أن بلاد المغرب اكتسبت مميزات معمارية هامة في مجال البناء والزخرفة؛ والتي يمكن الحكم عليها بتشابهها نوعاً ما في كامل البلاد الإسلامية خاصة في مجال الهندسة والزخرفة النباتية، ويرجع ذلك إلى الخط العربي الذي وحد من الفن الإسلامي.

[1] يحي وزيري، المرجع السابق، ص: 79.
[2] يحي وزيري، المرجع نفسه، ص: 82.
[3] محروق اسماعيل، المرجع السابق، ص، ص: 23، 24.
[4] ثروت عكاشة، المرجع السابق، ص: 26.

أما عن الدليل الديني فقد كان بارزاً بوضوح منذ الوهلة الأولى، فكانت المدن تشيد بالضوابط الشرعية وكانت البنايات تقام وفق التوجيه الإسلامي وخير دليل على ذلك هو التوجه الكامل للبنايات للقبلة.

الفصل الثاني

مظاهر العمارة الدينية في حواضر بلاد المغرب الأوسط مابين القرن 5-9هـ/ 11-15م.

المبحث الأول: الجوامع والمآذن والمدارس في المغرب الأوسط

1. الجوامع والمساجد وأدوارها الحضارية.
2. خصوصيات المآذن في بلاد المغرب الأوسط.
3. المدارس في بلاد المغرب الأوسط.

المبحث الثاني: الأربطة والزوايا والأضرحة في المغرب الأوسط

1. الأربطة.
2. الزوايا.
3. الأضرحة.

لقد عنيت العمارة الدينية بنوع من الاهتمام من لدن حكام وسلاطين الدول الإسلامية عامة، فهي مكان التعبد والمكان الذي تقام فيه مختلف الشعائر الدينية، ولقد كان من الضروري أن يصاحب تشييد هذه العمارة الدينية نوع بالغ من الاهتمام، لذلك عرفت بقوة تشييدها وإبداع فنها وروعة زخارفها ورونقها خاصة المساجد.

وفي بلاد المغرب الأوسط خلال فترة الدراسة كغيرها من البلاد الإسلامية عرفت هذا النوع من التشييد، كما أن البلاد شهدت تطورا حضريا واضحاَ خاصة في حاضرتي بجاية الحمادية وتلمسان الزيانية، فشيدت بذلك المساجد وزينت واجهاتها بزخارف فنية راقية، وحظيت باهتمام بليغ من كل الجوانب سواء فيما صحب التشييد والبناء أو سير نفقات هذه المؤسسات الدينية.

ويمكن القول أن جانب من موضوع الدراسة يتمثل في وصف مختلف العمائر الدينية ويرتكز على المادة العلمية الأثرية باعتماد الوصف، خاصة فيما تعلق بالمساجد ومآذنها، من حيث الشكل كالمساحة والارتفاع ونوع الزخرفة وغيرها من الأوصاف التي اتصفت بها هذه العمارة الدينية، لذا ظهرت مصطلحات معمارية خاصة بها كالجوسق، والأساكيب، المقرنصات، الشرفات، والصحن ...وغيرها،والأكيد كان الاعتماد على المصنفات التاريخية وما جادت به عن تاريخ هذه العمائر وأسباب البناء والتشييد، والتسمية، والنفقة التي من خلالها تبقى هذه العمائر مسايرة لنشاطها الديني والثقافي الذي بنيت من أجله، ويحق لنا من خلال ما سبق أن يتبادر إلى الذهن الانشغال التالي: ما مدى بروز هذه العمارة الدينية كمظهر حضاري، وما هي أهم أدوارها؟

المبحث الأول: الجوامع والمآذن والمدارس في المغرب الأوسط

1. الجوامع والمساجد الحمادية والزيانية وأدوارهم الحضارية:

إن المسجد أحب البقاع إلى الله فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « وأحب البلاد إلى الله مساجدها..»، والمسجد من كلمة سجد يسجد سجودا، والمسجد بكسر الجيم اسم لمكان السجود والمسجد بالفتح جبهة الرجل حيث يصيبه السجود، والمسجد بكسر الميم هي الحصير الصغيرة، أما المسجد شرعاً هو الموضع الذي يسجد فيه فهو مسجد، كما وردت كلمة مسجد في العديد من آيات وسور القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ سورة الأعراف الآية29.

أما عن أسباب اختيار المسجد مكانا للصلاة فلما كان السجود أشرف أفعال الصلاة لقرب العبد من ربه اشتق اسم المكان منه مسجد ولم يقال مركع، وعلى هذا فقد استقر العرف على

إطلاق كلمة المسجد الجامع على المساجد الكبيرة التي تستوعب المصليين أيام الجمع والأعياد[1]، فهو يجمع أهله ولأنه علامة للاجتماع، فيقال: المسجد الجامع، ويجوز: مسجد الجامع بالإضافة بمعنى: مسجد اليوم الجامع، ويقال للمسجد الذي تصلى فيه الجمعة، وإن كان صغيراً لأنه يجمع الناس في وقت معلوم[2].

كما يعتبر المسجد هو المدرسة الأولى التي يتخرج منها المسلم، فهو بيت الأتقياء، ومكان اجتماع المسلمين يومياً، ومركز مؤتمراتهم، ومحل تشاورهم وتناصحهم، والمنتدى الذي فيه يتعارفون ويتآلفون، وعلى الخير يتعاونون، ومنه خرجت جيوشهم، ففتحت مشارق الأرض ومغاربها، وإليه يرجع مسافرهم أول ما يرجع، فيه السلوى، وفيه يعزى المسلم أخاه المسلم إذا أصابه مصاب، منه تخرج العلماء والفقهاء، وفيه كان المرضى يمرضون، وبسواريه كان الأسرى يربطون، وفي رحابه كان التقاضي والقضاة ومحاسبة الخلفاء، وفيه كانت الملاعنة تجري بين الرجال والنساء، وفيه كانت تتم قسمة الغنائم، كما كانوا يعقلون فيه العِذْق ليأكل الجائعون والغلمان، فهو ملتقى الأمة، وناديها وجامعتهاّ، ومكان شوراها[3].

أما العناية ببناء وتشييد المساجد فقد حث الشرع عليها لقوله تعالى كما جاء في سورة التوبة ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ الآية 18، وتكون عمارة المساجد ببنائها، وتنظيفها، وفرشها، وإنارتها، كما تكون عمارتها بالصلاة فيها وكثرة التردد عليها لحضور الجماعات وتعلم وتعليم العلوم النافعة، وأعظم العلم النافع تعلم القرآن وتعليمه، وغير ذلك من أنواع الطاعات، وإخلاص هذه العبادات كلها لله تعالى، كما قال المولى عز وجل في سورة النور: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ﴾ الآية 36. وقال العلامة السعدي في هذه الآية هذا مجموع أحكام المساجد فيدخل في رفعها: بناؤها، وكنسها، وتنظيفها من النجاسات والأذى، وصونها من المجانين والصبيان، الذين لا يتحرزون من النجاسات، وعن الكافر، وأن تصان عن اللغو فيها ورفع الأصوات بغير ذكر الله[4].

وهناك من ذهب إلى أن هناك تشابه بين الكنيسة والمسجد، لكن شكل الكنيسة لا يتصل أبدا بشكل المسجد في أي بلد من بلاد المسلمين إلا في المساجد العثمانية التي ظهرت في

---

[1]حكيم بن يلس: جمالية العناصر المعمارية في تلمسان ' المساجد نموذجاً'، جامعة مجلة أنثروبولوجيا الأديان، 2013م، العدد 12، ص: 8.

[2] سعيد بن علي بن وهف القطحاني: المساجد مفهوم، وفضائل، وأحكام، وحقوق، وآداب في ضوء الكتاب والسنة،القاهرة، شبكة الألوكة، ص: 7.

[3]خير الدين وانلي: المسجد في الإسلام، عمان، المكتبة الإسلامية، ط3: 1414هـ، ص-ص: 10-11

[4]سعيد بن علي بن وهف القطحاني، المرجع السابق، ص-ص: 20- 26

العصور الحديثة، كما أن وجود فكرة الصحن أو الفناء لا يمكن أن نربطه بالفناء الذي يتقدم أيضا في الكنائس فكلا الفناءين يختلفان في الشكل والوظيفة[1].

وعلى أثر ما سبق فإن الدول الإسلامية التي نشأت في مشارق الأرض ومغاربها اهتمت بتشييد مساجدها، ولما كان للحضارة حضور في العالم الإسلامي خلال الفترة الوسيطة، فإن التشييد صاحبه الإبداع والفن والزخرفة، فظهرت المساجد والجوامع برونقها وجمالها وقوة تشيدها وما زاد في رونقها فخامة مآذنها، ونورد في هذا الصدد مساجد الدولة الحمادية والزيانية، اللتين مثلتا حاضرتي بلا د المغرب الأوسط خلال فترات من العصر الوسيط، ولا سيما أن باقي أقاليم البلاد انتهجت في معظمها نفس الأطر المعمارية خاصة في العمارة الدينية بفنها وزخرفتها المعمارية.

1.1. مساجد بجاية الحمادية:

بالحديث عن مساجد الدولة الحمادية فإنه لم يصلنا إلا القليل منها،وذلك لعدة اعتبارات خاصة ما تعلق بالظروف الطبيعية، وعلى العموم فقد ترك الحماديون في مجال العمارة والفنون أثارا متنوعة من مساجد وقصور وحصون منها ما اكتشف ومنها ما لايزال دفين الأطلال ومنها ما اندثرت آثاره، والذي لا شك فيه أن الفنون الحمادية كان لها حظ كبير في التأثير على فنون الأندلس، كما أنها تلقت من الأندلس تأثيرات أندلسية وكذلك تبادلت مع المشرق الإسلامي التقاليد الفنية المختلفة، وإن ظلت تحتفظ إلى حد كبير بشخصيتها الواضحة[2]، ومن جماليات الفن وما يلفت النظر داخل قلعة بني حماد، مئذنة المسجد الجامع، وهي مئذنة رائعة الجمال فريدة من نوعها، وما تزال قائمة في وقتنا الحاضر، وتعد أول مئذنة أنشئت في المغرب الأوسط[3]، وهذا الجمال الفني إضافة إلى متانة تشييدها دليل على اهتمام حكام الدولة الحمادية بالعمارة الدينية كونها محور التأثيرات الحضارية.

وتتجزأ بجاية على إحدى وعشرين حيا مشتملة على ثلاث وسبعين مسجدا[4]، منها مسجد الجامع، مسجد الإمام المهدي - مسجد الريحانة.

1.1.1. جامع قلعة بني حماد:

يتخذ جامع قلعة بني حماد شكلا مستطيلاً طوله من الداخل أربعة وستون مترا، وعرضه ستة وخمسون مترا، ويبلغ سمك جدرانه نحو متر ونصف، يتوسطه صحن مستطيل الشكل، ويتألف بيت الصلاة من ثلاث عشرة بلاطة عمودية على جدار القبلة

[1] محمد الطيب عقاب، المرجع السابق، ص ـ ص: 52، 53.
[2] عبد الكريم عزوق: تطور المآذن في الجزائر، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، ط1، 2006م، ص 32.
[3] عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص: 32.
[4] عبد الحليم عويس، المرجع نفسه، ص: 274.

وثمانية أساكيب موازية لجدار القبلة، لكن معظم العمد التي كانت تتكئ عليها عقود الجامع قد ضاعت ولم يتبق منها سوى قواعدها، وكان يفصل بيت الصلاة عن باقي أجزاء الجامع جدار، ويدعم جدران الجامع من الخارج ركائز، وينفتح فيها سبعة أبواب[1].

2.1.1. جامع قصر اللؤلؤة:

وكان الدخول إلى الجامع من باب كبير تحيط به صفائح من الرخام مكسوة بكتابات منقوشة بطريقة فنية رائعة، وبه اثنان وثلاثون عمودا من الرخام وكانت واجهته مزينة بسبعة عشر رواقا تعلوها قبة ضخمة، أما الداخل كان مبلطا كلية بالرخام، وحول الأسوار الجانبية المغطاة بالخزف المزخرف آيات قرآنية ليس له مثيل في مكان آخر، وكان للجامع زيادة على ذلك اثنان وعشرون بوابة صغيرة واحدة خاصة تفتح على النطاق الخاص بالنساء تحت حراسة أحد الشيوخ[2]، وخلال العهد الموحدي بقي الجامع الأعظم، فعلى سبيل الاحتمال فإن الموحدين هم الذين شيدوا القصبة في الزاوية الجنوبية الغربية على ربوة ساحلية قليلة الارتفاع، لقد كان للقصبة جامع خاص به يسمى "جامع القصبة"، كما كان للمدينة جامعها الخاص "الجامع الأعظم" وهو جامع جميل وذو شأن أقدم من جامع القصبة[3].

3.1.1.مسجد الإمام المهدي أو مسجد الريحانة:

وهو المسجد الذي درس فيه المهدي بن تومرت[4]؛ ومسجد النطاعين أي صانعي السجادات الجلدية أو يقال لهم النطاعين ومن الصعب تحديد موقع هذه المساجد بالضبط[5]، كما يعتبر جامع القلعة من أهم جوامع الدولة، فهو مكون من مئذنة شامخة كما ذكرنا وبناء كبير مستطيل حوالي ستة وستون مترا في أربعة وخمسين مترا، ومحاط بأسوار خارجية، ويوجد في أول المدخل الجانبي ساحة (فناء) به صهاريج، والأعمدة المقامة بيضاوية الشكل من الرخام الأبيض موضوعة على أوتاد مسلحة مثبتة بالأرض[6]، ويسمى أيضا بمسجد الريحانة هو المسجد الذي درس فيه محمد بن تومرت[7].

4.1.1.المسجد المرجاني:

---

[1] عبد الكريم عزوق، المرجع نفسه، ص: 34.

[2] محمد بن عميرة ولطيفة بن عميرة، المرجع السابق، ص: 54.

[3] روبار برونشفيك، المرجع السابق، ص: 414.

[4] ابن تومرت: أبو عبد الله محمد بن عبيد الله بن تومرت البربري المصمودي الهرغي، الخارج بالمغرب المدعي أنه حسني علوي، وأنه الإمام المعصوم المهدي، مؤسس دولة الموحدين، وكان جل ما يدعو إليه الاعتقاد على رأي الأشعري. ينظر: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء. ج: 19، تح: شعيب الأرنؤوط، ونعيم العرقسوسي، بيروت: مؤسسة الرسالة ط: 11، 1996م. ص:539.

[5] محمد بن عميرة ولطيفة بن عميرة، المرجع السابق، ص: 65.

[6] عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص: 276.

[7] البيدق أبو بكر علي الصنهاجي: المصدر السابق، ص: 13.

وهو من جوامع بجاية الحمادية موقعه قرب باب المرسى[1]، وهو من الجوامع غير الجامعة، كما ينسب هذا المسجد إلى الفقيه المرجاني الذي درس فيه.

5.1.1.مسجد أبي زكريا الزواوي:

موقعه كذلك قرب باب المرسي بجانب جامع المرجاني[2]، وفي هذا المسجد درس الشيخ أبي مدين شعيب[3] الأنصاري دفين العباد قرب تلمسان[4].

كما يمكن الإشارة إلى أن المصليات كان لها حضور في العهد الحمادي، فقد ذكر روبار برونشفيك أن بجاية كانت تشتمل على مصلى لا يعرف موقعه بالضبط[5].

2.1. مساجد تلمسان:

لقد اعتنت الدولة الزيانية كغيرها من الدول الإسلامية بالعمارة الدينية وركزت ببالغ الاهتمام على تشيد المساجد وفق ما تقتضيه الضرورة الدينية، وصحب ذلك البناء والتشييد طابع الزخرفة والفن والإبداع، كما أن جوامع تلمسان بقيت محافظة في معظمها على أصالتها، ومن بين جوامع تلمسان ومساجدها القديمة التي لا تزال قائمة هي أربعة، الجامع الكبير، وجامع سيدي إبراهيم المصمودي[6]، وجامع سيدي أبي مدين بقرية العباد، وجامع سيدي الحلوي[7]، وفي هذه الجوامع الأربع تقام صلاة الجمعة، وصلاة العيدين: عيد الفطر وعيد الأضحى[8].

1.2.1.مسجد أغادير:

---

[1]محمد بن عميرة ولطيفة بن عميرة، المرجع السابق، ص: 64.

[2]محمد بن عميرة ولطيفة بن عميرة، المرجع السابق، ص: 64.

[3]شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني: أبو مدين صوفي من مشاهيرهم، أصله من الأندلس أقام بفاس وسكن بجاية، وكثر أتباعه حتى خافه السلطان يعقوب المنصور. وتوفي بتلمسان سنة594هـ وقد قارب الثمانين أو تجاوزها. له (مفاتيح الغيب لإزالة الريب وستر العيب). ينظر: الزركلي: المرجع السابق، ج:3، ص:166.

[4]مصطفى بن يحي: أدور العمارة الدينية في المغرب الأوسط مابين القرن الخامس إلى التاسع الهجري (ق 11-15م)، عمان، منشورات ألفا للوثائق، ط1، 2020، ص: 87.

[5]روبار برونشفيك، المرجع السابق، ج1، ص 415.

[6]ابراهيم المصمودي: أبو إسحاق بن موسى المصمودي أصله من صنهاجة المغرب، نشأ وقرأ على جماعة في فاس كالعبدوسي والآبلي أبو عبد الله الشريف التلمساني، ثم انتقل لسكنى المدرسة التاشفينية، كان مقبلا على العلم والعبادة والاجتهاد في سلوك طريق أرباب المجاهدات، وأخذ بالعناية القصوى في باب الورع والزهد والإيثار. ينظر: ابن صعد التلمساني: مخطوط النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب، " الجزء الأول". دراسة وتحقيق. بلحاج محمد، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، إشراف: بن معمر محمد، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2008/2007م، ص: 95.

[7]الشيخ الحلوي: أبو عبد الله الشوذي الاشبيلي إمام العارفين وتاج الأولياء المحققين وسيد الصالحين، نزيل تلمسان وهو من أكابر العلماء العباد العارفين بالله، كان قاضيا بأشبيلية آخر دولة بني عبد المومن ثم فر بنفسه إلى تلمسان في زي المجانين وتوفي بها. ينظر: ابن مريم، المصدر السابق، ص:70.

[8]محمد بن رمضان شاوش، المرجع السابق، ص: 169.

يرجع بناء المسجد إلى أواخر القرن الثاني للهجرة عندما دخل إدريس الأول مدينة تلمسان سنة 174هـ/790م، وقد شهدت هذه السنة تأسيسه لمسجد أغادير الذي فرغ من بناءه في عهد إدريس الثاني سنة 199هـ/ 914م، ولكن المسجد اندثر نهائيا واختفت معالمه تحت التراب، وبقيت مئذنته التي يرجع تأسيسها إلى عصر الأمير الزياني يغمراسن بن زيان، فبني المسجد وأعيد ترميم المئذنة في تلك الفترة، أما عن المئذنة فمازالت قائمة وتشهد على رشاقة طابعها المعماري والفني المميز لمآذن بلاد المغرب الإسلامي، ومئذنته كانت عبارة عن برج مربع الشكل[1].

2.2.1.المسجد الكبير:

يعد هذا الجامع من أهم المساجد القلائل التي أنشأها المرابطون في المغرب الأوسط، بناه الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين[2] سنة 530هـ/1135م[3]، ويعتبر جامع تلمسان أحد روائع الفن والعمارة المرابطية في الجزائر حيث تداخلت فيه الكثير من مظاهر التأثيرات المغربية والأندلسية، كما أنه يعتبر صورة مصغرة لجامع قرطبة، إذ اقتبس هذا الجامع نظامه التخطيطي وواجهة القبلة التي تتقدم المحراب والقبة المشرفة على الصحن، واستخدام العقود بالإضافة إلى فكرة المحاريب الثلاثة التي ظهرت بادئ الأّمر في قرطبة في عهد الحكم المستنصر[4] الخليفة الأموي[5].

ولقد تعرض المسجد منذ تأسيسه إلى بعض التعديلات مست واجهته الرئيسية أما في العهد الزياني فقد أدى اختيارهم لمدينة تلمسان كحاضرة لدولتهم التي تزايد عدد سكانها، وأدى إلى اكتظاظ الجامع بالمصليين الأمر الذي جعل الأمير يغمراسن بن زيان يأمر بإضافة بلاطتين إلى المجنبة الغربية من الصحن على حساب مساحته، بالإضافة إلى ذلك أقام الأمير مئذنة له، أما في عهد أبو حمو موسى الثاني شهد إضافة خزانة كتب إلى الجامع سنة

[1]عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص ـ ص: 10، 11.

[2]أبو يعقوب يوسف ابن تاشفين اللمتوني: أمير المسلمين وملك الملثمين، وهو الذي اختط مدينة مراكش، صاحب دولة المرابطين، ملك المغرب والأندلس، توفي 500هـ .ينظر: أبو العباس شمس الدين بن خلكان،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مج: 7، تح: إحسان عباس،بيروت: دار صادر، ص: 125.

[3]عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص ـ ص: 24، 25.

[4]الحكم المستنصر: بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله، خليفة أمويّ أندلسي، ولد بقرطبة وولي الخلافة بعد أبيه سنة 350 هـ. ينظر: الزركلي: المرجع السابق، ج:2، ص: 267.

[5]عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص: 53.

760هـ/1359م، كما أضيف إلى الجامع في عهد ابنه الأمير أبو زيان بن أبي حمو خزانة كتب أخرى تقع في مؤخر الجامع[1].

أما نمط تكوين هذا المسجد فهو يتكون من قسمين رئيسيين هما: القسم الأول بيت الصلاة، والقسم الثاني: الصحن، وتوجد في المسجد الكبير الأعظم 530هـ/1136م ثلاثة أساكيب في المجنبة الشرقية، وفي المجنبة الغربية أربعة منها، وأسكوب واحد في كلا المجنبتين في كل من مسجد سيدي الحلوى 754هـ/1354م، ومسجد أبي مدين 739هـ/1338م، وهناك بعض المساجد الصغيرة التي تحتوى فقط على بيت الصلاة كمسجد أولاد الإمام[2] 700هـ/1300م، ومسجد أبي الحسن 696هـ/1296م، وكما هو معلوم أن أساكيب وبلاطات المساجد تتفاوت، وذلك تبعاً لأهمية المكان الذي يوجد فيه المسجد[3]، أما عن داخل الجامع الكبير فيحتوى على محراب وقاعة للصلاة والثرايا الكبرى والصحن والمئذنة، أما خارج الجامع فنجد المقصورة، وضريح، ومحل الوضوء، ومقصورة المفتي، والمحكمة، أما أبواب الجامع الثمانية فهي: باب ابن مرزوق[4]، وباب الجنائز، وباب الخرازين، وباب المساكين، وباب سيدي أحمد بن الحسين، وباب النساء، وباب سيدي صعد، وباب القصر[5]، كان قرب كل باب من أبوابها الأربعة مساجد، وكان الجامع الأعظم في وسط المدينة الذي له ثلاثة عشر بابا؛ منها أربعة شرقاً؛ وأربعة غرباً؛ واثنان قبلة عن يمين المحراب ويساره، وثلاثة شمالاً واحد منها تحت المئذنة، وهي ميزة خاصة لهذا الجامع واثنان عن يمينه ويساره[6]، كما أن صومعة الجامع العتيق التي بناها يغمراسن هي وصومعة الجامع الكبير في آن واحد وهي متشابهة من حيث الوضع والزخرفة[7].

3.2.1.مسجد المشور:

---

[1]عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص:، ص: 24، 25.

[2]أولاد الامام: أبو زيد عبد الرحمن وأخوه شقيقه أبو موسى عيسى المعروفين بابني الإمام التلمساني ابن العالمان الراسخان والعالمان الشامخان المشهوران شرقا وغربا...الأخوين المشهورين بأولاد الإمام التنسي البرشكي، وهما فاضلا المغرب في وقتهما.. تخرج بهما كثير من الفضلاء، ولهما التصانيف المفيدة والعلوم النفيسة. ينظر: أحمد بابا التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، طرابلس: دار الكتاب، ط:2000،2م، ص:245.

[3]محمد الطيب عقاب، المرجع السابق، ص: 55.

[4]أبو العباس أحمد بن مرزوق: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن مرزوق(ت741ه/1341م)، وهو حفيد ابن مرزوق الخطيب، الذي أخذ عنه تعليمه الأول قال في حقه بلديه أبو الفرج بن أبي يحي الشريف التلمساني« سليل الصالحين، وخلاصة مجد التقى والدين، نتيجة مقدمات المهتدين، حجة الله على العلم والعالم، جامع بين الشريعة والحقيقة على أصح طريقة»[4] اتصف بالزهد والورع، واشتهر بإجابة الدعوة وكان صاحب كرامات، صالحا زاهدا ورعا[4] قرأ عليه الكثير من أهل تلمسان وانتفعوا به، منهم الولي الصالح عبد الرحمن الثعالبي، والعلامة أبو عبد الله التنسي،والقلصادي الذي ذكره في رحلته بقوله: « الشيخ الفقيه الإمام العلامة الكبير الشهير، شيخنا وبركتنا سيدي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مرزوق». ينظر: أبو الحسن علي القلصادي:رحلة القلصادي، تح: محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع: تونس1978م، ص:96.

[5]محمد بن رمضان شاوش، المرجع السابق، ص: 173.

[6]محمد بن رمضان شاوش، المرجع نفسه، ص: 227.

[7]محمد بن رمضان شاوش، المرجع نفسه ، ص: 165.

هو واحد من أهم مباني حصن المشور، يرجع إلى السلطان الزياني أبي حمو موسى الأول أسسوه سنة (707هـ/1318م) والمشور اسم يطلق على مقر إقامة السلطان الزياني يغمراسمن بن زيان، يتربع هذا المسجد على مساحة كبيرة تحيط به ويحتوي على أبراج يشتمل بداخلها على قصر السلطان، وبعض من الدور الملحقة به، وقد شهد المسجد عدة تغيرات عبر العصور المختلفة[1]، وكما هو معلوم فإن مسجد المشور معاصر لمسجد أولاد الإمام غير أن وقوع هذا المسجد داخل حصن المشور جعله عرضة للغارات في الكثير من الأحيان، مما أدى إلى تهديمه وإعادة بناءه كلما دعت الضرورة لذلك[2]، وهذا الأمر كان سبباً في اختفاء معالم عمارته الأولى.

4.2.1.جامع المنصورة:

يعود تاريخ بناء مدينة المنصورة إلى عهد سلاطين بني مرين، أثناء حصارهم لمدينة تلمسان، فكان من ضمن ما قام به المرينيون أثناء هذا الحصار الذي دام ثماني سنوات أن أسسوا مدينة مواجهة لمدينة تلمسان لتكون قاعدة لهم قصد الانقضاض عليها وسموها المنصورة، ومن جملة المباني التي شيدوها في مدينتهم الجديدة جامعها الكبير الذي يعرف بجامع المنصورة والذي أمر ببنائه السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق[3] سنة 702هـ/ 1303م غير أنه لم يشهد إتمام هذا الجامع حيث وافته المنية قبل أن يكتمل بناؤه.[4]

5.2.1.مسجد أبي الحسن التنسي:

أنشأ هذا المسجد أثناء فترة حكم الزيانين لتلمسان وقد بني تخليداً لذكري الأمير أبي إبراهيم بن السلطان يحي بن يغمراسن سنة 696هـ/ 1296م، كما يرجح أن يكون أبا سعيد عثمان مؤسساً لهذا المسجد كما تبين ذلك الكتابة التي توجد على يمين المحراب وعلى يساره [5]، ومع مرور الزمن أصبح هذا المسجد ينسب إلى الشيخ سيدي أبي الحسن، وربما ترجع التسمية إلى شخصية الفقيه أبي الحسن بن يخلف التنسي الذي عاش في عهد أبي سعيد عثمان الذي كان يتولى تدريس العلوم الدينية لهذا المسجد مما أدى إلى ذيوع اسمه وأصبح المسجد ينعت باسمه[6]،كما يعد هذا المسجد أجمل بناء فني في ذلك العهد، إذ هو وحيد في مظهره العام وفي أبهة بناءه، فهو على صغره غاية في الأناقة ونقوشه في منتهى الجمال والزخرفة

[1]عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، ص: 61.
[2]عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 112
[3]يعقوب بن عبد الحق: أبو يوسف المريني أمير المسلمين، بويع له بالخلافة بحضرة فاس بعد وفاة أخيه أبي يحي سنة 656هـ. ينظر: ابن أبي زرع،الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية. اعتنى بنشره: محمد بن أبي شنب، الجزائر: مطبعة جول كربونل 1920م. ص: 92.
[4]عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 220.
[5]عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص: 496.
[6]عبد المالك موساوي، المرجع السباق ، ص: 44.

الخلابة[1]، ويقع مسجد أبي الحسن بالقرب من المسجد الأعظم،وكما تدل الشواهد على أن هذا المسجد كان خاصاً بالأمراء وأرباب الدولة الزيانية، ومما يؤيد هذا القول هو قربه من القصر الذي كان يمتد من الجامع الكبير شرقاً إلى نهج ابن خميس[2] غرباً، وكان بابه معروفا بباب البنود مقابلاً لهذا المسجد الفخم[3]، وتعرف قاعة صلاة المسجد بشكلها المربع وعلى مساحة تقدر بمئة مربع، ويحتوى على ثلاثة أروقة وسقف محمول على صفين من الأعمدة المكللة بتيجان، وهذا السقف من خشب الأرز المنقوش بأشكال بديعة، وبه قبة ترتاح على أعمدة من المرمر داخلة في زوايا الرسم الكثير الأضلاع والأعمدة على الافريز الذي يتبدى منه قوس فتحة المحراب، وهو قوس على شكل حدوة الفرس يحمله عمودان من المرمر داخلان، ويحيط به إطار عجيب رائع المظهر يتألف من حاشية أولى مدورة الشكل، ثم تأتي حاشية ثانية محفورة محتوية على خط عادي بسيط تحيط بالقوس في مستطيل كبير إلى زاوية الجهة العليا، وبعد ذلك تأتي حاشية ثالثة مؤلفة من عدة حويشات ذات خطوط كوفية، وفوق ذلك كله تأتي طبقة محتوية على ثلاثة نوافد مقوسة ومزخرفة بأشكال هندسية تلمع لمعانا، وهذه الطبقة والتي قبلها تجمعهما حاشيتان أخريان طبقتان مزخرفتان بخطوط عادية بسيطة، ولزخرفة المحراب هذه شبه كبير بزخرفة محراب مدرسة العطارين الفاسية، وذلك حسب ما جاء به صاحب كتاب "باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان" نقلا عن "ألفريد بال"[4]

6.2.1.مسجد سيدي بومدين:

عرفت فترة حكم السلطان أبي الحسن امتدادا كبيراً للدولة المرينية على حساب أراضي المغرب الأوسط، وقد تمكن السلطان من دخول تلمسان سنة 738هـ/1336م، وكان من جملة ما شيده مسجد العباد الذي ألحقه بضريح الشيخ الصوفي سيدي أبي مدين، الذي بني في عصر الموحدين من طرف السلطان محمد الناصر[5] في السنوات الأخيرة من القرن السادس للهجرة، وقد أصبح هذا المسجد يعرف بمسجد سيدي أبي مدين نسبة إلى الشيخ الصوفي أبي

[1]محمد بن رمضان شاوش، المرجع السابق، ص: 230.

[2]ابن خميس: محمد بن عمر بن محمد الحجري الرعينيّ، أبو عبد الله التلمساني، شاعر وعالم بالعربية من أعيان تلمسان. كان يكتب عن ملوكها ثم فر منهم ومر بسبتة وغيرها، واستقر بغرناطة سنة 703هـ وتوفي بها قتيلا. طبقته في الشعر عالية. له ديوان سمي (المنتخب النفيس في شعر ابن خميس) ونسبته إلىحَجْر ذي رُعَيْن، توفي سنة708هـ. ينظر: الزركلي: المرجع السابق، ج:6، ص: 314.

[3]محمد رمضان شاوش، المرجع السابق ص: 230.

4محمد رمضان شاوش، المرجع السابق، ص- ص: 187، 188

[5]محمد الناصر: بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الزناتي الكومي الموحدي، الناصر لدين الله، من خلفاء دولة الموحدين، كان له المغرب الأقصى وإفريقية والأندلس، بويع في حياة أبيه وجددت له البيعة بعد وفاته سنة 595 هـ وكان في مراكش فانتقل إلى فاس، وثار عليه يحيى بن إسحاق المسوفي المعروف بابن غانية،وفي أيامه كانت وقعة العقاب المشهورة بالأندلس سنة 609هـ بينه وبين الإفرنج. وقد استشهد في هذه الوقعة عدد كبير من المسلمين، وعاد بعدها إلى مراكش، وتوفي في رباط الفتح سنة 610هـ. كان داهية من عظماء هذه الدولة . ينظر: الزركلي: المرجع السابق، ج: 7، ص:145.

مدين شعيب الأندلسي دفين منطقة العباد، ويمكن الإشارة إلى أن تخطيط هذا المسجد له تأثير كبير على المساجد الزيانية التي بنيت بعده مثل مسجد سيدي الحلوي، ومساجد أخرى تعود إلى أواخر العهد الزياني، والتي شيدوها بعد استرجاع سلطانهم على تلمسان من المرينين مثل مسجد سيدي ابراهيم[1].

7.2.1.مسجد سيدي الحلوي:

يعود تاريخ بناء المسجد إلى عهد السلطان المريني أبي عنان فارس[2] ابن السلطان أبي الحسن، وبالضبط سنة 754هـ/ 1353م، وقد كان بناء هذا المسجد إكراما لروح الشيخ القاضي الأندلسي أبي عبد الله الشوذي الإشبيلي الذي عرف عند أهل تلمسان باسم سيدي الحلوي، إن تخطيط هذا المسجد يشبه مخطط مسجد سيدي أبي مدين شعيب، ذلك أن معظم العناصر المعمارية في هذا المسجد تنتهج نهج نظام العناصر الموجودة في مسجد سيدي أبي مدين إلا أنه مطابق له من حيث العناصر الأساسية مثل الصحن والأبواب والبلاطات والمحراب[3].

8.2.1.مسجد سيدي إبراهيم:

يرجع تاريخ بناء هذا المسجد إلى فترة حكم السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني الذي تولى إمارة تلمسان في 760-791هـ/ 1359-1389م، وكما هو معلوم فقد كان المغرب الأوسط في هذه الفترة تابعاً لدولة بني مرين، إلى أن تمكن السلطان أبو حمو موسى الثاني من استعادتها، وكان من الطبيعي أن تتوقف الحركة العمرانية الزيانية زمن المرينيين، فلما استعاد الزيانيون سلطانهم عليه،بدأ المغرب الأوسط يشهد نهضة عمرانية واسعة النطاق سيما في تلمسان، إذ أسس السلطان أبو حمو موسى الثاني المجموعة البنائية المكونة من المدرسة، والزاوية، والضريح، والمسجد، في السنوات الأولى من توليه الحكم، وعرفت هذه المجموعة فيما بعد بالمدرسة اليعقوبية، تخليداً لذكرى أبي يعقوب والد السلطان أبو حمو موسى، وأصبح يعرفان فيما بعد باسم ضريح ومسجد سيدي إبراهيم المصمودي المتوفي سنة

[1] عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 122.

[2] فارس أبي عنان بن علي المريني: أبو فارس المتوكل على الله :من ملوك الدولة المرينية بالمغرب الأقصى. كان من أبناء ملوك بني مرين المبعدين إلى الأندلس. وأقام في كنف بني الأحمر زمنا. ثم جهزه الغني بالله ابن الأحمر ووجهه لانتزاع المغرب من المستنصر بالله المريني أحمد بن إبراهيم فنزل بسبتة وسلمها لابن الأحمر، وتقدم إلى فاس ولم يجد مقاومة، فاستقرّ بها. وحاول المستنصر دفعه فلم يفلح، وظفر به موسى وأرسله إلى ابن الأحمر.وتمت البيعة لموسى سنة 786 هـ واستبد بأمور الدولة وزيره مسعود بن رحو عبد الرحمن ابن ماساي، فأراد التخلص منه، فأوعز ابن ماساي إلى من دس له السم فمات.ومدة حكمه سنتان وأربعة. ينظر: الزركلي: المرجع السابق، ج: 7، ص: 326.

[3] عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 189.

800هـ/1401م، نسبة إلى أحد الشيوخ البارزين الذي عاش بتلمسان في ظل الدولة الزيانية والمدفون في الضريح[1].

أما عن أهم ميزة لجوامع تلمسان فهي منحصرة في أمران، أولهما: بناؤها في مرحلة واحدة بدون إعادة بناء في مراحل أخرى ما عدى بعض الأجزاء البسيطة كوسائل التدعيم والتي لا تغير من ارتسام المسجد في شيء، وثانيها: امتيازها بوحدة التصميم والهيكل، وقد امتدت هذه الميزة إلى الوقت الحاضر، وفي هذا دلالة على تمسك الأهالي بأصالتهم الحضارية، وأن هذه الوحدة بهذه المنطقة قد شملت حتى المساجد الصغيرة[2]، والذي يجذب الانتباه في مساجد المدينة كونها تمتاز بدعامات متقاطعة (مركبة)، وهذا التركيب يسهل توجيه العقود (الأقواس) من موازية إلى عمودية على جدار القبلة، والاستغناء عن الأعمدة التي اعتاد المسلمون القدماء إقامتها في مساجدهم، وقد سمحت تلك العقود بتسرب الضوء إلى عمق بيت الصلاة ومن ثم تنويره، كما أن لها دور في تحمل وتوزيع ثقل الجدران والسقف في جهة بحيث أصبحت علامة مميزة في فن عمارة بلاد المغرب الأوسط، دون أن نغفل الناحية الجمالية التي يتحلى بها خاصة فيما يتعلق بشكلها التعاقبي من تضيق فانفتاح وتضيق.[3]

وكما ذكرنا أن فترة العهد الزياني عرفت بكثرة مساجدها ففي العباد والذي ينقسم إلى قسمين العباد العلوي والعباد السلفي، حيث كان لكل من العباد العلوي خمسة مساجد وللعباد السفلي كذلك خمسة مساجد[4].

9.2.1.جامع ندرومة:

المسجد الجامع بندرومة واحد من أهم الآثار التي قام المرابطون بإنشائها في المغرب الأوسط، وهو يشبه إلى حد ما المسجد الجامع بالجزائر العاصمة الذي بني في نفس الفترة، ويتألف بيت صلاة المسجد من تسع بلاطات عمودية على جدار القبلة وثلاث أساكيب، وثلاث بلاطات في كل من مجنبتي الصحن الشرقية والغربية، ويزيد اتساع البلاطة الوسطى عن البلاطات الأخرى، ولكن العقد المفصص الذي كان الظاهرة المميزة لمساجد المرابطين في المغرب الأوسط اختفى تماماً في جامع ندرومة[5].

3.1. عمارة المساجد في سدراتة:

[1] عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 92.
[2] محمد الطيب عقاب، المرجع السابق، ص: 54.
[3] محمد الطيب عقاب، المرجع السابق، ص: 57.
[4] محمد بن رمضان شاوش، المرجع السابق، ص: 234.
[5] عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص ـ ص: 56 - 57.

ارتأينا من خلال هذه الدراسة أن نقدم أنموذجا عن واقع العمارة الدينية والمتمثلة في مساجد جنوب المغرب الأوسط، وذلك بما توفر لنا من مادة علمية، خاصة أن المصادر التي تتناول العمارة بصفة عامة في المناطق الجنوبية جد شحيحة.

تعتبر المساجد من أهم المعالم الدينية التي تم تشيدها في مختلف البقاع التي وصل الإسلام إليها، فلقد عنيت باهتمام متميز في مختلف المناطق الإسلامية خاصة في المدن بما فيها مدن الجنوب، فقد وجد في مدينة سدراتة جامع له موقع استراتيجي مهم حيث يشغل مائة وثمانية وأربعون مترا، علاوة على أن هذا المكان لا زال يحتفظ بقدسيته لدى الإباضيين، إذ يجتمعون بالقرب منه، ومن بين الإشارات التي تقدمها المادة العلمية على هذا المعلم الديني، أنه يقع في الناحية الجنوبية التي يعتقد أنها النواة لمدينة سدراتة، ويحيط به مجموعة من المباني، وهو لا يبعد كثيراً عن السور الغربي للمدينة[1].

وبالتحديد فإن موقعه في الجهة الجنوبية من الربوة الغربية متوسطا أطلال العمائر المدنية[2]، وهو عبارة عن هيكل مستطيل الشكل يبلغ طوله ثلاثة وعشرون مترا، وعرضه ثمانية عشر مترا،ينقسم ضمنيا إلى قسمين يبلغ طول الأول عشرة أمتار، في حين يصل الثاني إلى ثلاثة عشر مترا، وقد كان هذا الأخير مبلطا ومرتفعا عن سطح الأرض قليلا ويحتوي على أحواض محفورة في الأرض يتم تزويدها بالمياه بواسطة قناة تتصل بإحدى زوايا الجدار[3]، ترتفع في واجهته الشمالية الشرقية مئذنة ذات قاعدة مربعة يقدر طول ضلعها بـ 1.45م' أما قاعة الصلاة فتم الكشف عن قسم منها فقط، وهو مكون من اثنا عشر(12) عمودا موزعة على ثلاث (03) صفوف ومغطى بعشرين (20) قبة مربعة الشكل[4]، بينما صممت الواجهات الأساسية في شكل حنيات صماء معقودة بلغ ارتفاعها في جدار القبلة (2.83م)، وتراوحت ما بين (1.50)و(1.55م) في الجدار الجنوبي، كما اشتمل الركن الجنوبي على حنية ركنية يصل عمقها إلى (1.70م) ويقارب ارتفاعها (2م).[5]

3.1.الدور الحضاري للمساجد:

[1] حملاوي علي، المنشآت الدينية بمدينة سدراتة(ورقلة) ملاحظة أولية حول المسجد الجامع، مجلة بحوث، جامعة الجزائر، 2000م، مجلد 06، العدد01،، ص - ص 67 - 68.

[2] Idem (1965), Le Palais de Sedrata dans le désert saharien, in stadies, in islamic art and architecture in honour of professor K.A.C.creswell, Amirican university in Cairo, Cairo,p:217.

[3] Victor Largeu (1897), Le pay de RIRHA, OURGLA, voyage à RHDAMES, Paris, p:187, 188.

[4] Harold Tarry (1884), Les villes berbères de la vallée de l'Oued Maya, in revue d'ethnographie, tome 3, Paris, p: 07.

[5] Marguerite Van Berchem (2017), Le site archéologique, in Sedrata Histoire et archéologie d'un carrefour du Sahara médiéval à la lumière des archives inédites de Marguerite van Berchem, Collection de la Casa de Velázquez n° 161, Madrid, p :226.

لقد أوردنا سابقاً أن المساجد شيدت قصد عبادة الله كما دلت على ذلك آيات بينات كثيرة أوردنا البعض منها، لكن ما لبثت المساجد حتى أصبحت مركز الحضارة، فلقد كانت في عهد النبي ρ مركزا دينياً ثقافياً، وعسكرياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وحتى بالمفهوم الحالي مركزاً خدماتي؛ يرتكز عليه المسلمون في تسيير جّلِ شؤونهم، كما أن المساجد في الفترات اللاحقة ـ بعد تبدل أحوال المسلمين، وإنشاء القصور والصروح والمراكز العلمية المختلفة ـ قد حافظت على مركزيتها الثقافية العلمية والاجتماعية ففيها كان الأمراء والزعماء يعقدون الاجتماعات العمومية لأخذ الرأي في الشؤون الهامة التي يعتزمون القيام بها، ولعل الدور البالغ الأهمية هو تلك الوظيفة الأساسية المناطة إلى المسجد والمتمثلة في تهذيب أفراد المجتمع وتقوية الروابط الدينية والاجتماعية.

كما أن الأمراء كانوا يجتمعون في الجامع مع كبار العلماء ووفود الأمة بمناسبة اختيار قاضي الجماعة، وكان أيضاً محكمة يتقاضى فيها المتقاضون لدى الأمير أو لدى القاضي[1]، وهكذا كان المسجد معبداً ومدرسةً ومحكمة ومحل اجتماعات عمومية.

2.خصوصيات مآذن بلاد المغرب الأوسط:

المئذنة موضع الأذان للصلاة، قال اللحياني: هي منارة، يعنى الصومعة. ويقول أبو زيد: يقال للمنارة المئذنة والمؤذنة[2]، والمئذنة بناء رأسي مرتفع يعلو في قمته صوت المؤذن للإعلان والإعلام بحلول وقت الصلاة عن طريق النداء ودعوة المسلمين إليها في أوقاتها الخمس ويوم الجمعة، والأذان أصل المئذنة، وهي مكانه وهو مرتبط أساساً بحاسة السمع، ولقد تعددت الآراء حول فكرة ظهور الآذان[3]، فقد جاء في صحيح البخاري عن ابن عمر[4] رضي الله عنهما كان يقول: كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة وليس ينادى لها، فتكلموا يوما في ذلك فقال بعضهم اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم بل بوقاً مثل قرن اليهود، فقال عمر: أولا تبعثون رجلاً ينادى بالصلاة؟ فقال رسول الله ρ: يا بلال[5] قم فنادي بالصلاة[6].

1إبراهيم العبيدي التوزري: تاريخ التربية في تونس، تونس، الشركة الوطنية للتوزيع، (د،ط)، (د،ت)، ج1، ص: 135.
2ابن منظور، المصدر السابق، ج 13، ص 12.
3 عبد الكريم عزوق، المرجع السابق ص: .17.
4عبد الله بن عمر: بن الخطاب العدوي، أبو عبد الرحمن صحابي من أعز بيوتات قريش في الجاهلية. كان جريئا جهيرا. نشأ في الإسلام، وهاجر إلى المدينة مع أبيه، وشهد فتح مكة.ومولده ووفاته فيها، أفتى الناس في الإسلام ستين سنة. توفي سنة 73هـ . ينظر: الزركلي، المصدر السابق، ج:4، ص: 108.
5بلال بن رباح الحبشي: أبو عبد الله :مؤذن رسول الله صلّى الله عليه وسلم وخازنه على بيت ماله، من مولدي السراة، وأحد السابقين للإسلام .وفي الحديث :بلال سابق الحبشة، وكان شديد السمرة، نحيفا طوالا، خفيف العارضين، له شعر كثيف. وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلّى الله عليه وسلم ولما توفي رسول الله أذن بلال، ولم يؤن بعد ذلك. وأقام حتى خرجت البعوث إلى الشام، فسار معهم. وتوفي في دمشق سنة 641هـ . ينظر: الزركلي، المرجع السابق، ج:2، ص:73.
6صحيح البخاري بشرح ابن حجر، كتاب الآذان باب بدء الآذان، بيروت، ط، 1976م، ج2، ص: 77.

لذلك جاءت المئذنة كتجسيد لفكرة الآذان حيث أصبحت منذ ظهورها في جامع عمر بن العاص[1] عنصراً هاما من عناصر العمارة الإسلامية، وخلال دراستنا صادفت بعض الدراسات التي ترجع أن المئذنة كانت غير موجودة في عهد النبي ρ وأن وجودها هو إسراف في المال والجهد، ويمكن أن نكتفي بمكبرات الصوت، لكن في هذا القول تضيق على نمطية الحضارة والتطور فالمئذنة من خلالها تقوم بدور النداء للصلاة على أفضل الأوجه، كما أن ظهورها مرتبط بصحابة النبي ρ، وغنى عن القول فإن المآذن في الإسلام لها حضور متميز في العمارة الإسلامية.

ويمكن القول أن المئذنة التي أعطت للمساجد طابعها الخاص المميز تختلف صورتها من عصر إلى عصر أخر، ومن منطقة إلى منطقة أخرى، فهناك المئذنة المربعة، والمئذنة المثمنة الأضلاع، والمئذنة الأسطوانية الشكل، والمئذنة المخروطية الشكل، والمئذنة اللولبية، وهناك المئذنة التي تتألف من طابق واحد، والتي تتألف من ثلاثة طوابق في حين أن أبراج الكنائس تلتزم عادة بشكل مميز هو الشكل المربع[2]، أما عن موضع المئذنة في المسجد فهو يختلف من مسجد إلى أخر، فقد تكون في مقدمة أو مؤخر المسجد، أو قد تكون على جانب منه أو ركن من أركانه، وقد تنتصب مستقلة عن صحن المسجد وبيت الصلاة وقد تكون ملتصقة بالجدار الخارجي[3].

2.المآذن في العهد الحمادي:

أما عن خصائص المئذنة خلال العهد الإسلامي وبالتحديد فترة الدراسة، فقد وصلت إلينا من هذا العهد أوصاف ثلاثة مآذن: منها الموجودة في العاصمة الأولى للدولة الحمادية وهي: مئذنة جامع قلعة بني حماد بالمسيلة، ومئذنة جامع قسنطينة، ومئذنة جامع أبي مروان، وقد تعرضت هذه المآذن لأضرار عبر حقب التاريخ الإسلامي[4].

أ.مئذنة جامع قلعة بني حماد:

مئذنة جامع قلعة بني حماد تتوسط الجدار الشمالي على نفس المحور الرئيسي له وهو تقليد اتبع في المسجد الجامع بالقيروان، ومئذنة جامع صفاقص، ومئذنة جامع قرطبة، وتتكون المئذنة من قاعدة مربعة الشكل يعلوها بدن المئذنة الذي يتألف من طابق واحد مربع

[1]عمرو بن العاص: بن وائل السهمي القرشي، أبو عبد الله فاتح مصر، وأحد عظماء العرب ودهاتهم وأولي الرأي والحزم والمكيدة فيهم. كان في الجاهلية من الأشداء على الإسلام، وأسلم في هدنة الحديبيّة. وولاه النبي صلى الله عليه وسلم إمرة جيش " ذات السلاسل " وأمده بأبي بكر وعمر. ثم استعمله على عُمان. ثم كان من أمراء الجيوش في الجهاد بالشام في زمن عمر، توفي سنة 43هـ. ينظر: الزركلي، المرجع السابق، ج:5، ص: 79.

[2]عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص: 17.

3 عبد الكريم عزوق، المرجع نفسه ، ص: 18.

4عبد الكريم عزوق، المرجع نفسه، ص: 33.

الشكل بدوره، أما عن الزخارف التي تزين هذه المئذنة فهي على الواجهة الجنوبية المقابلة للصحن، أما فيما يخص الواجهات الأخرى فخالية عن الزخرفة باستثناء بعض الفتحات والمزاغل التي استعملت للإضاءة والتهوية، ومدخل المئذنة في الخارج معقود بعقد نصف دائري تعلوه لوحة حجرية تزدان بزخارف نباتية[1].

إذ يعتبر الجامع الواقع قرب قصر اللؤلؤة من أكثر الصروح إلفاتا للنظر، يبلغ علو مئذنته ستون ذراعا، وعرض قاعتها عشرون ذراعا[2]، وتتميز بتناسق هندسي واضح المعالم، وعلى الرغم من تهدم جوسقها العلوي، وسقوط بعض الزخارف التي كانت تزين بها أوجهها فإن ما تبقى من أجزائها الأصلية لا يزال يحتفظ بأصوله المعمارية الأولى، والمئذنة مربعة القاعدة تتوسط الواجهة الشمالية من الجامع[3].

وتتكون مئذنة جامع القلعة من طابق واحد من القاعدة إلى القمة ولا تميل جدرانها كلما ارتفعت كما هو الحال في مئذنتي جامع القيروان وجامع صفاقص المتأثرين فيما يبدو بمنارة الإسكندرية، وإنما تحتفظ الجدران باستقامتها واعتدالها كلما ارتفعت[4]، وكان يصعد إلى أعلى هذه المئذنة من باب ينفتح في الصحن، وتتميز بوثاقة البنيان ممثلة في سمك الجدران، كما تنفرد المئذنة بميزة وهي أن الزخارف تقتصر على واجهة واحدة فقط، وقوامها عناصر نباتية وهندسية لا نظير لها فيما سبقها من زخارف، وتعتبر مئذنة جامع القلعة النموذج الذي اشتق منه الموحدون مآذنهم، وتختلف عن مئذنة جامع القيروان وجامع صفاقص اللتان تتألفان من ثلاثة طوابق، بحيث تبدو لمن يشاهدها أكثر شبهاً لمئذنة جامع الكتبية بمراكش من مئذنة جامع القيراون وجامع صفاقص[5]، أما عن جامعها فقد اندثر وتأسست مكانه القصبة في العصر الموحدي[6].

ب.**المئذنة في العهد الزياني:**

قبل الحديث عن الطابع العام لمآذن بني زيان ونظامها تجدر الإشارة إلى أن عصر المرابطين لم يسجل إنشاء مآذن على الإطلاق فمساجد المرابطين في المغرب الأوسط المتمثلة في المسجد الجامع بتلمسان والمسجد الجامع بالجزائر العاصمة، وجامع ندرومة كلها متوجة بمآذن ترجع إلى الفترة الزيانية[7]، كما تبدو المآذن الزيانية وثيقة الصلة بمآذن الموحدين فهي تنتصب في الفضاء ككتلة واحدة جدرانها معتدلة لا تميل إلى الداخل كلما

1عبد الكريم عزوق، المرجع نفسه، ص: 35.
[2] محمد بن عميرة ولطيفة بن عميرة، المرجع السابق، ص: 54.
[3]عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص: 33.
[4]عبد الكريم عزوق، المرجع نفسه، ص: 33.
[5] عبد الكريم عزوق، المرجع نفسه، ص: 33.
[6]محمد بن عميرة ولطيفة بن عميرة، المرجع السابق، ص: 60.
[7]عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص: 50.

ارتفعت، وبداخلها درج يدور حول دعامة مركزية مربعة صماء، وتتكون المآذن الزيانية عادة من طابقين، الطابق الأول وهو الأساسي في المئذنة ينتهي بشرفات، يليه طابق أقل ارتفاعاً وضخامة تعلوه قبيبة يبرز من أعلاها سفود بارز، ومعظم أوجه المآذن الزيانية مطرزة بشبكة من المعينات، فقد ورثوا هذا التقليد عن الموحدين[1].

أما عن المآذن في الدولة الزيانية فقد بلغت مبلغ الجمال والروعة في تلمسان خلال هذا العهد، فهي مئذنة مربعة الشكل تتكون غالباً من طابقين، فالطابق الأول هو من الأساس في المئذنة ينتهي بشرفات، أما الطابق الثاني فهو اقل ارتفاعاً وتعلو فوقه القبة، كما تتميز المآذن في تلمسان خلال العهد الزياني بأنها مربعة الشكل، وأنها تقع في زاوية جدار مؤخر المسجد، كما تتميز بارتفاعها المتوسط الذي يتناسب مع مساحة المسجد، ولقد كان التأثر واضحاً بمساجد الموحدين من حيث الزخرفة[2].

2.4.1.مئذنة الجامع الكبير بتلمسان:

بنيت مئذنة الجامع الكبير سنة 679هـ/1280م، وهي نفس السنة التي أقيمت فيها مئذنة جامع أغادير بتلمسان، ولذلك فهي وثيقة الصلة بها من حيث طابعها العام وأسلوب بنائها[3].

كما يشغل جوف المئذنة دعامة مركزية صماء مربعة طول كل جانب منها (2.70م) في حين يصل كل جانب من جوانب قاعدة المئذنة (6.20م)، ويدور في الفراغ ما بين الجدار الخارجي للمئذنة والدعامة المركزية درج عدد درجاته مائة وثلاثون درجة تصل إليه عن طريق باب من الخشب على يساره غرفة بابها من الخشب ربما كانت مخصصة لحفظ مستلزمات المسجد وقد تكون مناماً للمؤذن[4].

ويمكن القول أن مقاسات المسجد الأعظم بدون مئذنة يغلب عليه طابع التربيع، وتبلغ مقاسات أطواله ستون على خمسين متراً، ولو حذفنا الجزء المتصل بالمئذنة وما يوجد أمامها المضاف من طرف الزيانين فيما بعد فستكون الأطوال خمسون على خمسين مترا فهو بذلك مربع الشكل[5]، أما تشييد المئذنة فكما ذكرنا سابقاً كان على نظام مآذن جامع الجزائر الكبير

1عبد الكريم عزوق، المرجع نفسه ، ص: 51.
2عبد الكريم عزوق، المرجع نفسه، ص-ص: 52-53.

3عبد الكريم عزوق، المرجع السابق ، ص: 55.
4عبد الكريم عزوق، المرجع نفسه ، ص: 55.
5محمد الطيب عقاب، المرجع السابق، ص: 56.

الذي شيده المرابطون، وجامع أغادير، وجامع ندرومة، نظراً إلى افتقاره إلى مئذنة منذ نشأته الأولى[1].

ولهذا المسجد في الواجهة الجنوبية الشرقية مئذنة معتدلة القامة متناهية في الطرف والرشاقة تحتوى أوجهها الأربعة على زخرفة ذات أشكال بديعة[2].

أ.مئذنة جامع أغادير:

وبالحديث عن مئذنة مسجد أغادير فهي عبارة عن برج مربع الشكل جزءها السفلي مبني من الحجارة الكبيرة، يرجح أنها جلبت من المباني المندثرة للمدينة الرومانية القديمة بوماربة، وكانت زخارفه تشبه الزخارف التي تزين مآذن جامع القصبة بتونس، وجامع إشبيلية، وجامع مراكش التي كانت بمثابة النموذج الذي استوحى منه الزيانيون زخارفهم[3].

ب.مئذنة مسجد المشور:

أما عن مئذنة مسجد المشور فهي المعلم الزياني الوحيد المتبقي من عمارة المسجد، وهي بشكل مربع تتألف من طابقين وتزين أوجهها الأربعة بزخارف إلا أن الواجهة الجنوبية هي التي تكتمل فيها الزخارف، كما تزينها أشكال هندسية قوامها عقود تزينها قطع من الفسيفساء، كما تكسوها قطع من الزليج[4]، هذا في الطابق الأول، أما الطابق الثاني: فيشتمل على جواسق تعلو القبة، وعلى يمين المئذنة باب يدخل منه إلى المسجد، ويتخلله سلم يتكون من ستة درجات كما تتوج المئذنة بشرفات مسننة، ويقدر الإرتفاع الكلي للمئذنة بخمسة وعشرين متراً[5].

ج . مئذنة جامع ندرومة:

تلتصق المئذنة بالجدار الشرقي لجامع ندرومة، وهي مربعة الشكل طول ضلعها (4.90م) وتتألف مئذنة الجامع من طابقين، الطابق الأول مربع ارتفاعه (20.50م) بينما يصل ارتفاع الطابق الثاني (الجوسق) إلى (4.20م) وارتفاع المئذنة الكلي يبلغ (24.70م) ووجهات الطابق الأول كلها مكسوة بشبكات من المعينات تغطي معظم المسطحات، وتتمثل في حشوتين متراكبتين، السفلى تنحصر داخل مسطح مستطيل الشكل وقوامها عقدان مفصصان ينبتان من عمود مركزي في الوسط، ويتوسط كل منهما جامة بيضاوية الشكل، أما الحشوة العليا فتغطي معظم سطح الطابق الأول، وقوام زخارفها عقود ثلاثة مقرنصة

[1]عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 25.
[2]محمد بم رمضان شاوش، المرجع السابق، ص: 187.
[3]عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 11.
4وليام وجورج مارسيه، المرجع السابق، ص: 442
5عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص: 65.

رؤوسها مدببة تقوم على عمودين مركزيين، وتمتد من رؤوسها نحور تتقاطع فيما بينها مع امتداد مؤلفة شبكة من المعينات البارزة، ومن الجدير بالذكر أن شبكة المعينات والعقود مقامة من القراميد[1].

د. مئذنة جامع سيدي أبي الحسن:

في جامع سيدي أبي الحسن يبرز في جدار القبلة باب يؤدي مباشرة إلى سلم المئذنة الملتصقة بالجدار الخارجي للمسجد في الزاوية الجنوبية الشرقية منه، كما لا تختلف وجهات المئذنة المقابلة للشارع كثيراً في نظامها وفي الشكل العام عن مئذنة المسجد الجامع بتلمسان، إلا في بعض التفاصيل الزخرفية للجوسق العلوي، كما أن شكل المئذنة مربع وهي تتألف من طابيقين الأول منهما تزدان واجهته بنفس الزخارف التي تزدان بها واجهات المآذن السابقة، وتنقسم زخارف الطابق الأول في كل أوجهه الأربعة إلى ثلاث قطاعات متراكبة، أما الطابق الثاني للمئذنة ويمثله الجوسق العلوي فتتوسطه جوفة مستطيلة الشكل يعلوها عقد مفصص محمول على الجانبين، ويطوق العقد تربيعة مطولة تكسوها زخارف رائعة من الفسيفساء الخزفية ذات قطع هندسية مربعة ومستطيلة، وينطبق هذا الوصف على الوجهات الأربعة للمئذنة، ويعلو ذلك الطابق قبيبة ينبثق من مركزها سفود بارز ركبت فيه تفاحتان وهلال مقوس يتجه طرفاه إلى السماء[2].

5.1.القيمة الدينية للمآذن:

تميزت مآذن بلاد المغرب الأوسط ـ سواء في الفترة الحمادية أو الزيانية ـ بشكلها المشترك في مجمله فقد اتخذت شكل التربيع، وزينت الزخارف واجهاتها الأربعة، كما كان للفسيفساء على جدرانها حضور دائم، وكان الدور البارز الذي لعبته هذه المآذن إضافة إلى دور النداء للأذان، التطور الهام في الجانب المعماري، فبعيداً عن جانبها وجوهرها الديني فهي تعتبر قطع فنية في منتهى الجمال، وكان سبب هذا الاهتمام هو ذلك التعظيم الذي حظيت به العمارة الدينية من طرف الحكام في تلك الفترة الوسيطة؛ فمثلا في الدولة الحمادية بقيت من آثار المساجد الثلاثة مآذنها فقط، وهذا دليل على عظم التشييد، أما في الدولة الزيانية فترتبط المآذن في مجمل شكلها بمآذن المسجد الجامع بتلمسان، وتظهر فيها زخارف القطع الفسيفسائية التي تتناوب فيها الألوان، وأصبحت قاسما مشتركاً بين المآذن الزيانية بحيث يمكننا اعتبارها إحدى الخصائص المميزة للمآذن الزيانية. ويمكن إسقاط هذا القول على الفترة الحالية فقد شيدت الجزائر الجامع الأعظم بالعاصمة، وأتبعته بتلك المئذنة التي تعد قطعة فنية في منتهى الجمال وازدان في ذلك طولها، وكان تشييدها والمسجد في منطقة لها

1عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص: 57

2عبد الكريم عزوق، المرجع نفسه، ص- ص: 59 - 60.

بعدها التاريخي، فهذا الاهتمام دليل على تشبث المغرب الأوسط بتراث فكره العمراني، حتى ولو كان التشييد وطرق البناء مختلفة عن ما كانت عليه لأن الضرورة تقتضي ذلك.

2.المدارس في بلاد المغرب الأوسط.

1.2.نشأة المدارس في الإسلام:

حفلت البلاد الإسلامية منذ أواسط القرن الرابع الهجرى بعدد كبير من المعاهد والمدارس الكبرى القائمة بذاتها، المستقلة عن الجوامع،وأول من بنى المدارس وجعلها جزء من اهتمام الدولة، هو أبو علي الحسن بن إسحاق الملقب بنظام الملك[1]، حيث بنى المدرسة النظامية سنة 459هـ 1066م[2]، فقد ذكر الباحث ناجي معروف نقلا عن ابن جبير أن مدارس بغداد عند زيارته لها في سنة 580هـ/ 1184م فقال: المدارس بها نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية وما منها مدرسة إلا وهي يقصر القصر البديع... ولهذه المدرسة أوقاف عظيمة، وعقارات محبسة، تتصير إلى الفقهاء والمدرسين فيها، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم[3]. لذا فإن هذه الدور من العمارة المتمثلة في المدرسة انطبعت بطابع الجدة في تشييدها وكيفية تسيير شؤونها.

وكانت مدراس بغداد يضرب بها المثل في ارتفاع العماد وإتقان المهاد، وطيب الماء، ولطف الهواء، ورفاهية الطلاب، وسعة الطعام والشراب، وغير ذلك من الأسباب[4]، ويظهر أن شمس الدين بن خلكان ت 671هـ/1272م، ومن بعده شمس الدين الذهبي ت 847هـ/1443م، كانا يريان أن الوزير السلجوقي نظام الملك أول من أحدث المدارس في الإسلام، أما عن أول مدرسة أحدثت بديار مصر: المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق بمصر، ثم المدرسة القمحية المجاورة للجامع أيضاً، ثم اقتدي بالسلطان صلاح الدين في بناء المدراس بالقاهرة، ومصر وغيرهما من أعمال مصر، وبالبلاد الشامية[5].

أما في بلاد المغرب الإسلامي فقد تأخر ظهور المدارس بحوالي قرنين من الزمن، حيث ظهرت في العالم الإسلامي أواخر القرن الرابع الهجري، وظهرت المدارس في المشرق وانتشرت في بلاد الشام ومصر، ثم انتقلت إلى بلاد المغرب، حيث ظهرت في المغرب الأقصى، وأنشأ العابد مدرسة الحلقائيين بمدينة فاس، حيث تعد هي المدرسة الأولى

---

[1]الحسن بن علي بن إسحاق نظام الملك: الطوسي أبو علي الملقب بقوام الدين، وزير حازم عالي الهمة. أصله من نواحي طوس. تأدب بآداب العرب، وسمع الحديث الكثير، واشتغل بالأعمال السلطانية، فاتصل بالسلطان ألب أرسلان، فاستوزره، فأحسن التدبير وبقي في خدمته عشر سنين. ومات ألب أرسلان فخلفه ولده ملك شاه، فصار الأمر كله لنظام الملك، وليس للسلطان إلا التخت والصيد. وأقام على هذا عشرين سنة، وكان من حسنات الدهر.قال ابن عقيلكانت أيامه دولة أهل العلم. اغتاله ديلمي على مقربة من نهاوند، ودفن في أصبهان سنة 485هـ .ينظر: الزركلي، المرجع السابق، ج:2، ص: 202.

[2]عبد الجليل قريان، المرجع السابق، ص: 111.

[3]ناجي معروف: المرجع السابق، ص: 05.

[4]ناجي معروف، المرجع نفسه ، ص: 06.

[5]ناجي معروف، المرجع نفسه، ص: 06.

في المغرب الأقصى[1]، وقد اعتنى سلاطين الموحدين ببناء المدارس قبل الحفصيين والزيانيين والمرينيين، لذا يقترن اسم عبد المؤمن وحفيده يعقوب المنصور بكثير من المدارس المنشأة في هذا العصر، فقد أسس عبد المؤمن مدرسة بمراكش، واستدعى رشيد الثاني ليستعين به على تنظيمها، ومن بين هذه المدارس المدرسة العامة لتخريج الموظفين، والمدرسة الملكية لتعليم أمراء الموحدين، وكذلك أسس مدرسة التعليم في فن الملاحة، ومنه انتشرت المدارس بالحواضر الكبرى لدولة الموحدين، ومنها المغرب الأوسط[2].

2.2.عناية السلطة الزيانية بالمدارس:

توارث الحكام الزيانيون الاهتمام بالتعليم ومؤسساته، وجاء ظهور المدرسة بتلمسان ضمن جملة اهتمامات السلطة السابقة والمتعاقبة على الحكم بشكل عام في الميدان الثقافي قبل القرن الثامن الهجري، وكانت المساجد الجامعة أحد المرتكزات التي يقوم عليها التعليم العالي، فأولتها السلطة الزيانية منذ اعتلائها الحكم جانبا من الاهتمام عن طريق تجديد العمران الديني والتعليمي الموروث[3]، وتوجد بتلمسان خمس مدارس حسنة، جيدة البناء ومزينة بالفسيفساء وغيرها من الأعمال الفنية، شيد بعضها ملوك تلمسان وبعضها ملوك فاس[4]، فأضاف يغمراسن بن زيان سنة (633- 681/ 1236- 1283) البصمة الزيانية على الجامعين الأعظمين أجادير وتاجرارت عندما أضاف لهما الصومعتين[5]، كما قام وريث عرشه السلطان أبو سعيد عثمان (703-681هـ/1238-1304) بإنشاء مسجد أبي الحسن سنة (696هـ/1296)[6].

كان التعليم مقتصراً على المساجد فقد انتقى يغمراسن بن زيان أكبر فقهاء المغرب ومنحهم المناصب الهامة للتدريس بالحاضرة فكان هدف السلطان واضحا من الفقيه أبي إسحاق التنسي[7]، عندما نصبه للتدريس بالجامع الأعظم بعد محاولات يغمراسن العديدة والمتكررة استقدامه لتلمسان واستقراره بها للتعليم، كما تولى نفس المنصب التعليمي أخوه الفقيه أبو الحسن التنسي بعد وفاة إسحاق، وأضاف له السلطان أبو سعيد عثمان أيضاً التدريس بمسجد أبي الحسن الذي أنشأه[8].

---

[1] عبد الجليل قريان، المرجع السابق، ص: 111.

[2] ناجي معروف، المرجع السابق، ص: 06.

[3] عمارة فاطمة الزهراء:المدراس التعليمية بتلمسان خلال االقرنين (9-8هـ/14-15م) جامعة وهران السانيا، 1430-1431هـ/2009-2010م، ص-ص: 16- 17.

[4] الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص: 19.

[5] يحي بن خلدون: بغية الرواد، المصدر السابق ج1، ص: 207.

[6] عمارة فاطمة الزهراء، المرجع السابق ، ص- ص: 16- 17.

[7] أبو إسحاق التنسي: ابن يخلف الفقيه المالكي، قدم إلى تلمسان في عهد السلطان يغمراسن بن زيان،وكان يجتمع إليه فقهاء البلد ليأخذوا عنه العلم، فقد كان أبو إسحاق هذا واحد عصره علما ودينا، وكانت تأتيه الفتاوى حتى من إفريقية وتلمسان وهو بتنس. ينظر: التنبكتي: نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص: 61.

[8] عمارة فاطمة الزهراء، المرجع السابق ، ص: 18.

أما عن نفقات البناء والتشييد فقد اهتم سلاطين الدولة الزيانية بالمدارس التي كانت تحظى باهتمام كبير بعد المساجد، ويدل حسن بنائها وجمالها المعماري على مدى النفقات الكبيرة التي رصدت لها حتى اكتمل شكلها وصورتها المعمارية، فوصفها الحسن الوزان في قوله: «وتوجد بتلمسان مساجد عديدة جميلة ولها خطباء، وخمس مدارس حسنة جيدة البناء، مزدانة بالفسيفساء وغيرها من الأعمال الفنية، شيد بعضها ملوك تلمسان وبعضها ملوك فاس..»[1]، هذا التشييد كان من اهتمام الحكام ووجب لذلك تخصيص نفقات هامة لمثل هذا الجانب المعماري، لذلك كانت نفقات الإصلاح والترميم مقدمة على مرتبات الموظفين والطلبة نظرا لأنه لا يستدام الانتفاع بالمدرسة إلا بذلك[2]، فقد كانت السلطة في كثير من الأحيان تحبس نصيباً من الأراضي والرباع على المدرسين بالمدرسة[3].

3.2.مدارس الدولة الزيانية:

1.3.2.مدرسة أولاد الإمام:

عمدت الدولة الزيانية إلى تبني أطر التعليم بصورة أكثر جدية، فعملت على الاهتمام بعمرانها الثقافي العلمي، وتحديد هدف التعليم عن طريق فكرة تشييد المدارس الستة، إلى جانب تعيين المدّرسيين وتوفير المصدر المالي الذي كان تحت رعاية نظام الأوقاف[4]، كما لعب الدافعان السياسي والديني الدور البارز في إنشاء أبي حمو موسى الأول(707-718هـ-1307-1318م) لأول مدرسة بالحاضرة الزيانية هي مدرسة أولاد الإمام، وكانت تدعي بالمدرسة القديمة والتي تأسست سنة 710هـ/ 310م، كما عين للتدريس فيها ابني الإمام أبي زيد عبد الرحمان ت 743هـ/1342م، وأبي موسى عيسى ت 749هـ/1349م فصارت تعرف باسميهما (مدرسة أولاد الإمام)، وكان موقعها بالقرب من باب كشوط غرب مدينة تلمسان[5]، وكما ذكره التنسي فأبو حمو موسى الأول «كان محبا للعلم وأهله معتنياً به قائماً لحقه، ابتنى مدرسة لابني الإمام تكريماً لهما واحتفاء بهما وشكرا لله على نعمته لقتله عدوه أبي يعقوب المريني وتخليص تلمسان منه... »[6]، فكان ذلك سببا لهذا الحدث الثقافي المتمثل في إنشائه للمدرسة الذي لم يعهد مثلها المجتمع الزياني، فظهر التعليم بشكل جديد متماشياً مع ظهور السلطة الزيانية بنوع من القوة، خاصة بعد فترة طويلة من الضعف أمام الاحتلال والحصار المريني لمدة ثمان سنوات وثلاثة أشهر.[7]

---

[1]الحسن الوزان،المصدر السابق، ج2، ص: 19.

[2]أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب، تح: محمد حجي، وزارة الشؤون الإسلامية المغربية، المغرب، ج7، ص: 366.

[3]الحسن الوزان،المصدر السابق، ج2، ص: 43.

[4]ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 118.

[5]يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص: 130.

[6]ابن مريم أبو عبد الله محمد بن أحمد: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908م، ص: 126

[7]عمارة فاطمة الزهراء، المرجع السابق، ص 34.

لقد أكد أبو حمو موسى الثاني فكرة تقليد المشارقة للتعليم باتخاذ المدارس، فلا يمكن أن يستبعد أن فكرة إنشاء المدارس كان من قبيل المنافسة والتقليد للمدارس الحفصية والمرينية، إذ قام أبو تاشفين بتقليد أبي عبد الله المستنصر الحفصي بإنشاء رياض أبي الفهر[1]، كما قلد المرينيون بجلب أبي علي الفحام من تلمسان لصنع خزانة المنجانة وهي الساعة المتطورة، تقليداً لمنجانة أبو حمو موسى الثاني[2]، فعمد هذا الأخير عندما استقل بالأمر إلى بناء المدرسة بناحية المطهر من تلمسان لطلبة العلم، وابتنى لهما(ابني الامام) دارين على جانبهما وجعل لهما التدريس في إيوانين معدّين لذلك واختصهما بالفتيا والشورى.[3]

2.3.2.المدرسة التاشفينية:

كما كان للسلطان أبي تاشفين (737-718هـ/1318-1337م) اهتمام بالتعليم من خلال إنشائه للمدرسة الجديدة التاشفينية بالتوازي مع حضوره البارز في مجالسه العلمية ببلاطه، وتعتبر المدرسة التاشفينية ثاني مدرسة أنشئت بتلمسان سنة 737هـ/1337م، وكان بناؤها «بإزاء الجامع الأعظم»[4]، وقد كانت هذه المدرسة مبنية على بعد خمسة وعشرين متراً من الجهة الجنوبية للجامع الكبير، كما كانت تضم عدة مميزات فنية ومعمارية ما يجعلها مؤسسة فريدة من نوعها في المغرب الإسلامي ككل[5]، ويمكن القول أن سبب اختيار مكان تشييدها لم يكن صدفة بل كان لرغبة مؤسسها في الاستفادة من المجال الذي بنيت فيه حتى تستطيع المدرسة أداء رسالتها التعليمية بوجودها قرب أهم المباني[6]، أما عن نظم تسيرها فقد حدد السلطان أبو تاشفين العلاقة بين السلطة وعلماء المدرسة بالمجلس، فكان تركيزه نحو توجيه علماء المدارس وطلبتها إلى حضور مجالسه العلمية التي كان يعقدها بقصره[7]، وقد تم تشييد المدرسة على محوريين رئيسيين أحدهما ناحية الشمال الشرقي والآخر ناحية الجنوب الغربي، أما الثاني فهو شمالي غربي والآخر جنوبي شرقي يخترق محراب المصلى ويحتل مساحة تقارب المائة متر مربعة[8]، وكذلك يعتبر بيت الصلاة تخطيط فريد من نوعه بحيث

---

[1]رياض أبي الفهر الذي أنشأها السلطان أبو عبد الله المستنصر الحفصي 648هـ. ينظر: أبو العباس ابن قنفذ: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص: 127.

[2]عمارة فاطمة الزهراء، المرجع السابق ، ص: 25.

[3]عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7،ص: 134.

4أبو عبد الله محمد التنسي، المصدر السابق، ص: 141.

5عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 73

6صالح بن قربة: تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007، ص: 145.

[7]عمارة فاطمة الزهراء، المرجع السابق، ص: 19.

[8]Koumas ahmed et Nafa Cherazade: L’Algerie et son patrimoie , editions du patrimoine, paris 2003, p 92.

يتكون من أقسام ثلاثة تتصل ببعضها البعض بواسطة عقود كبيرة، تتشابه بالعمارة الشرقية وخصوصاَ المدارس الشامية، ومن بينها المدرسة السلطانية 620هـ/1224م[1].

أما من بين الذين ذاع صيتهم وكانوا طلابا بالمدرسة التاشفينية هو المقري صاحب "نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب" فقد كان طالبا عند ابني الإمام بمدرستهما، وأبو عنان كان يتولى التدريس وإدارة المدرسة التاشفينية[2].

3.3.2.مدرسة العباد:

هي ثالث مدرسة في تلمسان، وأول مدرسة مرينية أمر ببنائها أبو الحسن المريني سنة 748هـ/ 1347م، واشتهرت بهذا الاسم لوجودها بقرية العباد الشهيرة، كانت تقع خارج المدينة، وبها قبور وأولياء وعلماء تلمسان مثل: سيدي بومدين، كانت تمثل طرازا بديعا للعمران الإسلامي بتلمسان، وقد عرفت أيضاَ باسم مدرسة سيدي بومدين[3].

4.3.2.المدرسة اليعقوبية:

بنيت المدرسة اليعقوبية في حدود سنة (765-763هـ/ 1361- 1363م) على يد السلطان أبي حمو موسى الثاني(791-760هـ/1359-1389م)[4]،ومن البديهي أن تدفع شخصية سياسية وعليمة كشخصية هذا السلطان إلى إنشاء المدرسة اليعقوبية، والتي تعد الثالثة في تاريخ البيت الزياني[5]، وتقع المدرسة بالقرب من المقبرة الزيانية التي تضم ضريح أبي يعقوب والد السلطان أبي حمو موسى الزياني[6]،ولقد كان يرى أبو حمو قبل إنشائه لهذه المدرسة بعدم خلو مجالس السلطان من الفقهاء والعلماء، كما كان يركز على أفضلية إنشاء المدارس لشد معالم العلم، فكرس أبو حمو سلطته لرعاية التعليم من خلال ما أنجزه للمدرسة التي أنشأها، فجعل يوم افتتاحها يوما عظيماَ احتفل به وعين فيه أبا عبد الله الشريف مدرساً بها، كما حضر يوم ختم تفسير القرآن وجدد الاحتفال بالمدرسة مؤكدا حضور السلطة واحتوائها للتعليم[7]، فلقد كان ولوعاَ بتشييد المباني من مساجد ومدارس، حيث أسس هذه المدرسة مباشرة بعد دفن والده، وتم العمل بها منذ 765هـ/1354م[8]، يصفها ابن مريم « فأقيمت مدرسة مليحة البناء واسعة الفناء بنيت بضروب من الصناعات ووضعت في أبدع

1عبد العزيز لعرج: النظام المعماري لمدارس المغرب، مجلة آثار، مجلد 07، العدد01، 2009م، ص: 113
[2]ابن الخطيب، المصدر السابق، ج2، ص: 135.
[3]عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 166.
[4]صالح بن قربة، المرجع السابق، ص: 150.
[5]عمارة فاطمة الزهراء، المرجع السابق، ص: 36.
[6]صالح بن قربة، المرجع السابق ، ص: 150.
[7]عمارة فاطمة الزهراء، المرجع السابق، ص: 36.
[8]يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ص: 136.

الموضوعات، سمكها بالأصبغة مرقوم، وبساط أرضها بالزليج مرسوم غرس بإزائها بساتين، وصنع فيها صهريجا مستطيلا .. فيا لها من بنية ما أبهجها»[1]، بهذا الوصف يمكن التأكد من عظمة التشييد ورونق الفن المعماري الذي طبع المدرسة اليعقوبية، والتي أخذت من النهج المعماري للمدارس التي شيدت قبلها مثل مدرسة أولاد الإمام والمدرسة التاشفنية. أما عن العلماء الذين درسوا الفقه فيها فنجد أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد الونشريسي[2] الذي تخرج عليه أمثال الفقيه ابن عباد ابن مليح اللمطي، وغيره[3].

4.2.الدور الحضاري للمدراس التعليمية:

لقد اهتم الحكام بهذا النوع من العمارة العلمية الثقافية وخصصوا لها نفقات وحبست لها الأراضي وغيرها من الأحباس قصد استمرارية نشاطها التعليمي، وكان بادئ أمرها في بلاد المشرق الإسلامي خلال العهد السلجوقي، لكن ظهورها كان متأخراً نوعاً ما في بلاد المغرب الإسلامي عامة، فلم تعرف الدولة الحمادية هذا النوع من المدراس بالمفهوم الذي عرفته الدولة الزيانية من حيث التشييد، ومن بين آثار تلك المدراس ما ارتبط بذلك الشغف الذي كان عليه الحكام والسلاطين وتلك الرغبة في بناء الصروح العلمية، وهذا دليل على الاهتمام العلمي والديني لدى الحكام، والناس على دين ملوكها، لذلك فإن ذلك الاهتمام سيكون من لدن العامة بهذه المدارس، هذا من جهة أما الدور الوظيفي لهذه المدارس فقد اختص في عملية التعليم وما تحمله هذه الكلمة من دلالات عظيمة، فالتعليم هو الأساس الذي تبنى عليه قاعدة التحضر واستمرارية التطور فلذلك كان فعالا ضمن تلك الاستمرارية.

المبحث الثاني: الأربطة والزوايا والأضرحة في المغرب الأوسط:

1.الأربطة:

الرباط اسم مشتق من فعل ثلاثي مجرد، فيقال: ربط الشيء وشده. ويشمل معنى الإحاطة به وكذلك الإقامة المستمرة، وورد في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بصيغ أخرى بمعنى ربط اللقب وشده (ثلاث صيغ مجازية قرآنية) وأيضاً بمعنى المواظبة على الشيء،

[1]ابن مريم التلمساني، المصدر السابق، ص: 156.

[2]أبو العباس أحمد الونشريسي: أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي التلمساني من كبار فقهاء المذهب المالكي في المغرب كله نشأ بتلمسان ودرس على أكابر علمائها أمثال ابن مرزوق الكفيف وقاسم العقباني وغيرهم، حجة المغاربة على أهل الأقاليم، وفخرهم الذي لا يجحده جاهل ولا عالم، ألف المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب في سبعة أسفار فاز به الأوائل والأواخر في اثنى عشر جزءا قال التنبكتي عنه: جمع فأوعى وحصل فوعى. ينظر: أحمد بن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق، محمد الحمدي، دار التراث، مصر،1970، ج1، ص 91-92.

[3]صالح بن قربة، المرجع السابق، ص: 15.

ويبدو أنه منذ العهد الأموي والعباسي، بدأت الكلمة تعني مكان محصناً وكانت هذه المنشات توجد خاصة على الحدود والسواحل والطرق الداخلية غير الآمنة[1].

الرباط والأربطة والرباطات من الكلمات التي لها مدلول واحد حسب ما تطرقنا له أنفاً، ومن دلالات عمق هذه الكلمة أو التسمية، أن هناك دولة عظيمة في منشأها قوية في مجالها، متمسكة بتعاليم دينها الإسلامي، والتي استطاعت أن تحقق ما لم تستطع أن تحققه دول المغرب متجمعة آنذاك، فقد قضت على فتن المغرب الأقصى ووحدت الأندلس وقوضت من تقدم عمليات حروب الاسترداد، التي كانت في الأندلس ألا وهي دولة المرابطين، في موضوعنا لست بصدد الحديث عن مآثر الدولة ولا عن أعمالها لكن ارتأيت ذكرها نسبة إلى التسمية التي نعتت بها والتي أخذت من الرباط.

أما عن سبب إدراج الرباط في الجانب الديني ونحن نعلم أن الأربطة لها ازدواجية في الوظيفة، بالإضافة إلى وظيفتها العسكرية القائمة على ترصد الأعداء وحماية حدود وأقاليم الدولة الإسلامية، إلا أن لها وظيفة دينية قائمة على تعلم أصول الدين والرباط على ذلك، والابتعاد عن حياة المدينة، فهو نوع من الزهد الذي كان يحب الكثير من المسلمين القيام به وتعليم وتهذيب النفس به.

الرباط كما ذكرنا لها دورها العسكري، فهي ثكنة عسكرية محصنة ذات حصن واسع تحيط به غرف، وقد يكون على طبق واحد أو على طبقتين تعلوه صومعة مستديرة للآذان وخصوصاً لمراقبة السواحل اتقاء الغارات البحرية المواجهة من طرف أساطيل الروم، وقد كان المرابطون يقيمون في الرباط يقضون يومهم أو سواد ليلهم في العمل أو العبادة، كما كان إزاء كل رباط للرجال رباط للنساء يتعبدن فيه، ويعن الرجال في الأشغال الفلاحية وغيرها، كما أن الرباط مدرسة من الدرجة الثانية يؤمها العلماء والطلبة من كل حدب وصوب[2].

ومن بين الأعمال التي كانوا يقومون بها في الأربطة: صنع الورق والحبر ونسخ المصاحف، وكتب الفقه والحديث، فالمؤلفون يحبسون تصانيفهم بخط أيديهم على الأربطة لتكون منها النسخة الأم التي تنسخ عليها نظائرها، ويرجع إلى نصها الصحيح عند الإشكال، فيتولى المرابطون نسخ الكتب وتوزيعها على طلاب العلم بالمجان[3].

عرف المغرب الإسلامي مع البدايات الأولى لعمليات الفتح وجود رباطات التي أدت الضرورة العسكرية لوجودها، ومن بينها رباط ماسه بالسوس، ورباط شاكر في ضفة وادي

1ناجي جلول: الرباطات البحرية بإفريقية في العصر الوسيط، تونس، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، 1999م، ص: 16.

[2]إبراهيم العبيدي التوزري، المرجع السابق، ص- ص: 157- 158.

[3]إبراهيم العبيدي التوزري، المرجع نفسه، ص: 158.

نفيس قرب مراكش[1]، كما يعتبر رباط المنستير الذي شيده العرب بإفريقية من أقدم الأربطة التي شيدها المسلمون، فقد بناه الأمير هرثمة بن أعين والي القيروان سنة 181هـ/ 798م، وهو من الأربطة التي مازالت قائمة لحد الساعة، وكذلك من بين الأربطة رباطا سوسة: وهما الرباط الأعلى (برج خلف الذي صار متحفاً وبه المنارة)، والرباط الأسفل (القصر)[2]، الذي كان يعلن عن الأخطار بإشعال النيران فوق أعلى مرتفع من الرباط، وبذلك يتم وصول الرسالة التحذيرية إلى بقية الرباطات الأخرى القريبة منه.

وكذلك من المعالم التي وقعت الإشارة إلي وجودها خلال بداية القرن 7هـ/14م رابطة مؤقتة تقع بالناحية الشرقية من مدينة بجاية خارج باب أميسيون، في حين كانت داخل تلك الباب في أعلى البريجة، ومصلى كان قربها، لكن موقعه غير معروف[3].

وقد كان في بعض الرباطات مكتبات تسمى بالمكتبات العامة، ومصدرها هو الأمراء والعامة الذين كانوا يحبسونها احتسابا[4]، فالرباط هو مدرسة ثانوية، والتعليم به هو شرح لأصول التعليم بالكتاب، ففيها يتم تعلم تفسير القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وكتب الفقه، وشعر المواعظ التي تسمى الرقائق، والتي تنقعد في مجالس خاصة[5].

لقد كانت بجاية مركز مرابطة فقد كان يوجد بها خارج السور حيّ يسمّى حومة رابطة المتمنّي، وحصن يسمّى الناظور، وهي من التسميات التي كانت تطلق على الأربطة.[6]

ومن الأربطة ومواقعها في العهد الزياني رباط العباد، وهو بمدفن الشيخ أبي مدين شعيب[7]، فبالرغم من كونه مدرسة فقط كان رباطاً، وهنا تتداخل مفاهيم المدرسة والرباط وحتى الزاوية.

2. الزوايا:

الزاويا ركنهُ لأنها جمعت بين قطرين منه وضمتْ ناحيتين، والزاوية هي المسجد غير الجامع فيه منبر، وهي مأوى للمتصوفين والفقراء، أما عند الحجارين والنجارين وغيرهم هي آلة ذات ظلعين مستقيمين يتصل طرفاها فيحدثا زاوية قائمة، والجمع زوايا[1].

---

[1]يوسف الكتاني: مدرسة أولاد الإمام بالمغرب، دار لسان العرب، بيروت، (د،ت)، ج1، ص: 479.
[2]إبراهيم العبيدي التوزري، المرجع السابق، ص: 160.
[3]محمد بن عميرة ولطيفة بن عميرة، المرجع السابق، ص: 64.
[4]إبراهيم العبيدي التوزري، المرجع السابق ، ص: 153.
[5]محمد لأمين بلغيث: الرباطات بالمغرب الإسلامي ودورها في عصر المرابطين والموحدين، دراسة تاريخية وحضارية، دار بن حزم، بيروت، ص: 156.
[6]ناجي جلول، المرجع السابق، ص: 63.
[7]ناجي جلول، المرجع نفسه ، ص: 10.

كما أن لفظ الزاوية كان يطلق على صومعة الراهب المسيحي (Zwvia)، ثم أصبحت تطلق على المسجد الصغير أو على المصلى، وهو المعنى المنتشر للزاوية عند المسلمين في الشرق الإسلامي، أما في المغرب الإسلامي فالكلمة لها معنى أكثر شمولية إذا تطلق على مجموعة من الأبنية ذات الطابع الديني تشبه الدير أو المدرسة[2]، وقد ذكر دوماس (Daumaos) تعريفاً لها بقوله: إن الزاوية هي على الجملة مدرسة دينية، ودار مجانية للضياف، وهي بهذين الوصفين تشبه كثيراً الدير في العصور الوسطى[3]، كذلك نجد في مؤلف "عنون الدراية" للغبريني لفظ حول مصطلح الزاوية عند تعريفه لأبي زكريا يحي الزواوي ت611هـ/ 1215م وذكره لزاويته[4]، ومن خلال هذا يتبين أن الزاوية كان لها حضور خلال القرن السادس للهجرة.

خلال الفترة الوسيطة أرتبط مصطلح الزاوية في المغرب الإسلامي بالرابطة أي الصومعة التي يعتزل فيها الولي ويعيش بين تلاميذه ومريديه، كما كانت الزاوية مكاناً يلجأ إليه الناس هروباً من الدنيا ومركزا للحياة الدينية والصوفية، ومدارس دينية ودور ضيافة مجانية، ويذهب الكثيرون إلى أن أصل الزواية هو الأربطة؛ فهي الثغور التي يتمركز بها المجاهدون لحراسة الحدود، كما ارتبطت بحركة التصوف لأن مؤسسوها من المتصوفة، كما انتشرت الزوايا بشكل واسع النطاق في بلاد المغرب الإسلامي خلال الفترة الممتدة ما بين القرن الخامس والثامن للهجرة، وعرفت بعدة مسميات منها: دار الكرامة عند الموحدين، ودار الضيوف عند المرينيين، والمعمرة في بلاد القبائل الجزائرية[5]، وانتشرت بخاصة في عهد الدولة الزيانية فقد اهتم رجال الطرق الصوفية ببناء عدة زوايا[6].

والزاوية عبارة عن بناء صغير ملحق في معظم الأحيان بالمسجد يقوم فيها بالتعبد والخلوة، وفي كثير من الأحيان يمكن أن تقوم الزاوية مقام الرباط[7]، فهي تتشابه في الوظيفة حسب موقعها، وهي كما أسبقت مؤسسة دينية تؤدى فيها الصلوات الخمس، وكذلك الدروس التي كانت تلقى على الطلبة أو المريدين، ولقد عرف المغرب الأوسط ظهوراً للزوايا على غرار بقية مناطق المغرب الإسلامي؛ فقد كانت بمثابة معاهد للتعليم وتنوير العامة وأربطة

---

[1]مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروآبادي الشيرازي: القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج2، 1398هـ/ 1978م، ص: 180.

2فتيحة شلوق: العمارة الدينية بمنطقة الزاب دراسة أثرية، مذكرة ماجيستير، إشراف: صالح بن قربة، جامعة بسكرة، 2007-2008م، ص 18.

[3]أحمد الشناوي وآخرون: دائرة المعارف الإسلامية مادة الزاوية، بيروت، ،مج8، (د،ت)، 333.

4الغبرني، المصدر السابق، ص: 127.

[5]فتيحة شلوق، المرجع السابق، ص: 19.

[6]عبد الجليل قربان: التعليم بتلمسان في العهد الزياني (962-633هـ/1235- 1555م)، جامعة النجاح الوطنية، (د،ت)، 2002م، 179.

[7]الطاهر بونابي، المرجع السابق، ص: 224.

جهادية ضد الأعداء، ومن بين الزوايا التي قامت بهذا الدور: زاوية أبي يعقوب، التي أنشأها السلطان أبو حمو موسى الثاني على ضريح والده[1].

وبناء الزاوية يختلف عادة عن بناء المسجد والمدرسة فهي كثيرة ما تجمع بين هندسة المسجد والمنزل، وإذا كان للزاوية مسجداً فإنه في الغالب بدون مئذنة، كما توجد قاعة للدرس، وغرف للطلبة، ومكان للطبخ وآخر لاستقبال الضيوف[2]، ومن زوايا بلاد المغرب الأوسط: زاوية عبد الرحمان الثعالبي، وزاوية عبد القادر الجيلاني بالجزائر، وزاوية سيدي الكتاني وسيدي عبد المؤمن بقسنطينة، وسيدي بومدين وسيدي الحلوي بتلمسان[3].

3.الدور الحضاري للرباط والزاوية:

لقد أوردنا سابقاً مفهوم كل من الزاوية والرباط، وأن ظهور الرباط أقدم من ظهور مصطلح الزاوية، خاصة أن الرباط جمع بين وظيفتين دينية وعسكرية، وأن الزاوية وظيفتها دينية وتعليمية، لذا كان ذلك التداخل في الجانب الديني الذي تهتم به الزاوية وكذلك الرباط، فالذين يقيمون في كل منهما الأكيد أن جانب العزلة والتعبد والتعلم هو المسيطر على ذهنياتهم، وعندما تكون الذهنيات منقادة إلى مثل هذه الأعمال، فيكون بذلك الإخلاص والوفاء والقيم الإنسانية لها وجود، لأن قوة بلوغ الغاية يكمن بالإيمان بالفكرة المطروحة، ولما كان الإيمان هو العامل الأساسي في تخطي الصعاب، أصبحت هذه العمائر الدينية المعزولة آهلة بمثل هؤلاء الأفراد من رجال ونساء.

ومن أدوراهما البارزة هو تربية النفس والتعليم، فلقد كان للزاوية دور لا يمكن إغفاله في تعليم المسلمين وأبنائهم، للقرآن الكريم ومبادئ الشريعة الإسلامية، وكذلك الرباط واهتمامه بالتعليم الإسلامي والثقافي من نسخ للمخطوطات وغيرها، ويمكن الإشارة إلى أن الزاوية لم تعرفها فترة الحكم الحمادي، لكن خلال الفترة الزيانية فقد برزت الزاوية وكانت في أوجها.

4.عمارة الأضرحة والمقابر:

إن الحديث عن المقابر بصفة عامة ومكان تواجدها يجعلنا ندقق في المصطلح بين القبر والضريح؛ خاصة المقابر هي من كلمة القبر وهو مدفن الإنسان، وجمعه قبور، أما المقبرة بفتح الباء وضمها: موضع القبور، قال سيبويه: المقبرة ليس على الفعل ولكنه اسم، وكان القبر مما أكرم به المسلم، وفي الصحاح: مما أكرم به بنو آدم، ولم يقل فقبره لأن القابر هو

[1]بلعربي خالد: ورقات زيانية، دراسات وأبحاث في تاريخ المغرب الوسط في العهد الزياني، دار هومة، الجزائر، 2014م، ص: 146.
[2]فتيحة شلوق،، المرجع السابق ، ص: 32.
[3]فتيحة شلوق، المرجع نفسه ، ص: 32.

الدافن بيده، والمُقْبِرُ هو الله لأنه صيره ذا قبر أو ينزله منزله[1]، أما عن كلمة الضريح عند ابن منظور هو الشقُ في وسط القبر، واللحد في الجانب، وقال الأزهري في ترجمة اللحد: والضريح والضريحةُ ما كان في وسطه، يعني القبر؛ وقيل: الضريح القبر كلّه؛ وقيل قبر بلا لحد[2]، أما في الاصطلاح فيطلق على البناء المشيد على القبر أي فوقه، ويتميز ببساطة الشكل والتصميم عادة، ولا يرقى إلى شكل العمارة الدينية كالمساجد، ولا العمارة المدنية كالقصور والمنازل[3]، من خلال ما سبق فإن للقبر والضريح نفس الوظيفة ألا هي مكان دفن الموتى، إلا أن الضريح يختلف عن القبر في شكله فهو مرتفع ويبنى فوقه، وكذلك يخصص الضريح لدفن من اصطلح عليهم برجال الدين والصلحاء، فلقد كانت الأضرحة تبنى على قبورا العلماء العاملين وأولياء الله الصالحين اعترافاَ بفضلهم وتخليداَ لذكرهم[4]،لذا كان تشيده بنوع من الاهتمام من لدن الحكام أو حتى العامة، وعرف من خلالها ما يسمى بزيارة الأضرحة والتبرك عليها، وما يميز الأضرحة بعضها عن الأخرى أنها عبارة عن مساجد مأتمية صغيرة سقوفها من أخشاب النخيل، بها أقواس بسيطة وركائز متينة، جدرانها سميكة بزوايا خالية من كل حدة، تشتمل على قباب مختلفة الأشكال منها المخروطي والمخروطي الحاد أو على شكل قوس منكسر أو نصف كروي، تنتهي جدرانها في كل زاوية بشرفات متدرجة أو ما أسماها جورج مارسي بالهرم المقطوع[5].

أما عن المقابر في بجاية وتلمسان فهي على النحو التالي: في بجاية تقع خارج الأبواب، مثل مقبرة بن سمية التي كانت خارج باب البنود، وكانت هناك مقبرة أخرى خارج باب أميسيون، وكان الناس يزورون قبر الأولياء الصالحين خارج باب المرسى[6]، أما عن تلمسان الزيانية فقد عرفت ظاهرة الأضرحة بتواجد معظمها إزاء المساجد أو المدارس التعليمية، فالجامع الكبير بجانبه ضريح سيدي أحمد الحسن الغماري[7] أحد أولياء المنطقة، أما الضريح الذي كان يشغل الركن الجنوبي الغربي من بيت الصلاة فهو للشيخ محمد بن مرزوق، ويعتقد أنه أضيف إلى المسجد في عهد الأمير يغمراسن بن زيان أيضاً[8].

---

[1]ابن منظور، المصدر السابق: ج5، ص- ص: 68- 69.

[2]ابن منظور، المصدر نفسه، ج2، ص: 526.

[3]بن حموش مصطفى: مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني من خلال مخطوط ديفولكس والوثائق العثمانية، دار الأمة، الجزائر، 2010م، ط02، ص: 22.

[4]محمد بن رمضان شاوش، المرجع السابق، ص: 176.

[5]فتيحة شلوق، المرجع السابق، ص: 33.

[6]محمد بن عميرة ولطيفة بن عميرة، المرجع السابق، ص: 65.

[7]سيدي أحمد الحسن الغماري: من أكابر أولياء الله تعالى المنقطعين لعبادته وتلاوة آياته في أناء الليل وأطراف النهار مع الصبر على ملازمة الخلوات وترك جميع الشهوات، وكان في رمضان في كل ليلة يتهجد بالجامع الكبير بتلمسان ويختم في كل ليلة، وأنه من أهل الكرامات توفي بتلمسان سنة 874هـ. ينظر:إبن مريم التلمساني، المصدر السابق، ص- ص: 31-38.

[8]عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 25.

كما تميزت فترة الاحتلال المريني لتلمسان بإنشاء المدارس إزاء أضرحة الصوفية والأسباب التي دفعت السلطة إلى اتخاذ المدرسة بالقرب من الضريح، علما بأن الظاهرة لم تعرفها الساحة الثقافية بتلمسان إلا خلال فترة الحكم المريني للمدينة[1]، لذلك كان إنشاء السلطان أبي الحسن المريني للمدرسة والمسجد بظاهر العباد بالقرب من ضريح الوالي الصوفي أبي مدين شعيب[2]، وكذلك أنشأ ابنه السلطان أبو فارس عنان عند ضريح الشيخ الولي الصوفي أبي عبد الله الحلوي الشوذي الإشبيلي[3] المسجد والمدرسة والزاوية، وفي عهد أبي حمو موسى الثاني فقد قام كذلك بإنشاء المدرسة والزاوية معاً وجعلهما بإزاء المقبرة الملكية، التي دفن فيها والده أبو يعقوب الذي توفي بمدينة الجزائر سنة 763هـ/1362م، ونقل جثمانه إلى تلمسان، ثم نقل إلى جواره الأخوين أبا سعيد وأبا ثابت اللذين كان مدفنهما بالعباد.[4]

ولقد كانت المقابر في الدولة الحمادية تمتد خارج الأبواب التالية: باب أمسيون وباب المرسى وباب البنود إلا مقبرة واحدة تسمى بمقبرة أبي علي رسمية[5]، وكان دفن أموات بجاية يقع عادة في أماكن قريبة من سورها، وفي غالب الأحيان في المقابر الممتدة خارجها.

لقد اعتنى الحكام بتشييد العمارة الدينية في كل من حاضرتي: بجاية الحمادية وتلمسان الزيانية، فبنيت بذلك المساجد وعرفت مآذنها، وشيدت المدارس والزوايا والأربطة، ولا نستثني بذلك باقي مدن المغرب الأوسط من هذه العمائر الدينية، إلا أن الاهتمام كان حول الحاضرتين السابقتي الذكر.

ولقد شيدت المساجد قصد العبادة لكن هذا التشييد في كل من الحاضرتين صاحبه نوع من الاهتمام من طرف الحكام، ثم إن الدور البارز الذي قام به المسجد هو تلك الوظيفة الأساسية المتمثلة في تهذيب أفراد المجتمع وتقوية الروابط الدينية والاجتماعية بينهم، كما كان للمسجد دوره السياسي والذي جسده الحكام من خلال عقد جلسات لدراسة وضع من الأوضاع، وكان أيضاً محكمة يتقاضى فيها المتقاضون لدى الأمير أو لدى القاضي، وهكذا كان المسجد معبداً ومدرسةً ومحكمة ومحل اجتماعات عمومية.

---

[1] عمارة فاطمة الزهراء، المرجع السابق، ص: 20.

[2] أبي مدين شعيب: أندلسي إشبيلي الشيخ القطب الصوفي، درس بالأندلس وطنجة ومراكش وفاس وبجاية، أخذ من جملة علماء التصوف، فدرس علوم الغزالي على يد ابن حرزهم، وأخذ عن أبي يعزو وعبد الله الدقاق وأبو الحسن الشاوي، وعبد الله الشاوي، وعبد الله الجيلاني، توفي بواد يسير قرب تلمسان، ودفن برباط العباد سنة 594هـ. ينظر: أبو العباس الغبريني: عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، الجزائر، دار البصائر، ط1، 2007، ص: 07.

[3] أبو عبد الله الشوذي المعروف بالحلوي: نزيل تلمسان كان من قضاه إشبيلية وفر إلى تلمسان في أوخر الدولة الموحدية، وهو من كبار الصوفية والعلماء بتلمسان، يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص،ص: 120، 121.

[4] عمارة فاطمة الزهراء، المرجع السابق، ص-ص: 21-23.

[5] محمد الطمار، المرجع السابق، ص: 162.

أما مآذن المساجد في كل من الحاضرتين فقد عرفت بشكلها المشترك في مجمله فهي اتخذت شكل التربيع، وزينت الزخاف واجهاتها الأربعة،، وكان الدور البارز الذي لعبته هذه المآذن هو ذلك التطور الهام في الجانب المعماري، فبعيداً عن جانبها وجوهرها الديني فهي تعتبر قطع فنية في منتهى الجمال، وكان سبب هذا الاهتمام هو تعظيم الحكام في تلك الفترة الوسيطة للعمارة الدينية؛ فمثلا في الدولة الحمادية بقيت من آثار المساجد الثلاث مآذنها فقط، وهذا دليل على عظم التشييد، أما في الدولة الزيانية فترتبط المآذن في مجمل شكلها بمآذن المسجد الجامع بتلمسان، وتظهر فيها زخارف تلك القطع الفسيفسائية.

أما عن المدرسة فلقد اهتم الحكام بهذا النوع من العمارة العلمية الثقافية وخصصوا لها نفقات، وكان بادئ أمرها في بلاد المشرق الإسلامي خلال العهد السلجوقي، لكن ظهورها كان متأخراً نوعاً ما في بلاد المغرب الإسلامي عامة، وتشييد مثل هذه العمائر دليل على الاهتمام العلمي والديني لدى الحكام،أما الدور الوظيفي لهذه المدراس فهو عملية التعليم، فالتعليم هو الأساس الذي تبنى عليه قاعدة التحضر واستمراريته.

أما عن مفهومي الزاوية والرباط فبينهما تداخل في العملية الوظيفية، فهما يشتركان في التعليم والتربية والدين، ولهما غاية هدفها تربية النفس والتعليم، ويمكن الإشارة إلى أن الزاوية لم تعرفها فترة الحكم الحمادي، لكن خلال الفترة الزيانية فقد برزت الزاوية وكانت في أوجها.

الفصل الثالث

مظاهر العمارة العسكرية في حواضر بلاد المغرب الأوسط مابين القرن 5-9هـ/ 11-15م

المبحث الأول: البعد العسكري في اختطاط المدن وبنائها.
المبحث الثاني: التحصينات البرية.
المبحث الثالث: التحصينات البحرية.

تعد العمارة العسكرية من العمائر التي اهتم بتشييدها كل من الأباطرة والملوك والسلاطين والحكام في كل دول العالم، فكان التركيز بعناية فائقة على اختيار الأماكن التي تقام فيها، وهذا الاهتمام في التشييد راجع بالدرجة الأولى إلى إحلال المنعة والتحصين والحماية من أي خطر خارجي يهدد الدولة، خاصة أن حركة الحروب مستمرة خلال فترات التاريخ ككل، فلم يستطيع الإنسان أن يحلل ويحافظ على السلام فترة طويلة بدون حروب، فكثيرا ما تكون القوة هي السبيل الوحيد الذي تحتمي به الدولة وتبسط نفوذها على أقاليمها، وتحافظ على مكانتها سواء الإقليمية أو السياسية.

إن التحصينات الدفاعية التي شهدها العالم كثيرة ومتعددة، ولنا في نموذج صور الصين العظيم دليل على ما ذكرناه، ولسنا في هذا الصدد لنبين التحصينات الخارجية بقدر ما نبين مدى الأهمية البالغة التي تميزت بها هذه العمائر العسكرية، ثم إذا ما اتجهنا إلى العالم الإسلامي نجد أن المسلمين كانت لهم بصمة في هذا المجال، ولا يمكن أن نقول أنها متميزة بالقدر الذي عرفته العمارة الدينية خاصة أن هذه الأخيرة عرفت تطورا باهرا ومتميزا على مدار الدول الإسلامية المتعاقبة.

أما عن بلاد المغرب الأوسط فقد شهدت نفس الحركية في نماذج العمارة العسكرية التي شاهدتها بلاد المغرب الإسلامي، فقد عرفت الحصون والقلاع والأبراج والأسوار والموانئ العسكرية، وأولى الحكام والسلاطين عناية لهذه العمارة خاصة أنها تحميهم من التهديدات الخارجية والداخلية التي كثيرا ما عرفتها البلاد، فأي دولة كانت في حيزها وإقليمها الجغرافي تمنحها هذه التحصينات زيادة إلى قوة جيلها مزيدا من البروز ومزيدا من النفوذ على حساب الدول المجاورة، وما إن يضعف ما ذكرناها إلا وتصبح مهددة وتتزايد فرص سقوطها وتلاشيها.

كما ذكرنا أن المغرب الأوسط يحتفظ بكثير من مظاهر العمارة العسكرية إلى يومنا هذا، حيث نجد القلاع ممثلة في كل من قلعة المشور بتلمسان وقلعة أبي الطويل أو بني حماد بالمسيلة، وكثير من الموانئ كميناء هنين وميناء بجاية، والمرسى الكبير بوهران، بالإضافة إلى العديد من الأبراج والأسوار المتواجدة في عدة مدن من مدن المغرب الأوسط، ويضاف إلى ذلك العمارة الدينية المتمثلة في المساجد والمدارس والربط وغيرها، وقبل أن نتعرض لمزيد من التفصيل في هذه المنشآت التي تعد جزءا مهما في المدينة، وجب أن نشير في البداية إلى الأسباب التي دعت الناس إلى اتخاذ المدن وأهم الشروط التي ينبغي مراعاتها في ذلك.

المبحث الأول: البعد العسكري في اختطاط المدن وبنائها:

من بين الشروط المهمة التي يجب أن تتوفر في المدن الإسلامية في العصر الوسيط هي الاختيار وبعناية الموقع الجغرافي لبنائها، حيث لا بد من أن يكون محصنا تحصينا طبيعيا، كبنائها في أعلى هضبة وعرة، أو إحاطة البحر بها من أكثر من جهة، أو على ضفة نهر كبير، أو بجانب وادي سحيق، حيث يكون ذلك مانعا من اقتحامها، وهذا في حد ذاته يعتبر تحصينا دفاعيا يدفع عنها أي خطر يمكن أن يهدد أمنها وسلامتها، وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى أنه من ضروريات بقاء المدن استكمال وسائل الوقاية من غارات الأعداء، حيث يتطلب ذلك مراعاة أمور من بينها أن يدار على منازلها جميعا سياج من الأسوار وأن يكون بناؤها في ممتنع من الأمكنة، إما على هضبة متوعرة من الجبل وإما باستدارة بحر بها حتى لا يتوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة، فيصعب منالها من العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها[1] فتكون بذلك قد حققت شرطا مهما من شروط بقائها.

وبالإضافة إلى التحصين الطبيعي، فإنه لابد من تعزيزها بالتحصينات العسكرية المعروفة في ذلك العهد، كبناء الأسوار المنيعة وتزويدها بأبراج للمراقبة والاتصال، وترك فتحات للرماة وممشى فوقي للحراس وغيرها من الاحترازات الأمنية الضرورية، وهو ما سنلحظه في معظم مدن المغرب الإسلامي إن لم نقل كلها.

هي تلك التحصينات والتعزيزات العسكرية التي تم بناؤها من أجل تأمين المدن والدفاع عنها من الأخطار المحتملة، وهي منشآت مختلفة كالأبراج والقلاع والحصون المزودة بممرات مشي للحراس، ومنها أيضا الخنادق والأربطة المتخذة للحراسة والقصبات التي تحتوي عادة على قصر السلطان وحاشيته وأعوان إدارته وجميع دواوينه[2]، وكانت تحاط بسور شاهق الطول عريض السمك لحمايتها من المخاطر المحدقة، ومن الملاحظ أن هذه التحصينات كانت تتواجد عند أبواب المدينة الإسلامية في العصر الوسيط، بهدف التحكم في مداخلها ومراقبتها، كما أننا نجد تلك الاستحكامات العسكرية أيضا مقامة بجانب الموانئ التي تعد هي الأخرى حصنا دفاعيا ليحول دون أي هجمة محتملة من جهة البحر.

المبحث الثاني:التحصينات البرية:

1.الأسوار:

مفرده سور بضم السين المشددة وهو ما يحيط بالشيء، يقال سور المكان أي أحاطه بسور، وسور المرأة أي ألبسها سوارا، وهو من الفعل سور يسور تسويرا[3]. كان بناء الأسوار حول المدن في العصر الوسيط يؤدي دورين رئيسيين، الدور الأول هو

[1]ساطع الحصري: دراسات عن مقدمة ابن خلدون. مصر: دار المعارف 1953. ص: 526.

[2]عزوق عبد الكريم:التحصينات الدفاعية الإسلامية ببجاية، مقال منشور بمجلة دراسات وأبحاث، مج: 5، عدد: 12، ص: 76.

[3]ابن منظور، المصدر السابق، ج:3، ص: 386.

جمع سكانها داخلها باعتبارهم أسرة كبيرة يتعايش أفرادها مع بعض ويشكلون نسيجا بشريا متجانسا، أما الدور الثاني الذي تؤديه الأسوار فهو الحماية والدفاع عن ساكنتها من أي هجوم يتهددها خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن هذه الفترة التي هي موضوع دراستنا تميزت بكثرة الحصار والحروب،وقد لاحظ ابن خلدون أهمية الدور الذي تؤديه المدن المحصنة في بقاء الدولة واستمرارها، حيث يرى بأنها تؤدي مهمة عسكرية بالغة الأهمية، فهي تقوم مقام عدد غير قليل من العساكر[1]، وتمنع أهلها من مباغتة العدو لهم بالإضافة إلى تسهيل عملية دفاع حاميتها من فوقها حتى وإن كان عددهم قليل، كما أنها تساهم في صمود المدن مدة أطول مما لو كانت بدون أسوار، وذلك يؤدي إلى إرهاق العدو وإضعاف قدراته واستنزاف طاقاته القتالية، وبالتالي فك الحصار المضروب عليها وانسحابه.

لذلك صار بناء الأسوار حول المدن أمرا ضروريا في عمارة المدن الإسلامية في العصر الوسيط، وخاصة بعد الانتفاضات التي تلت الفتوحات الإسلامية بالمغرب الإسلامي مما دفع بعض الحكام ببناء الأسوار حول المدن التي كانت تحت حكمهم، وتدعيمها بأبراج لحراسة مداخل وأبواب المدينة، وتزويدها بممرات لتنقل الحرس فوقها، كما كانت تحاط بخنادق تملأ بالماء لاستخدامها أوات الحاجة.

وقد بين القزويني السبب الدافع إلى بناء الأسوار حول المدن بقوله: « ثم عند حصول الهيئة الاجتماعية لو اجتمعوا في صحراء لتأذوا بالحر والبرد والمطر والريح، ولو تستروا بالخيام والخرقهات لم يأمنوا مكر اللصوص والعدو، ولو اقتصروا على الحيطان والأبواب كما ترى في القرى التي لا سور لها لم يؤمنوا صولة ذي البأس، فألهمهم الله تعالى اتخاذ السور والخندق والفصيل، فحدثت المدن والأمصار والقرى والديار»[2]، ولذلك فإن اختيار الموقع الطبيعي في بناء المدن في العصر الوسيط غير كافي للدفاع عنها، إذ لا بد من بناء الأسوار حولها ليتحقق الهدف من حمايتها وإبعاد الأخطار عنها، ولأجل ذلك « تعتبر الأسوار والخنادق والأبواب من الخصائص العسكرية البارزة في مدينة العصر الوسيط »[3]، وكان لابد من تخصيص مداخل رئيسية للمدينة بأبواب ضخمة تغلق عند الإحساس بالخطر.

وقد أشارت العديد من المصادر التاريخية والمراجع التي تحدثت عن مدن المغرب الأوسط إلى أنها كانت محمية بأسوار غاية في الارتفاع والسمك، فعندما تولى

[1]ساطع الحصري: المرجع السابق، ص: 528.
[2]القزويني ، المصدر السابق. ص، ص: 7، 8.
[3]محمد عياش: الاستحكامات العسكرية المرينية من خلال مدينتي فاس الجديد والمنصورة بتلمسان، دراسة تاريخية أثرية. إشراف صالح بن قربة، جامعة الجزائر، معهد الآثار، 2005-2006م. ص، ص: 24، 25.

الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين[1] إمارة تلمسان شيد بها عددا من الأبنية، ولما اتسع عمرانها أحاط أسوارها بسياج متين، حتى صارت كما ذكر ابن خلدون من أعز معاقل المغرب وأحصن أمصاره، وأصبح الناس يفدون عليها من كل جهة للاحتماء بها فقد صارت ملاذهم بعد تدمير بنوغانية لمدينتي تيهرت وأرشكول[2]، وكأنها في حالة دائمة من المواجهة، وهي مستعدة على الدوام للدفاع،[3] وقد كان يحيط بتلمسان سوران أحدهما داخلي والآخر خارجي ولم تكن المسافة الفاصلة بينهما تقل عن ثلاثمائة متر.

ولما أراد المنصور الحمادي[4] بناء مدينة تكون بعيدة عن متناول غارات العرب الهلاليين دلوه على موضع بجاية الذي كان عبارة عن مرسى،وكان يحتوي على سور عظيم يضرب البحر فيه، فأعجبه تحصينها الطبيعي خاصة وأنها كانت محاطة بجبال شامخة من جهاتها الثلاث الشرقية والغربية والجنوبية، وكان سورها الهائل يحميها من الجهة الشمالية[5] فبنا سورها الجديد خلافا للسور القديم الذي بناه الرومان، ومما يدلنا على عظمة هذا السور هو طوله البالغ 5400م على سمك يتراوح بين 90 إلى 2م، وقد استعمل الناصر آلاف العمال لتسريع عملية البناء التي استغرقت بضعة أشهر، فبني بطريقة تدريجية من قمته إلى قاعدته، ولم يكن هذا السور مجرد جدار يعزل المدينة عن خارجها، بل تم تزويده بشرافات في أعلاه وممرات ليمشي الحرس بينها أثناء مناوبتهم المتعاقبة ليأمنوا غائلة عدوهم، ولا تزال هذه الأسوار باقية ببجاية إلى اليوم.

وعندما استقل زيري بن مناد[6] بولاية الزاب واختط مدينة أشير سنة (334هـ/ 935م) قام بتحصينها بسور كبير استعمل له البنائين من المدن المجاورة كالمسيلة وطبنة وغيرها[7]، فكانت أشير ملجأ جيش الحماديين في حروبهم ضد أبناء عمومتهم الزيريين نظرا لما توفره من حماية وتحصينات دفاعية، وهذه الأسوار نجدها في أغلب مدن المغرب الأوسط، فالإدريسي يصف سور قلعة أبي الطويل بقوله: « وهي متعلقة بجبل عظيم مطل عليها وقد

---

[1]علي بن يوسف بن تاشفين: تولى إمارة المسلمين في المغرب والأندلس بعد أبيه يوسف سنة 500هـ، فاجتمعت عليه الأمة واتفقت عليه الكلمة، وفي إمارته ظهر المهدي ابن تومرت. ينظر: الحلل الموشية في أخبار الدولة المراكشية، المرجع السابق، ص: 84.

[2]يحي بوعزيز: تلمسان عاصمة المغرب الأوسط. الجزائر: وزارة الثقافة2007م. ص- ص: 24- 25.

[3] j- herro:la ville au moyen Age en Occident. Paysages pouvoir et conflits, paris, 1990. P:322.

[4]المنصور الحمادي: المنصور بن الناصر بن علناس بنى حماد ابن بلكين الصنهاجي (498هـ/ 1104م) سادس ملوك الدولة الحمادية بالقلعة وبجاية بالمغرب الأوسط، بويع بعد وفاة أبيه الناصر سنة 481هـ /1088م كان مقره بالقلعة ثم انتقل إلى بجاية سنة 483هـ واتخذها عاصمة لدولته. ينظر: معجم أعلام الجزائر: عادل نويهض. مؤسسة نويهض الثقافية ص: 322.

[5] الاستبصار، المصدر السابق، ص: 129.

[6]زيري بن مناد الصنهاجي: من أعظم ملوك البربر وأول من ملك من الصنهاجيين بالمغرب الأوسط، وهو الذي بنى مدينة أشير سنة 324هـ للتحصن بها، وقتل في معركة وقعت بينه وبين جعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة وأمير الزاب سنة 360هـ . ينظر: معجم أعلام الجزائر، المرجع السابق، ص: 174.

[7]عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص: 88.

احتوى سورها المبني على جميع الجبل المذكور طولا وعرضا»[1] ولنا أن نتخيل مدى طول هذا السور وكم استغرق بناؤه وكم أنفق فيه الحماديون لولا أهميته الأمنية، فهم لم يفتهم تحقيق الجانب العسكري من بناء القلعة، لذلك وبعد أن انتهوا من بنائها أحاطوها سنة (405هـ / 1014م) بسور من الحجارة يلتف حول جبل كيانة على مدى طوله البالغ سبعة أميال.[2] ونظرا لطوله اللافت للانتباه فقد كان يبهر كل من شاهده، ويصفه الإدريسي بقوله: « ومدينة القلعة من أكبر البلاد قطرا..... وهي في سند جبل سلمي العلو صعب الارتقاء، وقد استدار سورها بجميع الجبل ويسمى تاقربست»[3]

وكانت مدينة مليانة محاطة بأسوار عالية في جهة من نواحيها، بينما تحميها من الجهة الأخرى صخرة كبيرة تشرف على شعب سحيق[4] تشكل لها تحصينا دفاعيا قويا، ونفس الشيء نجده في كل من مدينة تنس التي تحيط بها أسوار دفاعية، ومدينة مازونة الممتدة على مساحة شاسعة وتحيط بها أسوار متينة، كما كانت أسوار مدينة الجزائر ذات متانة شديدة لأنها مبنية بالحجر الضخم[5] تتكسر عنده أمواج البحر، وقد زارها الرحالة العبدري ووصف تحصيناتها الدفاعية فقال: « لها منظر معجب أنيق، وسور معجز وثيق، وأبواب محكمة العمل يسرح الطرف بها حتى يمل »[6]، وكان لمدينة المسيلة سوران يجري بينهما جدول ماء جار يسقي منه أهل المدينة عبر منافذ السور[7]وهو يدور حول المدينة على طول السور.

ولم تكن كل أسوار مدن المغرب الأوسط مبنية بالحجارة الضخمة، بل وجدت بعض المدن التي استعمل حكامها الطوب في عملية بناء أسوارها كما هو الحال في مدينة المسيلة التي يذكر ابن حوقل بأنها مدينة مستحدثة بناها علي بن الأندلسي[8] وعليها سور حصين من طوب[9] ولسنا ندري السبب في استعمال هذه المادة هل يرجع إلى عدم توفر الحجارة، أم إلى سبب آخر لا نعلمه.

كما يوجد بالموقع الأثري لمدينة سدراتة جنوب المغرب الأوسط سور دفاعي ذو أبراج مربعة في جهته الغربية، ويأتي بعده سور ثاني مزود بأبراج دفاعية مربعة الشكل،

---

[1] الادريسي، المصدر السابق، ص: 261.
[2] عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص: 94.
[3] الادريسي، المصدر السابق، ص: 255.
[4] الادريسي، المصدرنفسه ، ص: 252.
[5] الادريسي، المصدر نفسه، ص: 37.
[6] أبو عبد الله العبدري: رحلة العبدري، تح: علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع. ط: 2، 2005. ص: 82.
[7] البكري، المصدر السابق، ص: 59.
[8] علي بن الأندلسي: جعفر بن علي بن أحمد بن حمدون المعروف بابن الأندلسي، صاحب المسيلة وأمير الزاب، ولما تغلب عليه بلكين بن زيري فر إلى الأندلس فقتل بها. ينظر: معجم أعلام الجزائر، المرجع السابق، ص: 123.
[9] إسماعيل العربي:المدن المغربية. المرجع السابق، ص: 162.

وبين السورين توجد مجموعة من البنايات[1] التي يبدو أنها بنيت لتحتمي بهذين السورين كنوع من الزيادة في الاحتراز والحيطة،وهو ما نلمسه جليا في التحصينات الدفاعية ذات الشكل المستطيل المحيطة بالربوة الشمالية، ونظيرتها ذات الشكل البيضاوي المحيطة بالربوة الغربية[2]، ويتراوح ارتفاع سور سدراتة بين 4 و5م وهو مبني من الحجارة الكبيرة غير المنتظمة ممتدا من الشمال نحو الجنوب،ثم ينحني غربا بزاوية قائمة، حيث ينتهي بمدخل له باب ذو أساكف خشبية يفضي إلى فناء واسع تحيط به عدة مباني مدمجة في عرض السور، أما سمكه فيبلغ في بعض المواضع 2م[3].

وفي العهد الموحدي ابتدأ السيد موسى بن يوسف العسري بن عبد المومن بن علي الكوميسور مدينة تلمسان، وحصنه بعده السيد أبو الحسن بن السيد أبي حفص بن عبد المومن بن علي حوالي 581هـ إثر استيلاء بنو غانية على المدن الساحلية كبجاية والجزائر والمدية، خوفا من مهاجمتهم لتلمسان[4] لأنهم كانوا يشكلون تهديدا حقيقا للمدن التي كانت تحت حكم الموحدين، لذلك كان هؤلاء يعززون مدنهم ببناء الأسوار حولها حماية لها، كما فعل عبد المومن بن علي[5] سنة (540ه/ 1145م) بتاقرا مسقط رأسه[6] حيث حصنها وأعلى أسوارها، وقد كانت أسوار المدن في كثير من الأحيان عرضة للتخريب والهدم، لذلك دأب الحكام على الإسراع في إعادة بناء ما هدم منها وترميم ما خرب من أجزائها.

ويذكر الإدريسي أن مدينة تلمسان كان لها سور حصين متقن الوثاقة[7]، مما يعني أنه قد بني قبل العهد الزياني، أما في الفترة الزيانية فتشير المصادر كانت محاطة بالعديد من الأسوار الشاهقة الطول المحكمة البنيان، حيث بلغ عددها في بعض الجهات سبعة أسوار، وكانت متباعدة عن بعضا البعض بمسافات قصيرة، وقد استعمل في بنائها الآجر الذي كان يصنع بأيدي تلمسانية محلية، بينما نجد هذه الأسوار في جهات أخرى من المدينة تقوم على أساس من الحجر الصلب، وفي بعض الجهات الأخرى مبنية بالرمل والطين والكلس المدكوك[8]، ووصف الحسن الوزان أسوار تلمسان عند زيارته للمدينة فقال: « والأسوار في غاية الارتفاع والقوة.... والقصر الملكي الواقع جنوب المدينة محاط بأسوار مرتفعة إلى حد

[1]جلجال فاطمة، المرجع السابق، ص: 480.
[2].Idem (2017), Le site archéologique, op.cit, p:189- 190, 197- 200.
[3]جلجال فاطمة، المرجع السابق، ص: 480.
[4]يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص: 33.
[5]أبو محمد عبد المومن بن علي: أول خلفاء الدولة الموحدية (558-524هـ). ينظر الحلل الموشية ، المصدر السابق، ص: 142.
[6]محمد مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث. تقديم: محمد الميلي، بيروت: دار الغرب الاسلامي (د، ت). ج: 2، ص: 333.
[7] الإدريسي، المصدر السابق، ص: 248.
[8]عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزياني. الجزائر: موفم للنشر والتوزيع 2002م. ج: 1. ص، ص: 111، 112.

كبير»[1]. ولعل ارتفاعها المذهل هو الذي أبهر الحسن الوزان وجعله يسجل عنها هذا الانطباع وينقله لنا.

وقد درج سلاطين بني عبد الوادي على العناية بأسوار المدينة والحرص على بقائها شامخة في وجه جيرانهم الحفصيين من الشرق والمرينيين من الغرب، فنجد السلطان يغمراسن بن زيان[2] قد أمر سنة (668ه/ 1269م) ببناء أسوار شاهقة بالقرب من باب كشوط[3].

كما أعاد أبو زيان[4] مع أخيه أبي حمو[5] بناء ما أفسدته الحرب، وترميم ما هدمته أدوات الحصار من أسوار وأبراج[6]، بسبب للحصار المتكرر الذي كان المرينيون يضربونه حول تلمسان، ومن بين الذين أشادوا بإنجازات السلطان أبو تاشفين الأول[7] وسجلوا أعماله المؤرخ يحيى بن خلدون، حيث ذكر أن هذا السلطان كان مولعا ببناء الدور وتحبير القصور، مستعينا على بنائها بالآلاف من العمال ومن بينهم أسرى الروم، مخلدا بذلك « آثارا لم تكن قبله لملك ولا عرف لها بمشارق الأرض ومغاربها نظيرا »[8]. ورغم ما في هذا الوصف من مبالغة إلا أنه يدل على عظمة بناء أسوار تلمسان ومتانة تحصيناتها العسكرية، ومدى استعدادها للهجمات المباغتة.

واجهت تلمسان الحصار من طرف المرينيين أربع مرات انتهت كلها بالخيبة، لذلك فكر يوسف بن يعقوب[9] المريني في بناء مدينة عسكرية بمثابة معسكر كبير تسكنها جيوشه وتكون مهمتها مداومة الحصار لتمنع أي مساعدة خارجية عن تلمسان التي كانت تستعصي عليه في كل مرة بسبب حصانة أسوارها ومناعتها[10]، فاختار لها مكانا غربي تلمسان لبنائها

---

[1]الحسن الوزان الفاسي، المصدر السابق، ج: 1، ص: 20.

[2]يغمراسن بن زيان: المؤسس الفعلي للدولة الزيانية، كتب له الخليفة الموحدي الرشيد العهد بحكم تلمسان لتبدأ فترة جديدة في تاريخ تلمسان، دامت مدة حكمه ثمانية وأربعون سنة حيث أقام نظام دولة جديدة على أرض المغرب الأوسط بعد زوال حكم الموحدين. ينظر: ابن خلدون، العبر، ج: 7، ص: 100.

[3]يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج: 1، ص: 115.

[4]أبو زيان محمد بن عثمان بن سعيد الزياني: خلف أباه في حكم تلمسان سنة (703هـ/ 1304م) لكن لم تطل مدة حكمه، حيث توفي بعد ثلاث سنين (707هـ /1308م) إثر مرض أصابه في مدة حصار تلمسان. ينظر: التنسي، المصدر السابق، ص: 136.

[5]أبو حمو موسى الأول: حكم تلمسان مدة إحدى عشر سنة (707هـ -718هـ/ 1308- 1318م) وهو من أعطى للملك هيبته وللدولة مجدها. ينظر: ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج: 7، ص: 132.

[6]عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص: 28.

[7]أبو تاشفين الأول: (718- 737/1318- 1337م) تولى حكم تلمسان بعد مقتل أخيه أبي حمو الثاني، وتعرض أبو تاشفين الأول للحصار المريني على تلمسان ومات خلاله. ينظر: الزركلي، المصدر السابق، ج:4، ص: 311.

[8]يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج: 1، ص: 134.

[6]يوسف بن يعقوب المريني: أحد ملوك الدولة المرينية، وهو من قام بمحاصرة تلمسان حتى قتل بالمنصورة. ينظر: الزركلي، المصدر السابق، ج:3، ص: 253.

[10]بوزيان الدراجي: نظم الحكم في دولة بني عبد الوادي الزيانية. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1993م. ص: 262.

وأطلق عليها اسم المنصورة تيمنا بالنصر[1]، فكانت مدينة المنصورة هي الأخرى عبارة عن حصن عسكري تنطلق من غرات بني مرين.

تعرضت تلمسان لحصار طويل من طرف المرينيين دام حوالي ثماني سنوات عانى خلاله سكانها ضيقا شديدا ومشقة عظيمة، ورغم ذلك لم تسقط المدينة بيد المرينيين وذلك راجع إلى قوة التحصينات التي أقامها الزيانيون حول المدينة، والتي بفضلها استطاعوا الصمود لهذه المدة الطويلة، والفضل الأكبر في ذلك يرجع إلى الأسوار التي بنيت حول تلمسان « فوجود السور الثاني أي السور الخارجي يحل لنا مشكلة مقاومة أهل تلمسان لبني مرين التي دامت ثمان سنين وبضعة أشهر، وذلك أن أهل تلمسان كانوا يستغلون المساحة الواقعة بين السورين بالزراعة وتربية المواشي، وهي مساحة ليست بالقليلة... كانت تتراوح بين 330م، و500م.... ولأنه لا يمكن ادخار المؤن والأقوات لهذه المدة كلها من غير أن تصاب بالتعفن والفساد»[2] لذلك يمكن القول أن الزيانيين استطاعوا الصمود كل هذا الوقت بفضل تلك التحصينات الدفاعية الجبارة وفي مقدمتها الأسوار، حتى أن الدكتور يحي بوعزيز وصف تلمسان بعد هذا الصمود بطروادة الجزائر التي لا تقهر، على عكس طروادة الإغريق التي قهرت بعد عشر سنين من الحصار[3] بينما استطاعت تلمسان الخروج منتصرة منه.

2- الأبواب:

مفردها باب وهو المدخل والمخرج لمكان معين مثل الدر والجامع وغيره[4] وقد درج الملوك على احاطة المدن التي تخضع لحكمهم بأسوار حصينة تمنعها من الأخطار، وجعلوا لها أبوابا عدة لتسهيل عملية الدخول إليها والخروج منها وذلك حتى لا يتزاحم الناس على باب واحد[5]، وكان لهذه الأسوار أبوابا تحمل أسماء الجهات الأربع، أو أمكنة أو أشخاصا أو أسماء حرف أو ورشات عمل، أو حدائق[6] أو عيون ماء وغيرها.

لكن مهمة الأبواب لم تكن تقتصر على ذلك فقط بل كانت لها وظيفة أخرى تتمثل في الجانب الأمني،حيث كان الهدف من بنائها هو مراقبة الداخلين والخارجين منها طوال النهار، «فقد كانت بوابات المدن والحارات تترك مفتوحة أثناء النهار وتقفل بالليل بعد صلاة العشاء مباشرة، وبعضها بعد صلاة المغرب»[7]من طرف الجند الموكل بحراسة البوابات، وكانت

[1]يحي بن خلدون، المصدر السابق ، ص- ص: 140- 141.
[2]الحاج محمد بن رمضان شاوش،المرجع السابق، ص- ص: 163- 164.
[3]يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص: 45.
[4]ابن منظور، المصدر السابق، ص: 96.
[5]القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد. المصدر السابق، ج: 1، ص: 8.
[6]عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص- ص: 90- 91.
[7]خالد محمد مصطفى عزب: فقه عمارة المدن الإسلامية.مجلة كتاب الأمة، ع: 58، ربيع الأول 1418هـ، السنة 17، ص: 92.

هذه البوابات تتصف بالضخامة والثقل فكان الحرس يتعاونون على فتحها وإغلاقها عند الضرورة، وقد ازداد انتشارها في فترات اختلال الأمن وتفشي الحروب والصراعات.

فكانت بعض مدن المغرب الأوسط تحاط بسورين زيادة في الحماية والاحتياط من هجمات الأعداء، مثلما هو الحال مع مدينة تلمسان، حيث وضع القائمون عليها بوابات في السور الخارجي تقابلها بوابات أخرى في سورها الداخلي، ومن تلك البوابات: باب الرجاء يقابله باب الجياد، وباب الملعب كان يقع في الوسط بين باب كشوط وباب الحديد، والباب الثالث يطلق عليه باب أصيلان وهو يقابل باب القرمادين، والباب الرابع باب الزاوية ويقابل باب الحلوي من السور الداخلي، والباب الخامس يقابل باب العقبة[1].

كانت هذه البوابات موزعة على جميع جهات المدينة ليسهل على قاصديها الدخول إليها من أي جهاتها شاءوا، وقد أشار الرحالة الذين زاروها إلى هذه الأبواب، فيذكر أبو عبيد البكري الذي وصف تلمسان بأنه كان لها خمسة أبواب موزعة كالتالي: ثلاثة أبواب من جهة القبلة هي باب وهب وباب الخوخة وباب الحمام، وأحدها شرقي يسمى باب العقبة، وباب غربي ينسب لأبي قرة اليفرني.[2]وتعدد هذه الأبواب يدلنا على شساعة المدينة، ولنا أن نتخيل طوال وعظم الأسوار التي تحيط بها.

ومن الذين لاحظوا بوابات مدينة تلمسان في العصر الوسيط، الحسن الوزران الذي نقل إلينا تفاصيلها بدقة بالغة، حيث يقول عنها: « فتحت فيها خمسة أبواب واسعة جدا، مصاريعها مصفحة بالحديد وقد أقيمت في جوانبها حجيرات يقيم فيها موظفون وحراس ومكاسون»[3] بل كان السلطان المنصور في كثر من الأحيان يجلس فوق سطح باب البنود ويراقب بنفسه على طول امتداد البساتين أمامه ويلاحظ بقوة كل الذين يدخلون المدينة أو يغادرونها[4] وهذا الموقف من السلطان له مغزى هو تنبيه الحراس إلى أهمية هذا المرفق العسكري، وجعل الحراس في حالة استعداد وجاهزية لأي طارئ يمكن أن يهدد أمن المدينة.

لم تكن تلمسان المدينة الوحيدة من مدن المغرب الأوسط التي كانت لها بوابات تفضي إلى المدينة، بل كان هذا النظام الأمني سائدا في معظم مدن المغرب الأوسط، فمدينة تيهرت كما ذكر البكري كان لها ثلاثة أبواب هي: باب الصفا، وباب المنازل، وباب الأندلس، وباب المطاحن[5]، كما أشار إلى مدينة تنس بأن لها بابان إلى القبلة، وباب إلى البحر، وباب أبي ناصح وباب الخوخة وهو باب شرقي يفضي إلى عين ماء عذبة تسمي عين عبد السلام[6]،

[1] محمد بن رمضان شاوش، المرجع السابق، ج: 1، ص- ص: 162- 163.
[2] مختار حساني، المرجع السابق، ج: 2، ص: 131.
[3] الحسن الوزان، المصدر السابق، ج: 2، ص: 20.
[4] محمد بن عميرة: تاريخ بجاية، المرجع السابق، ص: 57.
[5] إسماعيل العربي، المدن المغربية، المرجع السابق ص: 66.
[6] إسماعيل العربي، المدن المغربية، المرجع نفسه، ص: 152.

وكانت أحيانا تؤدي بوابات المدن إلى جسور تقطع الوديان أو الأنهار، كما هو حال باب القنطرة المشهور في مدينة قسنطينة حيث كان الخارج منه يجد نفسه مباشرة فوق جسر يعبر واد الرمل[1].

ولم تشذ قلعة بني حماد عن هذا النمط والنظام، فقد كانت هي الأخرى تتبع في بنائها نفس النمط في بناء الأسوار المزودة بالأبواب، فكان لسورها الذي يقرب ارتفاعه من ذراعين، ويمتد على استدارة سبعة أميال، كان له أبواب ثلاثة أبواب منها باب الجنان الذي يفضي إلى جسر المسيلة، وباب جراوة به جسر على وادي الفرج، وباب الأقواس المؤدي إلى حارة جراوة[2]، وكان لأسوار مدينة المسيلة بابان يسمى الأول باب القاسمية، والثاني باب الأمور[3] كانت تقفل على الأحياء.

وإذا انتقلنا إلى الصحراء فإننا نجد نفس النظام الأمني متبع هناك أيضا، حيث أشار إلى ذلك العياشي في رحلته عندما زار مدينة ورقلة بقوله: « طلعنا للمئذنة وهي مشرفة على المدينة كلها، فنظرنا إلى أطرافها ووسطها وكنا نستقلها قبل ذلك، فإذا هي مدينة لها سبعة أبواب»[4]، بينما يذكر دوماس أن عدد أبواب ورقلة هو 8 أبواب موزعة على كامل جهات المدينة وتنتهي عند شوارعها الرئيسة الكبيرة، وهذه الأبواب هي: باب أبي الربيع، باب البستان، باب أحميدة، باب أبي إسحاق، باب أبي عمار، باب عزى[5]، ويبدو أن قلة الأبواب وكثرتها يعود إلى صغر المدينة أو اتساعها واستبحار عمرانها.

3-الحصون والقلاع:

القلاع هي عبارة عن حصون ممتنعة عادة ما تقام في أماكن وعرة يصعب الوصول إليها، كأن تبنى على قمة جبل أو مشرفة على البحر، وفي حالات قليلة كانت تقام في وسط المدن إذا كانت المدينة مبنية على منبسط من الأرض، أما إذا كانت المدينة جبلية منتشرة كالبرنس فإن القلعة كانت تبنى في أعلى قمة من الجبل[6]،حيث يمكنها موقعها هذا من مراقبة جميع نواحي المدينة لتؤدي مهمتها الأمنية على أفضل حال، وكانت هذه القلاع تحتوي في داخلها على السجن وبيت المال ومستودع السلاح ومخزن الطعام وكل ما يحتاجه السكان من مؤنة في حالة تعرضهم لخطر ما كالغزو أو الحصار[7] مما يوفر لهم الضروريات من الحياة

---

[1]روبير برونشفيك، المرجع السابق، ج:1، ص: 420.
[2]الميلي، المرجع السابق، ج:2، ص: 274.
[3]ابن حماد القلعي: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم. تح: فوندرهايدن. الجزائر 1927. ص: 26.
[4]مولاي بلحميسي: مدينة ورقلة في رحلة العياشي، مجلة الأصالة، عدد خاص، رقم41، سنة 1977م, ص: 62.
[5]Daumas (G) . Le Sahara Algérien, paris,1845,p:72.
[6]عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص- ص: 90- 91.
[7]قبيلة المالكي، المرجع السابق، ص: 195.

طيلة مدة الحصار، وتتحصن الحامية بداخله مما يدفع العدو إلى اليأس ورفع الحصار عنهم كلما طالت مدة مقاومتهم.

إن الحديث عن القلاع في مدن المغرب الأوسط يحيلنا إلى الحديث عن أكبر قلعتين بنيتا فيه ألا وهما قلعة بني حماد بالمسيلة، وقلعة المشور بتلمسان، على أن هذا لا يعني عدم وجود قلاع أخرى في المغرب الأوسط، فقد ذكرت المصادر الوسيطة التي أرخت للمغرب الأوسط وجود العديد منها موزعة على ربوعه،وتعرف الباحثة قبيلة المالكي القلاع على أنها مدن داخل المدن حيث تتوفر على كل الاحتياجات التي يحتاجها الناس في حالة ما إذا وقعوا تحت الحصار، وهي مسورة بسور مدعم بأبراج مع أبواب دفاعية، وكانت القلاع مزودة بمزاغل وهي أماكن رمي السهام المعتمدة في الدفاع عن القلاع[1]؛ إضافة إلى السقاطات المخصصة لرمي السوائل المحرقة على العدو.

وتبدو هذه الوظيفة العسكرية واضحة في تخطيط قلعة بني حماد، فهي لم تبن لتعطي منظرا حسنا أو بديعا، وإنما كان الغرض من بنائها هو التحصن والحماية من هجمات الزيريين أو الزناتيين، ولأجله اختير موقع القلعة الذي يفوق مدينة أشير حربيا واقتصاديا[2]لذلك فإن حماد كان يخفي بها مدخراته من الحنطة والتبن والثمار المجلوبة من الجبال، والذخائر والأموال ودار الأسلحة[3] وغيرها... وقد كان اختيار حماد لمكان القلعة العسكري في محله، لأنها تتوسط سفحين جبليين شديدي الانحدار، وفي جانبها الأيمن وادي فرج،[4] الذي يشكل لها حماية طبيعية من العدو.

وتجدر الإشارة إلى أن موقع القلعة كان ذا اهتمام عسكري منذ القديم، وأشارت إلى وجودها وحصانتها العديد من المصادر الجغرافية، منها ياقوت الحموي حيث قال: « وقلعة أبي الطويل بإفريقية ذات حصانة بنيت عند خراب القيروان»[5]وكان الدافع إلى بنائها هو ما كان يرجوه حماد من الدعم المادي والعسكري، فمكانها الحصين يستطيع أن يؤدي مهمة الحماية لدولة بني حماد الناشئة، من غارات بني عمومته الزيريين، وعليه فيمكن القول ان قلعة بني حماد أدت دورا عسكريا أكثر منه حضاريا وبقيت حامية الحارس الذي يسهر على حماية الدولة إلى أن خربها الهلاليون.

تعد قلعة المشور من أقدم قلاع المغرب الأوسط حيث يعود بناؤها إلى عهد الموحدين، فيذكر الإدريسي أن فوق جبل تلمسان حصن بناه المصمودي قبل أخذه تلمسان، ولم تزل

[1] قبيلة المالكي، المرجع السابق، ص: 195.
[2] الميلي، المرجع السابق، ج:2، ص: 273.
[3] ياقوت الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ج:7، ص: 149.
[4] عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص: 93.
[5] ياقوت الحموي، المشترك وضعا والمفترق صقعا، المصدر السابق، ص: 357.

المصامدة قاطنين به إلى أن فتحوا تلمسان[1]، وقد شهدت القلعة ترميمات في عهد يني زيان مما يدل على رغبة تهم في اتخاذها قلعة منيعة صعبة المنال، وحصنا قويا[2]يصعب اقتحامه من طرف الأعداء، وقد قاومت قلعة المشور صروف الدهر قرونا عديدة ولا تزال تتوسط المدينة كالطود الشامخ[3]وكانت تحمي دور السكن والمرافق التي بداخلها.

ومن الحصون التي بناها الزيانيون حصن " بكر " أمر ببنائه أبو تاشفين الأول، عندما كلف قائده موسى بن علي الكردي[4] بحصار بجاية[5]، فبناه في مضيق وادي الصومام وشحنه بالجند والعتاد، وصفه الإدريسي بقوله: « وحصن بكر حصن حصين»[6]،وقد دام حصارهم لبجاية عشرية كاملة، ورغم ذلك فقد تمكنت بجاية من الصمود أمام حصار الزيانيين نظرا لشدة تحصيناتها العسكرية[7] ومناعة سورها.

ولما رأى أبو تاشفين أنحصن " بكر" لم يعد قادرا على تأدية مهامه العسكرية أمر ببناء قلعة تمززدكت التي تبعد بحوالي 25 كلم عن بجاية على الضفة اليسرى لوادي الصومام، وقد أمر أبو تاشفين ببنائها عندما عزم على محاصرة بجاية سنة (720هـ / 1320م) في موقع سوق الخميس[8]حيث جمع لها العمال وأعطى أوامره بمواصلة العمل فيها فبنوها في ظرف أربعين يوما[9]، ويذكر يحي بن خلدون أن السلطان الزياني بعد فراغه من بناء هذه القلعة أوطنها 3200 فارسا وأمر بحمل الزرع إليها من جميع بلاده الشرقية فشحنت مخازنها أقواتا نامية من القمح والشعير[10]، وجعلها قاعدة لانطلاق جيوشه إلى الأقاليم الشرقية ومقرا للإمدادات العسكرية، وصارت هذه القلعة الخط الأمامي الزياني المتاخم للحدود الحفصية من أجل مراقبة تحركاتهم وتحركات جميع القبائل الشرقية[11]، وكانت أسوار هذه القلعة شديدة الشبه بأسوار مدينة تلمسان والمنصورة، حيث يتراوح علو أسوارها من 6م إلى 7م، وسمكها

[1]الإدريسي، المصدر السابق، ص: 248.
[2]فيلالي، المرجع السابق، ج: 1، ص- ص: 111- 112.
[3]يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص: 37.
[4]موسى ين علي الكردي: أصله من احدى القبائل الكردية التي زحفت إلى المغرب هربا من التتار، ولجأوا الى مراكش نهاية عهد الموحدين، ثم انتقل هو الى خدمة الزيانيين بتلمسان، كان في بداية أمره قائدا عسكرا، ثم اتخذه السلطان الزياني أبو تاشفين الأول وزيرا وحاجبا له، وبقي في خدمته إلى أن قتل في حصار تلمسان مع السلطان وبنيه سنة 737هـ . ينظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج:7، ص، ص: 111، 113.
[5]يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج: 1، ص: 135.
[6]الإدريسي، المصدر السابق، ص: 262.
[7]فيلالي، المرجع السابق، ج:1، ص:41.
[8]عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص: 84.
[9]Bourouiba (r):l’architecture militaire de l’Algérie mediavale.OPU. Alger. 1983.p 189
[10]بغية الرواد، المصدر السابق، ج: 1، ص: 217.
[11]فيلالي، المرجع السابق، ج:1، ص: 42.

يصل في بعض الأماكن إلى متر ونصف[1]، لأنها صممت لتكون قلعة عسكرية بامتياز وعززت بسور خارجي لكسر الهجومات الخارجية.

ولم يكن حصن تمززدكت وحصن بكر الوحيدان اللذين بناهما أبو تاشفين بقرب بجاية لمحاصرتها، بل أمر ببناء حصن في موضع يعرف بالياقوتة في أعلى الوادي مقابلا لمدينة بجاية لمراقبة تحركات أهلها والتحكم في المنطقة[2]، وكان أبو حمو موسى الأول قد سبقه ببناء حصن أصفون الذي شيده ليزيد من تضييق الحصار على بجاية[3]، وشحنه بالمؤن والجند وجميع ما يلزمه. ومن الحصون التي ما تزال قائمة حتى الآن محافظة على معمارها برج موسى الذي بني على أنقاض قصر النجم، المطل على الميناء، وهو يتكون من طابق أرضي به ثلاثة أقبية كبيرة عالية يصل علوها إلى 9 أمتار وعرضها إلى 6 أمتار، وتحتوي قاعتها الكبيرة في الطابق العلوي على عشرة نوافذ صغيرة للتهوية، وما يشد انتباه الناظر الحصن هو سماكة جدرانه خاصة جهة الشمال المقابلة لجبل قوراية حيث يصل سمك الجدران إلى 6 أمتار وهي مبنية بمادة الآجر[4]مما يجعل اقتحامها في غاية الصعوبة.

ومن الحصون التي عرفها المغرب الأوسط نذكر أيضا حصن سيدي عبد القادر، بناه الحماديون في القرن (5هـ /11م)، وهو عبارة عن برج لمراقبة الساحل المشرف على شاطئ سيدي يحي، وهو يعرف أيضا بحصن البحر لأن جدرانه تضرب في البحر، وهي مبنية من الحجارة الكبيرة المقطعة المصقولة ألصقت بعضها ببعض، يعتقد أنها مجلوبة من مباني رومانية قديمة من المنطقة، وعرض هذا الحصن 56مترا، وطوله 18مترا، به طابق أرضي مقسم إلى أربع غرف تتسع لحوالي خمسين رجلا مخصصة للخيالية، وكان هذا الحصن قديما يحمي قصر اللؤلؤة الذي بناه الحماديون،[5] ليوفر له الأمن ويحفظ استقراره.

وقد كانت مدينة باغاية تحتوي هي أيضا على قلاع كثيرة كان سكانها ينتحلون المذهب الاباضي، وكانت مساحاتها واسعة بحيث تشمل المساكن والحمامات والأسواق، والمساجد داخلها[6]، وينبغي أن نشير إلى أن القلاع لم تكن مجرد حصون عسكرية تبنى في أي موقع، بل كان لابد من توفر مجموعة من الشروط التي تحقق لمدن المغرب الأوسط الحماية وتضمن لها الأمن، كاختيار الموقع وطريقة البناء ومواده، وكانت الحصون في كثير من الأحيان تبنى لتدعيم أسوار المدن وحراستها، فقد « نقلFéraud رواية محلية أخرى لم تسجلها الكتب التاريخية، وقال عنها بأنها ذكريات ما تزال شائعة جدا مفادها أن المولى

[1]عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص: 84.
[2]عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج:1، ص: 42.
[3] بوزياني الدراجي، نظم الدر، المرجع السابق، ص: 260.
[4]عبد الكريم عزوق، المرجع السابق، ص: 81.
[5]عبد الكريم عزوق، المرجع نفسه ، ص: 80.
[6]إسماعيل العربي، المدن المغربية، المرجع السابق، ص: 187.

الناصر اختار في الواقع بجاية لجعلها عاصمة ولايته واعتكف آلاف العمال على البناء وبنو في عدة أشهر السور العظيم المحيط بالمدينة مدعما بحصون»[1] فنلاحظ من خلال هذه الرواية أن الأسوار كانت تبني لحماية المدن أما الحصون فكانت مهمتها حماية الأسوار، لكننا نجد في مناطق كثيرة أن الحصون كانت تبنى لغرض عسكري بحت وهو إما للدفاع أو لمحاصرة المدن المتحصنة.

وفي جنوب المغرب الأوسط وتحديدا في سدراتة وجدت بعض الحصون أحدها ذو شكل بيضاوي به أبراج دفاعية مربعة، كما وجد في جنوب سدراته برج مربع أشار إليه الباحث فوشي fauchet[2]، التحصينات الدفاعية المحيطة ببعض المنازل الخاصة، كما هو الحال عليه في البيت المحصن3 المتواجد في أقصى الربوة الغربية من المدينة.

4-الخنادق:

الخندق هو حفير حول المكان عبارة عن أخدود عميق مستطيل يحفر في مكان القتال ليتقي به الجنود[4]وهي حيلة حربية كان الفرس يستعملونها في حروبهم، وقد نقلها الصحابي الجليل سلمان الفارسي[5] وأشار بها على النبي صلى الله عليه وسلم في الغزوة التي سميت بغزوة الخندق سنة (5هـ / 627م) وقد استخدم أهل المغرب الأوسط هذا النظام الدفاعي المتمثل في تقنية حفر خنادق حول المدن لقطع الطريق أمام أية محاولة لدخولها، فلا يمكن الدخول إليها إلا عن طريق البوابات المخصصة لذلك، فكان حكام دول المغرب الأوسط يحيطون المدن بأسوار شاهقة شديدة البناء، ويحفرون حولها خنادق بطول امتداد الأسوار إمعانا في الحيطة وزيادة في الأمن، فقد «أحاط الزيانيون مدينة تلمسان بخندق عميق من الجهة الجنوبية بموازاة متشكانة الذي يلتف حول من الناحية الجنوبية والشرقية.... تدعيما للسور المبنيمن الطين والرمل والكلس المدكوك وتحصينا للمدينة من هذه الناحية.... ويوجد بالشمال الغربي للمدينة خندق آخر يعرف بخندق " عين كسور" ... خارج باب القرمادين»[6]، والملاحظ على سلاطين بني زيان أنهم كانوا شديدي الحرص والاهتمام بهذا النوع من التحصينات الدفاعية.

سارع السلطان الزياني أبو حمو موسى الأول مباشرة بعد مغادرة السلطان المريني لمدينة تلمسان إلى إعادة بناء أسوارها وحفر الخنادق حولها، لأن الأسوار القديمة تأثرت

[1] محمد بن عميرة: تاريخ بجاية، المرجع السابق، ص- ص: 42- 43.

[2] Marguerite Van Berchem, Le site archéologique, op.cit, p:180, 183-184, 196.

[3] جلجال فاطمة، المرجع السابق، ص: 482.

[4] ابن منظور، المصدر السابق، ج:2، ص: 455.

[5] سلمان الفارسي: ابن الاسلام أبو عبد الله أسلم السنة الخامسة للهجرة، وصحب النبي صلى الله عليه وسلم وخدمه، لم يشهد غزوة بدر ولا أحد، وشهد غزوة الخندق وهو الذي أشار على النبي صلى الله عليه وسلم بحفره. ينظر: سير أعلام النبلاء، المصدر السابق، ج: 1، ص: 555.

[6] عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج: 1، ص: 114.

بطول الحصار[1]، وقد عرف عن السلطان أبو حمو موسى الأول أنه كان مولعا بتشييد الدور وتحبير القصور وتطوير الجيش وتقويته وحفر الخنادق حول العاصمة تلمسان[2] وهذا نظرا لكثرة التهديدات التي كان يشكلها المرينيون لدولته، فقد قاموا بمحاصرة مدينته لأكثر من مرة ويطول حصارهم لها لسنوات، لذلك كان عليه أن يتخذ جميع الاحترازات اللازمة لرد عدوانهم والصمود أمام حصارهم لأطول مدة ممكنة.

ونفس الأمر نجده في مدينة ورقلة حيث تم حفر خندق بعرض 20 مترا حول سورها الطويل البالغ 2100 مترا، كان يتم ملأه بالمياه ليمنع اقتحام العدو للمدينة مهما كثرت محاولته لذلك، وقد كانت هذه الخنادق موجودة بكثرة في المدن الصحراوية[3]نظرا لوفرة المياه وسهولة الحفر في الرمال، بالإضافة إلى أن أراضي الصحراء منبسطة وتساعد على عملية الحفر.

5-الأبراج:

البرج بيت يبنى على سور المدينة وعلى سور الحصن وهو بناء مرتفع على شكل مستدير أو مربع ويكون مستقلا أو قسما من بناء عظيم[4] وكانت الأبراج في العادة تبنى فوق الأسوار التي تحيط بالمدينة وتكون قريبة من أبوابها بغرض مراقبة الداخل والخارج منها، وبحكم مكانها المرتفع فإنها تطل على أحواز المدينة وما يدور حولها، لتستبق الأخطار وكل ما من شأنه مباغتة أمنها، فمهمتها إذن تتمثل في المراقبة والحراسة، وكان الطابع العام للمدن الإسلامية هو وجود « أسوار تتخللها أبراج تستند أحيانا من الخارج على دعامات هرمية الشكل»[5]تزيد من متانة الجدار وتقويته، وإن إطلالة سريعة في المصادر التاريخية التي تعرضت لوصف مدن المغرب الأوسط، كفيلة بأن تعطينا تصورا حول طريقة بناء الأبراج التي كانت تتخذ لحماية أمن المدن.

فأسوار مدينة تلمسان كانت تعلوها أبراج قوية وعالية اتخذت لغرض المراقبة، من بينها برج القشاقش، وبرج الطاحونة في جنوب المدينة المؤدي إلى هضبة لاله ستي لمراقبة الجهة الجنوبية وحمايتها، وحماية الطاحونة التي تزود أهل تلمسان بالدقيق، وبرج إمامة وهو عبارة عن قصر قديم على شكل قلعة مرتفعة في الشمال الغربي، كما أن باب العقبة قد بني بالقرب منه برجان كبيران أشكالهما مربعة، ومواد بنائهما من الآجر والحجارة المتبقية من آثار الرومان القديمة[6]تمثلت مهمتهما في مراقبة حركة التنقل من وإلى المدينة، وكان في

[1] مختار حساني، المرجع السابق، ج: 2، ص: 131.
[2] عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج: 1، ص: 40.
[3] خالدي عبد الرزاق، المرجع السابق، ص: 108.
[4] ابن منظور، المصدر السابق، ج:2، ص: 120.
[5] خالدي عبد الرزاق، المرجع السابق، ص: 105.
[6] عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ج: 1، ص- ص: 111- 112.

المسافة الواقعة بين السورين الداخلي والخارجي لتلمسان أبراج معدة لمقاومة العدو والدفاع عن المدينة أثناء الحصار[1] المضروب عليها، كما كان ميناء هنين الصغير محروسا ببرجين كل واحد منها في جهة لمراقبة حركة السفن وتنقلات الجند، وتحيط بالميناء أسوار عالية متينة لا سيما من جهة البحر[2] لرد الهجمات المتوقعة من جهته.

أما في الدولة الحمادية فنجد العديد من المباني العسكرية التي شيدها بنو حماد بغرض الدفاع عن مدنهم، ومن بينها الأبراج الحصينة الموجودة في كل من القلعة وبجاية، ولم تقتصر هذه الأبراج والحصون على شكل هندسي واحد، بل اتخذت أشكالا هندسية متعددة، لكن الغالب على أبراج قلعة بني حماد هو الشكل المربع الذي يسهل على الحراس مهمة المراقبة ورصد تحركات العدو،كما كانت تؤدي مهمة حتى المراقبة البعيدة بين المدن،[3]ومن بين تلك الأبراج برج " بوليلة" الواقع في جنوبها ويتبع بناؤه شط البحر متجها نحو الشمال، وتتراوح أبعاده بين 170سم و250سم عرضا، و4 إلى 6 متر ارتفاعا، وكان يوجد في أعلاه ممرا للحرس للتنقل بين شرفاته المبنية من الحجر، وتتخلله أبراج صغيرة للحراسة يبعد بعضها عن بعض حوالي 25 مترا مستطيلة الشكل طولها حوالي 4 أمتار وعرضها حوالي 3 أمتار، بارتفاع يبلغ 6 أمتار وهي ناتئة عن البرج الكبير بـ 2.5 مترا.

كان لباب البحر قوسان وعلى يمين هذا الباب ويساره يوجد برج مستطيل[4] مهمته الأساسية هي حراسة الباب، ويمكن القول أن أغلب مدن المغرب الإسلامي كانت مزودة بمثل هذه الأبراج التي تعد شرطا ضروريا لبناء الأسوار لتؤدي مهمتها على أحسن وجه، فلا نكاد نجد سورا يخلو منها، فسور مدينة المهدية كان مزودا بمائة برج نظرا لما كانت تتعرض له من هجمات، فكلما تعددت الأبراج زادت درجة الحيطة وتوفر الأمن.

ونظرا لأهمية هذه المنشآت الدفاعية وضرورتها فقد كان الحكام يحرصون على إقامتها حول مدنهم مستخدمين في ذلك أيادي محلية ذات كفاءات عالية، بل يستعينون في بعض الأحيان بالخبرات الأجنبية لبنائها، فقد أفاد «Féraud أن أحد البجاويين أطلعه على ملخص باللغة العربية مقتبس على ما يبدو من كتب تاريخية محلية قديمة توجد فيه معلومات أخرى عن الأعمال المنجزة أثناء حكم المنصور ورد فيه " أن هذا الأمير الذي كانت له صداقة مع ملك بلاد الروم " البابا"طلب منه تزويده بمهندسين معماريين وعمالا لمواصلة تزيين عاصمته، وقد أرسل له "البابا" ألفا ومائة حرفي خبراء في مختلف صناعاتهم، فأقام هؤلاء العمال في الجهة المقابلة للغرب والجنوب من المدينة برجا عظيما أطلقت عليه تسمية "

[1] محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسانّ، المرجع السابق، ج:1، ص: 161.
[2] الحسن الوزان، المصدر السابق، ج: 2 ص: 15.
[3] رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص: 203.
[4] رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص- ص: 201- 202.

شوف الرياض " L'observation des jardins[1] فكان هذا البرج يقوم بحراسة ثلاثة أبواب من بينها باب البنود.

كانت المهمة الرئيسية لتلك الأبراج تتمثل في المراقبة والترصد لذلك قام بنو حماد ببنائها في شكل بنايات عسكرية تقام عند نهايات الأسوار وغالبا ما تكون في أماكن عالية لتشرف على مساحة واسعة من المدينة والمناطق المحيطة بها، فهي بذلك تكمل الدور الذي تؤديه الأسوار في حماية المدن،[2] وقد زود الحماديون أبراجهم التي خصصوها للمراقبة بوسائل للاتصال تتمثل في مرايا عاكسة، ووزعوها على جميع الأبراج في بقية المدن التابعة لهم، فكانوا يستعملونها للإنذار إذا أحسوا بأي خطر داهم حيث يوجهونها ناحية الشمس لتعكس أشعتها نحو الأبراج الموجودة في المدن المجاورة لهم لتأخذ أهبتها وتستعد لمواجهة العدو، أما في الليل فقد كانوا يشعلون النيران في حالة الخطر ليراها الجنود الموزعون على بقية الأبراج الأخرى، ومن هنا جاءت تسمية الأبراج بالمنارات[3]،

ولبجاية برج من جهة البحر معروف ببرج سيدي عبد القادر ولها أبراج منتشرة عبر سورها[4]الطويل الذي يعتبر مثالا واقعيا للتحصينات الدفاعية لمدينة بجاية التي كانت تشكل مع بقية القلاع المجاورة لها منظومة دفاعية قوية لرد أي عدوان خارجي، وهو ما يدلنا على مدى حرص واهتمام الحماديين بالجانب الدفاعي وإعطائه أولوية بالغة، خاصة وأنهم قد عايشوا هجمات الهلاليين على القلعة من قبل.

كانت المدن التي تتوقع الأخطار دائما ما تحاط بالأسوار المزودة بالأبراج لغرض المراقبة، فكان لمدينة ورقلة واحدا وأربعين برجا دفاعية ناتئة من السور الذي يحيط بالمدينة تم بناؤها بالطوب والحجارة، وهي مربعة الشكل وممتدة على طول السور البالغ طوله 2100مترا،[5] وللزيادة في الاحتياط فقد تم حفر خندق محيط بالسور عرضه 20 مترا يتم غمره بالماء في حالة تعرض المدينة إلى هجوم أم حصار من طرف العدو، حيث تصبح عملية دخول المدينة أمرا شبه مستحيل حيث تتحول المدينة في هذه الحالة إلى قلعة محصنة.

المبحث الثالث: التحصينات البحرية:

تعد التحصينات البحرية من بين أهم الاستراتيجيات الدفاعية التي تعتمد عليها الدول في عملية الدفاع، فهي تشكل الواجهة البحرية التي من خلالها تنفتح على مجال واسع من البحر والذي يمكن أن يشكل هاجساً ومنفذا يتم من خلاله الدخول إلى الدولة.

[1]محمد بن عميرة، المرجع السابق، ص- ص: 52- 53.
[2] رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص: 77.
[3] رشيد بورويبة، المرجع نفسه، ص- ص: 201- 202.
[4] عبد الكري عزوق، المرجع السابق، ص: 78.
[5]خالدي عبد الرزاق: دور الطرق التجارية في إنشاء المدن في المغرب الأوسط، مدينة ورقلة أنموذجا،مذكرة ماجستير، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2008، 2009. ص- ص: 108- 109.

1-الموانئ ودُور صناعة السفن:

الميناء هو مرفأ السفن ومرساها وجمعه موانئ[1]، ونود الإشارة هنا إلى أن الموانئ رغم أنها تدخل غالبا ضمن المنشآت المدنية وأنها تقوم بدور تجاري ونشاط النقل وتبادل السلع،إلا أنها كانت في كثير من الأحيان تؤدي وظائف ذات طابع عسكري خاصة في أوقات الحروب،فقد كانت تتخذ كقواعد عسكرية لتقوم بمهام متعددة، كما كانت تقوم بالتصدي لقرصنة سفن البلاد المسيحية التي كانت تهاجم سواحل بلاد المسلمين وتهدد أمن ساكنيها.

فمن بين الأسباب التي اختار الناصر الحمادي لأجلها موقع بناء مدينة بجاية هو وقوعها أمام خليج مأمون يسع أسطولا ضخما يهيمن به على البحر[2] عندما كانت نيته قتال أبناء عمومته بني زيري، ويرجع اهتمام بني حماد بإنشاء الأساطيل البحرية لغرض حماية بلادهم من غارات أعدائهم كالبيزاويين والجنويين والنورماند، لذلك قاموا بتأسيس دور لصناعة السفن الحربية والتجارية[3]،وقد أشار صاحب كتاب الاستبصار إلى وجود دارين لصناعة المراكب وإنشاء السفن ببجاية، حيث كان بنو حماد يقومون منها بغزو بلاد الروم[4]فأقام الحماديون دار صناعة لإنشاء الأساطيل الحربية والحرابي والسفن المعدة لنقل الجنود والعتاد[5] وقد ساعد على ذلك وفرة المادة الأولية المتمثلة في الخشب الذي كان يتم جلبه من الجبال والأودية المحيطة بها، بالإضافة إلى توفر الزفت البالغ الجودة الذي يدخل في صناعة المواد الحربية[6]،فمواجهة بجاية للبحر وتحصنها الجبلي أتاح لها أتاح لها إمكانية بناء قوة عسكرية بحرية من خلال إنشاء دار لصناعة السفن والأسلحة لتحمي وجودها وتعزز أمنها، فبنو حماد ومنذ الوهلة الأولى وضعوا نصب أعينهم الجانب الأمني في الدرجة الأولى، لذلك كان اختيارهم لموقع بناء مدينة تحمي وجودهم نابع عن تخطيط مسبق، فوقع اختيارهم على بجاية لأنها محصنة تحصينا طبيعيا بسلسلة من الجبال ذات منحدرات سحيقة يقابلها البحر وهي كلها مؤهلات لبناء مدينة تمثل ملجأ وملاذا آمنا يمنع عنهم هجمات بني هلال.

وتختلف أنواع هذه المراكب حسب وظيفتها، فمنها الواسعة المعدة للحمولة الثقيلة، ومنها اليخوت الصغيرة التي تتسع لحوالي 100 راكب، حيث كان يتم استخدامها في الهجمات السريعة مثل هجمة توربيلا (1397م/799ه) التي شنها البجائيون في العهد الحفصي انتقاما من المسيحيين، ومنها هجمة اليخوت على مدينة " برانيس" سنة

---

[1]ابن منظور، المصدر السابق، ج: 4، ص: 213.
[2]مبارك الميلي، المرجع السابق، ج: 2، ص: 276.
[3]محمد الطمار: المغرب الأوسط في ظل صنهاجة، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية 2010، ص: 187.
[4] الاستبصار، المصدر السابق، ص: 130.
[5]مبارك الميلي، المرجع السابق، ج: 2، ص: 276.
[6] الاستبصار، المصدر السابق، ص: 260.

(1406م/808ه) التي هاجم فيها البحارة البجائيون الكنيسة وحملوا ما بين 50 و80 أسيرا حيث باعوهم في بجاية[1]، وقد أشار فاليرين إلى أن مسيحيا صاحب يخت مسلح من سكان بلنسيا استطاع سنة (1423م/ 825ه)أن يستولي على قاليوطة بجائية ذات عشرين منصة كان على متنها عدة مسلمين[2]، والشاهد من هذا النص هو وجود هذا النوع من المراكب المسمى قاليوطة في تلك الفترة.

كما كان المرسى الكبير بوهران يشكل أكبر مرسى في المنطقة وليس له مثال في مراسي حائط البحر[3]فكانت ترسو به أنواع السفن الكبيرة السفرية والحربية لأنه يعد ساترا من الريح، وكان مرسى أرزيو من مراسي مستغانم العديدة، ونظرا لأهميته الطبيعية وموقعه الاستراتيجي فقد استخدمه الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي كأحد مراكز أسطوله الضخم[4] الذي كان يغزوا به البحر.

وعلى العموم يمكن القول إن موانئ المغرب الأوسط كانت تحتوي على دور لصناعة السفن والمراكب، لكنها لم تقتصر على المراكب التجارية أو المعدة للنقل البحري فقط، بل كانت تقوم بصناعة مراكب ذات مهمة عسكرية أيضا نظرا لحاجتها لحماية أمنها والدفاع عن حدودها.

وكخلاصة لهذا الفصل يمكن القول أن المغرب الأوسط شهد فترات اضطراب وحروب وفتن كانت تهدد الجانب الأمني للمدن والسكان، لذلك لجأ حكام الدول التي تعاقبت على الحكم في هذا الفضاء الجغرافي إلى اتخاذ احتياطات أمنية وبناء منشآت عسكرية وتحصينات دفاعية لتضمن لها الحماية والاستمرار، وقد تمثلت تلك المنشآت في عدد من الهياكل والبنايات كإحاطة المدن بالأسوار العالية المزودة ببوابات ضخمة كانت تغلق عند حدوث الخطر لتمنع العدو من الدخول إلى المدينة، كما قاموا باعتماد تقنية دفاعية أخرى تمثلت في حفر الخنادق العميقة التي كانت تملأ بالماء في حالة الحصار مما يضمن لهم عدم اقتراب خيول العدو من أسوار المدينة.

ومن بين الهياكل الدفاعية التي تم إنشاؤها هي إقامة القلاع والحصون التي كان يتم شحنها بالجنود والأسلحة والمؤونة للتزود بها أثناء فترات الحصار الطويل، وقد جعلتهم ظروف الحرب هذه يختارون أماكن بناء المدن بعناية فائقة، حيث كانوا يفضلون بناءها في أماكن تكون محصنة تحصينا طبيعيا كالجبال والأنهار أو مواجهة لساحل البحر كي تكون محمية به.

---

[1]دمينيو فاليرين: بجاية ميناء مغاربي. ترج: علاوة عمارة. الجزائر: منشورات المجلس الأعلى للغة العربية.2014م. ص-ص: 593- 594.

[2]دمينيو فاليرين: المرجع نفسه، ص:575.

[3]الإدريسي، المصدر السابق، ص: 252.

[4]أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص: 195.

ونظرا لما كانوا يتوقعونه من مخاطر يمكن أن تأتيهم من جهة البحر، فقد دفعهم هذا إلى اتخاذ تدابير دفاعية تمثلت في تكوين قوة عسكرية بحرية حيث عمدوا إلى إقامة صناعة بحرية مستخدمين أخشاب الغابات في الجبال القريبة منهم، مستغلين الموانئ التي كانت بحوزتهم كميناء المرسى الكبير بوهران وميناء بجاية وغيرها من الموانئ.

إن هذه التحصينات العسكرية والتعزيزات الدفاعية ما هي إلا دليل واضح على حرص الدول التي حكمت المغرب الأوسط على استقرار أمنها وضمان استمراريتها، كما أنه دليل أيضا على مدى التطور الحضاري الذي بلغته الكيانات السياسية التي قامت في بلاد المغرب الأوسط في مجال العمارة العسكرية، خاصة وأنها كانت تبنى بأيدي محلية، وتستخدم في صناعتها مواد أولية كانت توفرها طبيعة هذا البلد.

الفصل الرابع

العمارة المدنية في المغرب الأوسط مابين القرن 5-9هـ/ 11-15م

المبحث الأول: العمارة المدنية للقصور والأحياء

1- القصور.
2- الأحياء

المبحث الثاني: العمارة الاقتصادية للأسواق والفنادق والحمامات

1- الأسواق.
2- الفنادق.
3- الحمامات.

إن بروز المدن كحواضر تاريخية في البلاد الإسلامية عامة وبلاد المغرب الأوسط خاصة لم يكن وليد الصدفة، بل تضافرت عدة جهود في ذلك، أو بالأحرى تتوفر البلاد على ثروة بشرية ذات مميزات خاصة قابلة وبقوة للمضي قدماً في سبيل تحقيق التطور والتحضر، وكان أساس هذه الثروة هو تعاليم الدين الإسلامي في كل المجالات.

أما عن بلاد المغرب الأوسط فهي جزء لا يتجزأ من بلاد المغرب الإسلامي، والمقصود من ذلك أن جميع المؤثرات التي عرفتها بلاد المغرب الإسلامي، شملت كذلك المغرب الأوسط، حيث ظهرت حواضر شدت إليها الرحال، وتمكنت من أن تتبوأ مكانة هامة على جميع الأصعدة، لكن دراستنا للموضوع تتوقف على حواضر المغرب الأوسط من القرن 5-9هـ/11-15م، وركزنا في الدراسة على مصطلح الحاضرة، لذا كان البحث حول الناصرية (بجاية)، وتلمسان الزيانية، من حيث الجانب المعماري، كما يمكننا في بعض الأحوال أن نعرج على أهم المظاهر الحضارية في مدن المغرب الأوسط، وذلك محاولة لإعطاء فكرة شمولية على واقع العمارة في بلاد المغرب الأوسط. فما مدى تمكن العمارة المدنية من تلبية الحاجيات الخاصة والعامة لسكان بلاد المغرب الأوسط؟ وما هي أهم مظاهرها؟

المبحث الأول: العمارة المدنية للقصور والأحياء:

1-القصور:

تعد القصور من بين أهم المظاهر المعمارية التي تمتاز بها أي حاضرة، ولعل شغف الأمراء في تخليد أسمائهم، أو تبيان مدى بلوغ المجد والحضارة نجدهم يهتمون بالعمارة خاصة القصور منها، كذلك في بلاد المغرب الأوسط خاصة لدى حاضرة بنو حماد (بجاية) وحاضرة بنو زيان (تلمسان) نجد ذلك الشغف مترجماً في سروح فاقت الجمال في مظهرها ومتانتها، ومن تلك القصور ما نقدمه على نحوه التاريخي بدون التفصيل الدقيق.

لقد تمتعت الحاضرتين بقدر من الكتابات، ولكن ما يميزها هو ذلك الازدواج في لعب دور العاصمة لكل من القلعة ثم بجاية، فحضي كل من الطرفين بعمارة هامة ميزتها تلك القصور والتي منها:

1.1. قصور القلعة:

مدينة القلعة يذكرها الإدريسي« من أكبر البلاد قطراً وخيراً وأسعها وأحسنها قصوراً ومساكناً»[1]،كما نجد في هذا الصدد وصف القلعة للحسن الوزانبقوله: « هي كبيرة متينة

[1]الإدريسي، المصدر السابق، ص: 167.

الجدران مزخرفة بالفسيفساء والجص المجزع والخشب المنقوش المزدان بألوان اللازورد العجيبة»[1]،وقد اكتشف علماء الآثار مؤسسات قام بتشييدها ملوك بني حماد منها:

أ.دار البحر:

والذي بينه وبين المسجد مائة وخمسون متراً من الجهة الجنوبية، وفي شرقه يقع قصر المنار والذي يحيط به حوضين[2]، فقبل أن يؤسس الناصر بجاية زين مسجد القلعة، وبني غير بعيد من المدينة قصوراً أخرى[3]، وإلى الجانب من ذلك قصر البحر،كما يعرف على القصر أنه تعاون كل من الناصر والمنصور في إنشاءه[4]، وما يميز هذا القصر أن جميع قاعات الجناح الشرقي موجهة من الجنوب إلى الشمال ومفتوحة نحو الغرب[5]، كان يضم في مقدمته الشرقية الحامية، ومكتب الحاجب، ودار العدل أو القضاء، ويوازي هذه البناية بنايات أخرى للاستقبالات الرسمية تشتمل على قاعات، وبداخل القصر بركة كبرى، تحيط بها القاعات والرواقات وتلعب بهذه البركة الزواق، والقصر ملئ بالرخام، ويتبع هذا القصر الأمامي الشرقي منزل الأمراء، وكان يشتمل على بيوت عديدة وقاعات كثيرة مزينة بنقوش جميلة[6].

ب.قصر المنار:

يشتمل على عدة مباني متلاصقة بعضها ببعض منها الجنوبية ومنها الشمالية، أما المباني الجنوبية فتنقسم إلى عدة أقسام: القسم الأوسط والقسم الشرقي والقسم الغربي[7]، وجدت في القلعة قصور أخرى كثيرة أقيمت منذ استقرار حماد بالقلعة، ومن بينها القصر المنسوب إلى حماد نفسه " قصر حماد" والقصران المنسوبان إلى المنصور " قصر السلام" و" قصر الكوكب"[8].

ج.قصر الكوكب:

يوجد هذا القصر بين قصر السلام[9] وقصر البحر[10]، وحسب رشيد بورويبة على ما جاء في مخطوط البجاوي أن المنصور بنى القصر الذي يوجد فيه عرشه، وهو المعروف

---

[1]الحسن الوزان، المصدر السابق، ص: 50

[2]رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص: 272

[3]محمد الطمار، المرجع السابق، ص: 169.

[4]عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص 276.

[5]رشيد بورويبة، المرجع السابق ، ص: 269.

[6]عبد الحليم عويس، المرجع السابق ، ص 276.

[7]رشيد بورويبة، المرجع السابق ، ص- ص: 251-252.

[8]عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص-ص: 277-178.

[9]ما يميز هذا القصر أن له قسمان قسم علوي، وقسم سفلي، وله سور من الحجر مربع محصن في زواياه الأربعة ببروج، تشبه القصور التي شيدها الأمويين في الشام. ينظر: رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص: 270

[10]رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص:270.

بقصر الكوكب، وهذا القصر من أجمل قصور العالم، فهو بناء عال مزين بتصاوير مرسومة بحجر الرنج، ونبات اسمه الرجق يدقان معا ويزينون الجدران بهما بعد دقهما، ويلمع هذا القصر مثل أشعة الشمس، فكان له تسعة أبواب ذات مصراعين من الخشب المنقوش لا يفتح كل واحد منهما إلا دفعة عدة رجال أقوياء[1]، وموقع القصر في الناحية الغربية وبالضبط في المكان الذي بني فيه فيما بعد البرج الأمير الي الاسباني، وقد كان مقر للسلطان الحفصي المخلوع سنة681هـ/1283م[2]، وكذلك يورد رشيد بورويبة عن هذا القصر حسب فيرو" أنه كان يشغل مكان برج موسى الذي أسسه الإسباني بيدرو نافارو في القرن السادس، ولكن حسب البجاوي كان يقع بين القصبة وبرج موسى، وقصر أميمون[3].

هو الذي كان في برج موسى[4]، ومن المحتمل أن عديداً من القصور قد أقيمت في فترة تصدر القلعة كعاصمة أولى على عهد القائد بن حماد، وبلكين[5].

2.1.قصور بجاية:

مدينة بجاية عتيقة بناها الرومان في سفح جبل شاهق على ساحل البحر الأبيض المتوسط تحيط بها أسوار عالية، وتناهز كوانينها ثمانية آلاف في القسم المسكون منها[6]، تفيد الدارسات إلى أنه يوجد تشابه كبير بين قصبة بجاية وقصبة قلعة بني حماد التي تتشكل من مجموعة من القصور في أعالي المدينة عند سفح جبل[7]، وقد كان بنو حماد ولا سيما المنصور قد جهزوا بجاية بقصور فخمة أشاد الشعراء ببذخها وبهجتها[8]، ومن المباني التي شيدها الأمير الحمادي يحي بن العزيز منها: قصر بجيجل، وداران أحدهما بتاكلات على الطريق التي تؤدي من بجاية إلى قلعة بني حماد والثانية بمرسى الدجاج، وبجانب القصور والدارين التي سبق ذكرهما فقد ترك بنو حماد جباب وصهاريج وجسور[9]، ومن أهم قصور بجاية الحمادية:

أ.قصر اللؤلؤة:

---

[1]رشيد بورويبة، المرجع السابق ، ص- ص: 245-246.

[2]روباربرنشفيك، المرجع السابق، ص: 51.

[3]يعد قصر أميمون كذلك من القصور الأميرية ببجاية، وقد شيده الأمير المنصور ليصبح مقراً ادارياً لحكمة بداية من عام 484هـ/ 1091م بدما ترك قلعة بني حماد التي تحتوي على البلاط الحمادي لمدة أربعة وثمانين سنة، بالرغم من غياب معطيات أثرية قطعية، فإنه بالإمكان تحديد تواجد هذا القصر بحصن موسى الحال، ضمن مجموعة من المنشآت الميرية داخل قصبة بجاية في الفترة الوسيطية، ويجاوره في نفس القصبة قصر الملك، الذي وصفه الشاعر ابن حمديس الصقلي ت 527هـ/1133م في قصيدتين . ينظر: علاوة عمارة، المرجع السابق، صك 237

[4]رشيد بورويبة، المرجع السابق، ص: 246.

[5]عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص-ص: 277-178.

[6]الحسن الوزان، المصدر السابق، ص: 50.

[7]علاوة عمارة، المرجع السابق، ص: 239.

[8]روباربرونشفيك، المرجع السابق، ص-ص: 413.

[9] رشيد بورويبة، المرجع السابق ، ص: 271.

يعد هذا القصر من بين أهم القصور التي بناها الحماديون كما تناقلته الكتب التاريخية بشكل من التفصيل، ويعود تأسيسه إلى الفترة التي أكمل فيها الناصر اختطاطه للناصرية بجاية، فبني قصر اللؤلؤة، ونقل الناس إليها سنة 461هـ/1068م[1]، وقد كان القصر « من أعجب قصور الدنيا»[2]،والذي بني سنة 470هـ/1077م، ويبدو أنه كان ببجاية أكثر من قصر يضمها سور[3]، يذكره صاحب الاستبصار بأنه « لم يرى الراءون أحسن منها بناءا ولا أنزه موضعاً فيه طاقات مشرفة على البحر عليها شبابيك الحديد والأبواب المخرمة المحنية، والمجالس المقرنصة المبنية حيطانها بالرخام الأبيض من أعلاها إلى أسفلها؛ قد نقشت أحسن نقش وزينت بالذهب واللازورد، وقد كتب فيها الكتابات المحسنة، وصورت فيها الصور الحسنة، فجاءت في أحسن القصور وأتمها منتزها وجمالاً»[4]، من خلال هذا الوصف الذي قدمه صاحب الاستبصار يتضح جليا ذلك الاهتمام البالغ في كل حيثيات التشييد والبناء وإخراج هذا السرح على أفضل وجه.

وكما ذكرنا أن الناصر شجع الناس على الالتحاق بالناصرية، فقام بإسقاط الخراج على ساكنيها، وكان الانتقال إليها سنة 461هـ/ 1068م[5]، وقد أقيم القصر في الناحية الشرقية فوق قمة بريجة العليا[6]، وذكر ابن خلدون أن الناصر هو الذي بنى قصر اللؤلؤة، أما إبنه المنصور فقد كان هو الآخر « مولعا بالبناء والتشيد»[7] فقد نزل بجاية سنة 483هـ/ 1090م، « وجدد قصورها وشيد جامعها»[8]، وقام المنصور ببناء قصر بلارة نسبة إلى عروسه بلارة بنت تميم بن المعز[9]، كما نجد ابن خلدون يذكر أنا المنصور « بنى في القلعة قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السلام، وفي بجاية قصر اللؤلؤة وقصر أميمون»[10]،القصد من قوله انه بنى قصر اللؤلؤة فهو إما يرجع ذلك إلى إعادة التجديد في القصر وما زاده من تحسينات فيه، وأثناء إنجاز هذا القصر عثر العمال في خرائب إحدى الكنائس المسيحية القديمة على عمودين أحادي الحجر من حجارة نادرة جداً، ومن المؤكد أن "البابا" عندما علم بخبرهما اقترح شرائهما بمبلغ كبير، لكن المنصور رفض العرض مفضلاً استعمالهما في زخرفة قصر اللؤلؤة، وقد أكد كل الذين رأوا هذين العمودين أنهم لم يروا مثلهما في أية جهة من العالم[11].

---

[1]محمد بن عميرة، ولطيفة بن عميرة، المرجع السابق، ص-ص: 41- 42.
[2]ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص: 174.
[3]عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص: 278.
[4]مؤلف مجهول، الاستبصار، المصدر السابق، ص: 130
[5]ابن خلدون، المصدر السابق ، ص: 174.
[6]روبار برونشفيك، المرجع السابق، ص: 414.
[7]ابن خلدون، المصدر السابق ، ص: 232.
[8]ابن خلدون، المصدر نفسه، ص: 232.
[9]عبد الحليم عويس، المرجع السابق ، ص: 278.
[10]ابن خلدون، المصدر السابق، ص: 232.
[11]محمد بن عميرة ولطفية بن عميرة، المرجع السابق، ص: 83

حتى أن الإسبان لما احتلوا بجاية قاموا بهدم كل المباني إلا قصر اللؤلؤة فقد حافظوا عليه هو وحده، مقتصرين على تهديم البرج الذي كان يعلوه[1]، فقد كانت له أواخر القرن 12م نوافذ مشبكة وأبواب مزخرفة، وكانت بقاعاته جدران مكسوة بالمرمر المذهب، وله نقوش ورسوم زيتية حائطية، حافظ عليها الإسبان عندما احتلوا بجاية واكتفوا بتهديم البرج الذي يعلوه، واستعمل في أواخر ق10هـ/16م مقراً للحكومة التركية[2].

ويمكن الإشارة إلى أن الولاة الحماديون لم يكتفوا بالقصور الموروثة بل هيأوا رياضين بديعين متقابلين على ضفة نهر السّمام، وهما: القصر الرفيع في الناحية الشرقية، الذي هو عبارة عن روضة فناء ملاصقة للسور الغربي من المدينة في أسفل قصر الكوكب والقصبة[3]، أقام فيه السلطان أبو إسحاق سنة 681هـ/1283م، ولد لفت نظر الرحالة خالد البلوي منتصف القرن 8هـ/14م، وبقي القصر الرفيع محفوظاً على أحسن وجه في بداية القرن 10هـ/16م، أما القصر البديع فقد كان في الناحية الغربية، وقد قام لاحقاً الوالي الموحدي أبو الربيع حفيد عبد المؤمن بترميمهما، ولكن نهب القصر البديع سنة 701هـ/1302م، بأمر من الأمير المريني الذي غضب لعدم تمكنه من بجاية[4].

3.1.تلمسان: يتحدث عنها الحسن الوزان في عصره بقوله: « لا يوجد بهذه المملكة إلا القليل من المدن والقصور،غير أن الأماكن بها زاهرة والبقعة خصبة»[5]

أ.القصر الملكي:

ويسمى قصر المشور؛ والمشور كلمة تعني "قاعة المجلس"[6]، وهو من بين القصور التي ذاع صيتها في حاضرة تلمسان، ويقع القصر الملكي جنوب المدينة وهو محاط بأسوار مرتفعة إلى حد كبير على شكل قلعة، ويضم قصوراً أخرى صغيرة بساتينها وسقايتها وكلها مبنية بكامل العناية، وبأسلوب رائع، وللقصر الملكي بابان يفضي أحدهما إلى البادية اتجاه الجبل، والأخر إلى قلب المدينة[7]. شيده السلطان يغمراسن (633ه/1236م) في أواسط القرن 7هـ/ 13م[8]، اتخذه أمراء بني زيان مقراً رسمياً لإقامتهم، وإقامة خلفائهم من بعدهم، أنزل به

[1] روباربرونشفيك، المرجع السابق، ص: 414.
[2] محمد بن عميرة ولطيفة بن عميرة، المرجع السابق ، ص: 51.
[3] روباربروننشفيك، المرجع السابق ، ص: 416.
[4] محمد بن عميرة ولطيفة بن عميرة، المرجع السابق، ص: 52.
[5] الحسن الوزان، المصدر السابق، ص: 10
[6] وليام وجورج مارسي: المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان، ترجمة: مراد بلعيد، وعلي محمد بورويبة وفلة عبد مزيان، ط1 ،الأصالة للنشر، الجزائر، 2011، ص: 154.
[7] الحسن الوزان، المصدر السابق، ص: 20.
[8] محمد بن رمضان شاوش، المرجع السابق، ص: 61.

يغمراسن الحاشية والحشم، ورجال الدولة، وكان يستقبل فيه الأمراء والسفراء الأجانب، وفي قاعته تنظم حفلات الاستقبال[1].

ب.قصر إيسلي:

وهو قصر قديم شيده الأفارقة في سهل يحاذي القفر السابق، وتحيط به بعض الأراضي التي يزرع فيها الشعير، وكان كثير السكان ومحاطاً بأسوار متينة دمرت أثناء الحروب، ولا يشتمل القصر إلا على أكواخ ذات أكواخ من الطين، ويمر به جدول ماء يسقي المزروعات[2].

ج.قصر تمزيزدكت:

وهو قصر واقع في الحد بين هذا القفر وبلاد تلمسان، شيد قديماً على صخرة، وكان ملوك تلمسان يجعلونه في حالة تأهب دفاعي لحراسة أماكن لمرور جنود ملك فاس، ويسيل في سفحه نهر التافنة، كما كان موضع صيانة تامة، أما الآن وقد وقع في أيدي الأعراب فإنه أصبح شبه إسطبل[3].

لقد شيد أمراء الدولة الحمادية وتلمسان الزيانية قصورا وصروحا ناطقة باسم الحضارة مميزة للذهنية والشغف الفني الذي كان عليه الإنسان في ذلك العصر خاصة أمراء الدولة الحمادية، فنجدهم من الوهلة الأولى عندما كانت العاصمة هي القلعة يتفننون في تشيد القصور، ولكن نتيجة دخول المغرب الأوسط في حقب لاحقة أكثر تدهورا متمثلة في الاحتلال خاصة الاسباني والفرنسي فإن كثيرا من تلك المعالم تم طمسها وتهديمها لغرض أو لأخر.

4.1 قصور سدراتة:

تشغل عمائر سدراتة المنطقة الواقعة بين ربوتين متقابلتين حيث تقع الأولى في الموقع الأثري الشمالي، بينما تتواجد الثانية في القسم الغربي، تربط بين الربوتين شبكة من الطرق وعدد من المزارع تتخللها سواقي مائية[4].

ولقدتم الكشف عن قصرين يتماثلان من حيث التصميم العام، غير أنهما يختلفان من حيث التفاصيل الدقيقة.

1 .**القصر الملكي (قصر الإمام):**

[1]عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص: 114.

[2]الحسن الوزان، المصدر السابق ، ص: 21

[3]الحسن الوزان، المصدر السابق ، ص- ص: 11-12

[4].Marguerite Van Berchem (2017), Le site archéologique, in Sedrata Histoire et archéologie d'un carrefour du Sahara médiéval à la lumière des archives inédites de Marguerite van Berchem, Collection de la Casa de Velázquez n° 161, Madrid, p: 180, 183, 184, 196.

يقع القصر الملكي في الربوة الشمالية، واصطلح على تسميته بقصر الإمام[1]، بينما تتميز الربوة الغربية بوجود عدد من المعالم وهو ما يدل ربما على الكثافة العمرانية في هذه المنطقة، أو أنها مثلت النواه الأولى للمدينة التي أخذت في التوسع شرقا حيث تقل العمائر المكتشفة فيما عدا بيت محصن يعتقد بأنه عبارة عن قصر خاص، لاسيما وأنه يتواجد بمنأى عن بقية العمائر من جهة، ومتوسطا للمزارع والبساتين من جهة ثانية وهي السمة التي اقترنت بالقصور الإسلامية[2]، وعلى بعد حوالي عشرين مترا من هذا المنزل، تتجمع عدد من السواقي الرئيسية التي تسقي المزارع المتواجدة شرقا، ثم تمتد شمالا نحو ورقلة، وشرقا نحو رويسات، وجنوبا نحو كريمة.[3]

أما في شماله فتتواجد الغرفة "ب" ذات الشكل المستطيل، وتضم هذه الغرفة سبع حنيات،[4]وإلى الغرب من الغرفة السابقة "الثانية" تقع الغرفة "الثالثة"، وهي عبارة عن غرفة مربعة الشكل، تتكون واجهاتها من أربع أقواس دائرية تحمل قبوا متقاطعا بحيث يكون الشمالي والشرقي مصمتان أما الغربي والجنوبي فعبارة عن مدخلين يفضي الأول إلى غرفة مجاورة بينما يطل الثاني على الفناء، وأما في الجهة الغربية من الفناء فقد فتح عقدين متشابهين يفضيان إلى غرفة مربعة، تمتد إلى الغرب منها غرف وأروقة أخرى.[5]

2.عمارة الأحياء:

1.2. أحياء القلعة وبجاية:

يمكن القول أن صعوبة التطرق للعمارة تكمن في معالجة "عمارة الأحياء" وذلك لأن الأحياء في كثير من الأحيان يسهل طمسها، ورغم أن المدن الحضارية يكون فيها تخطيط معماري لشكل المدينة بما فيها الأحياء، حيث أن معظمها يتم تشييدها من طرف العامة، وكثير من هؤلاء يشكلون الفئة المتوسطة كالتجار والحرفيين وغيرهم؛ والقصد من هذا القول أن مباني تلك الأحياء سهلة الاندثار بفعل عوامل إما طبيعية أو إنسانية؛ ويبقى الدليل الذي يتضمن التفصيل في تلك الأحياء قليل مقارنة بعمارة أخرى تكشف عليها علوم مساعدة كعلم الآثار، لكن تبقى كتب الرحالة أو الجغرافيين متضمنة لمادة علمية تعالج بعض جوانب تلك العمارة.

---

1 .Idem (1965), Le Palais de Sedrata dans le désertsaharien, in stadies, in islamic art and architecture in honour of professor K.A.C.creswell, Amirican university in Cairo, Cairo, p:27, 28.

2.Idem (2017), Maisons privées, in Sedrata Histoire et archéologie, op.cit, 2017, p:296, 298.

3.Idem (1954), Sedrata un chapitre nouveau de l'histoire de l'art musulman, compagne de 1951 et 1952, Ars orientalis, vol: 01, p:160-161.

4.Ibid, p :19, 22, 26.

5.Ibid, p :16, 18, 22.

بالرجوع إلى القلعة العاصمة الأولى للدولة الحمادية نجد أنها ذلك التخطيط الذي ميز الأحياء، فقد كانت زاخرة بالسكان، والأسواق المكتظة بالتجار، وهذه الأحياء تحيط بالمسجد الواقع وسط المدينة، وكان يخترق المدينة شارع يمتد من باب الجنان إلى باب الأقواس[1].

أما في بجاية بعد اختطاطها فيبدو أن معظم أحيائها أرستقراطية خاصة التي كانت تقام في داخل مدينة بجاية وتسكنها الطبقة الحاكمة، وأتبعاها ويبدو كذلك أن أحياء خاصة كانت تقام للجاليات الأجنبية والمسيحية واليهودية[2]، وقد تجزأت بجاية إلى واحد وعشرين حياً يضم من السكان ما يزيد عن مائة ألف نسمة، وكان كل حي يسمى باسم الباب المحاذي له أو باسم مؤسسة قريبة منه، فيقال: حومة باب البحر التي اشتهرت ببيع الخمور فيها، وحومة باب أميسون، وحومة باب باطمة حيث تقع دار المقديسي المسماة بدار الفقيه هلال، وحومة اللؤلؤة القريبة من قصر اللؤلؤة، وحومة المذبح حيث كان القراصنة يبيعون الأسرى ويؤدون الخمس من الأرباح للخزينة السلطانية، وحومة الساباط الأموي، وحارة المقدسي التي كان الوصول إليها يحتاج إلى تسلق منحدر، وحومة رابطة المتمني، وحومة بئر مسفرة الخارج من باب البنود[3]، وخارج باب البنود يوجد بئر مسفرة، كما أن حي الرباطات كان يوجد خارج المدينة[4]، كما تعتبر قصبة بجاية حيا من أحياء الدولة الحمادية خلال القرن 5هـ/11م ضمن الأحياء الواحد والعشرون التي كانت تحتفظ بها المدينة، ثم بقدوم الحملة الموحدية تحولت إلى قصبة، وهي مقر حكم لدى الموحدين[5].

كما أن الأكيد أنه في تلك الأحياء كانت توجد مساجد لكن لا يمكن تحديد موقعا كمسجد الريحانة، ولا موقع مسجد الإمام المهدي الذي كان ابن تومرت ينشر فيه أفكاره الذي يقع في حارة ملالة حيث بنى أبناء العزيز هذا المسجد، كما أنه لا يمكن تحديد موقع مسجد النطائين الموجود في تلك الأحياء[6]، ويذكر روبار برونشفيك أنه يجهل كل شيء عن حي الأعمال حيث كانت تزدهر فيه التجارة والصناعة[7].

2.2.أحياء تلمسان:

[1]محمد الطمار، المرجع السابق، ص: 169.
[2]عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص: 275.
[3]عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص: 247. ومحمد الطمار، المرجع السابق، ص: 158. روبار برونشفيك، المرجع السابق، ص: 414. محمد بن عميرة ولطيفة بن عميرة، المرجع السابق، ص: 64
[4]روبار برونشفيك، المرجع السابق، ص: 415.
5مرزوق عبد الكريم، المرجع السابق، ص: 78
[6]روبار برونشفيك، المرجع السابق ، ص: 415. محمد بن عميرة ولطيفة بن عميرة، المرجع السابق ، ص:- ص: 62-63.
[7]روبار برنشفيك، المرجع السابق، ص: 416.

تأثرت بلاد الغرب الإسلامي بنفس المؤثرات الحضارية، لذا نجد أن نمط البناء والتشييد في كل من المغرب الأدنى والأوسط والمغرب الأقصى والأندلس متشابه إلى حد كبير، فهي تخضع لضوابط الحضارة الإسلامية[1].

ويمن القول أن تشييد المنازل التلمسانية كان وفق المستوى المعيشي للعامة، فهي بذلك متفاوتة من حيث المظهر[2]، حيث أن تلك المساكن كانت متلاصقة، وذلك ليكون السور محاطاً بها، وتخترقها أزقة تؤدي إلى الساحة العامة، كما كان المنزل يتكون من عدة غرف، أما خارجياً فكانت تطلى جدرانه بالطين المخلوط بالجير[3]، ولقد اشتهرت دروب تلمسان بالأبواب الفاصلة بينها وبين الشوراع العامة[4].

تشتمل مدينة تلمسان على عدة أحياء أو حومات، تقطنها طبقات اجتماعية مختلفة غنية ومتوسطة الحال، ومن بين هذه الأحياء :

حومة المطمر: تقع هذه الحومة في غرب المدينة، وتضم مخازن ومطامير عديدة، معدة لخزن المؤن والسلع من قمح وشعير وملح ولحم مدخرة معروفة بالمسيلي، وكانت هذه الحومة تحتوي على مساكن كثيرة، فقد قام السلطان أبو حمو الأول ببناء مدرسة لسكان هذا الحي، وبنى دارين بالقرب منهما لابني الإمام المدرسين بها، أما المناطق السكنية الأخرى، فتقع في الأحياء الصناعية والتجارية، مثل حي الفخارين في الركن الشمالي الغربي لتلمسان العليا، وحي القيصارية الذي يقع غرب المشور[5].

حومة باب علي: وتقع في الركن الشمالي الشرقي لتلمسان، وفي غربها حومة عبد الجبار، وفي شرقها حومة باب زيري، وتقع الرحيبية مابين باب زيري في الشمال، وباب الجياد في الجنوب، وحي باب إيلان، وفي غرب المشور ولا يبعد عنه كثيراً في اتجاه باب كشوط.

حومة اليهود: تقع في وسط المدينة، حيث توجد أسواق الصباغة، وهي الحومة الأكثر كثافة للسكان، حيث كانت تضم نحو خمسمائة دار لليهود كلهم تقريباً ينتمون إلى الطبقة الغنية، وتقع حارة الرماة في أخر السكة الرابعة، التي تعرف بابن حجاف، وكان يقطن

[1]درويش بريشي: تطور المسكن الإسلامي في مدينة تلمسان دراسة فنية أثرية، مذكرة ماجيستر، تلمسان، 2011-2012م، ص: 47.
[2]عبد العزيز فيلالي، المرجع السايق، ص: 48.
[3]خالد بلعربي، المرجع السابق، ص: 347
[4]ابن مرزوق الخطيب: المناقب المرزوقية- تح: سلوى الزاهري، الدار البيضاء، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2008، ص: 158.
[5]عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص، ص: 122.

هذه الحارة، العلامة الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي ت 680هـ، وهو جد مرزوق لأمه[1].

وقد كان لتلمسان سكك كبيرة، تربط الأبواب الرئيسية تتفرع منها دروب أخرى تصل إلى الحومات والأحياء، نتيجة المباني الكبيرة التي تدور حولها، والشوارع الرئيسية كانت تمتد أفقياً وعمودياً، ومن بين هذه الدروب ما يلي:

درب شاكر: يعد هذا الدرب من الدروب المشهورة في مدينة تلمسان، يقطنه العالم التاجر أبا زيد صاحب مصانع الصوف، ويمتلك فيه حوانيت وتربيعات ومنازل عديدة، له ولأبنائه وعماله وخدامه، ويتفرع من هذا الدرب الكبير، درب صغير توجد به منازل خاصة لأبي زيد جعلها لبنيه وبناته، ولقد اشتهر هذا الدرب بثلاثة منازل كبيرة: الدار الكبيرة، ودار الإنجاصة، والدار الجديدة، وهي جميعا ملك للفقيه المذكور[2].

درب مرسى الطلبة: ويحتوى هذا الدرب على عدة منازل وحوانيت وكتاب لتعليم الأطفال ومسجد، يقطنه آل مرزوق، ويملكون فيه عقارات كثيرة[3].

كما يوجد درب مسوفة الذي يقع بتلمسان العليا، ودرب ابن الذيب الذي هو عبارة عن درب صغير مغلق، الذي يقع ظهر سجن السراجين، وكذلك هناك درب خاص باليهود، أما عن زنقة المشور فهي تقع بالقرب من قصر المشور بتلمسان العليا، وكانت تقطن هذه الدروب والأزقة شرائح اجتماعية متباينة من ميسورين ومتوسطي الحال وفقراء، كما يمكن الإشارة إلى أن مدينة تلمسان تتضمن أحياء أخرى يسكنها الجند والحراس وعائلاتهم، والقائمون بخدمة الدولة وحمايتها، ولعلها كانت قريبة من دار السلطان[4].

3.2. الأحياء والبيوت في سدراتة:

يلفت الانتباه في هذا الصدد هو التصميم المعماري المتباين بين منازل الجهتين الشرقية والغربية، بحيث تتميز المساكن الغربية بشكلها المستطيل غير المنتظم، يمتد وبالموازاة مع إحدى واجهتيه الطولية رواق ينتهي بمدخل يفضي إلى فناء مركزي في طرفيه غرف طويلة وضيقة ذات إيوانين تتصل به بواسطة رواق ذي بوائك، وبالرغم من أن القسمين الناتجين متناظرين من حيث التصميم فهما مختلفين من حيث الوظيفة، فقد استعمل أحدهما على ما يبدو كمخزن نظرا لاحتوائه على مطامر وسطح منخفض يتم الصعود إليه بواسطة سلم.

أما المعلم الشرقي وبالإضافة إلى موقعه وسط البساتين وإحاطته بسور مدعم ببرج للمراقبة، فإن توزيع غرفه وأبعادها مختلف تماما عما هو موجود في معالم الجهة الغربية، بحيث يختفي مبدأ التناظر في توزيع الغرف على الفناء، وتبدو محيطة به تتقدمها بوائك

[1] عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق ، ص: 123.
[2] عبد العزيز فيلالي، المرجع نفسه، ص: 124.
[3] عبد العزيز فيلالي، المرجع نفسه، ص: 124.
[4] عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق ، ص: 125.

تستدير باستدارته، ولا يضبط الغرف تخطيط موحد وقد يدل ذلك على الوظائف المختلفة المنوطة بها، وهو ما نلمسه أيضا في تخطيط القصر الشمالي بالرغم من الاختلاف في التفاصيل الدقيقة.

كما يمكن أن نقدم أنموذج واضحاً من البيوت التي كانت بالمنطقة ويتجسد هذا الأنموذج في المعلم الموصوف بالبيت المحصن المتواجد في الجهة الشرقية من الربوة الغربية، وبالتحديد على بعد 50م من السور الممتد في جهته الغربية، قوام هذا الأخير مجموعة من الغرف المحيطة بفناء مستطيل الشكل، يفضي أحد المداخل المتواجدة في شماله إلى الغرفة "أ" الممتدة في شكل مستطيل من الشرق إلى الغرب بمسافة تقدر بـ 8م، ومن الشمال إلى الجنوب بمسافة 2.10م، ينقسم فضاءها الداخلي إلى إيوانين طرفيين يرتفعان عن مستوى أرضية الغرفة بمستوى درجة، يحد كل منهما عقد نصف دائري محمول على عمودين أسطوانيين الشكل، بالإضافة إلى إيوان أوسط يغور في جدارها الشمالي يكون بدوره مرتفعا عن وسط الغرفة (الصورة رقم: 07).[1]

أما نظام التسقيف المعتم في هذه الغرفة، فهو عبارة عن قبو مهداوي محمول على حنيات ركنية صدفية تشغل الأركان العلوية الأربعة على شاكله الغرفة "أ" الموصفة في الأنموذج السابق.[2]

ويبدو أن النمط المعماري الذي خصت به المعالم المتواجدة بمعزل عن وسط المدينة ارتبط بالطبقة الأكثر ثراء أو ربما أنشأت معالمه من أجل الطبقة الحاكمة، وقد يدعم هذا الرأي الزخارف الجصية الجدارية التي كشف عنها المنقبون[3]، وهو ما نلحظ غيابه في المعالم السابقة، غير أن تباين الأبعاد بين المعلمين وموضعهما يجعلنا نعتقد باختلاف وظيفتيهما.

تعد النظم المعمارية السابقة، والمعتمدة في تشييد مدينة سدراتة، مصدرا مهما لدراسة الخصوصيات المعمارية والفنية لعمارة المدن في منطقة الصحراء الشرقية خلال الفترة الممتدة ما بين القرنين (4-4هـ/ 11-13م)، ويتعلق الأمر باختيار موقع المدينة بالدرجة الأولى، وتوظيف المهارات المعمارية والفنية بالدرجة الثانية، فأما موقع المدينة، فيتوافق مع شروط بناء المدن الإسلامية، التي يراعى فيها المنعة الأمنية، وهو ما نلمسه في التحصين بسلسة القارات، والخصوصيات الحضارية والذي يرتبط بوفرة المياه الجوفية، وأما المهارات المعمارية والفنية فتتجسد في الحيل المعمارية المعتمدة في تصميم الغرف وتوزيعها على الفناء وفق نمطين متباينين، يبدو أن أحدهما كان خاصا بالطبقة الأكثر ثراء في المدينة، لا سيما وأن واجهاتها الداخلية زينت بزخارف جصية ذات ميزة خاصة، وبالإضافة إلى ذلك كله فإن الصبغة المعمارية التي اكتسبتها تلك العمائر مستمدة من ظروف البيئة المحيطة وهو ما نلحظه جليا في استغلال الحجر الكلس ـ المتوفر في المنطقة ـ من أجل استخلاص مادة التيمشنت المستعملة في البناء والتنميق على حد سواء.

المبحث الثاني: العمارة الاقتصادية للأسواق والفنادق والحمامات:

1- الأسواق:

---

[1] . Idem (1954), Sedrata un chapitre nouveau, op.cit, p:165.

[2] .Ibid, p:165.

إن المتعارف عليه البلاد الإسلامية أنها منذ نشأتها كانت مندمجة مع المناخ والطبيعة، وقد ارتبطت ظاهرة تسقيف الشوارع التي تضم الأسواق على جانبيها بحماية نوعية معينة من السلع كالحرير وغيره من الأقمشة، وانتشرت هذه الظاهرة في كثير من المدن الإسلامية، وعرفت بالسقائف واختلفت أساليب تغطية الشوراع التجارية باختلاف المناخ ومواد البناء[1].

1.1. أسواق بجاية:

من الملاحظ أن الحماديين اهتموا في تخطيطهم للمدن بتخصيص أماكن للأسواق[2]، ساعدت عدة عوامل في تشكيل فضاء اقتصادي، حيث أن السلطة الحمادية ساهمت في إرساء مؤسسات صناعية وتجارية خصوصاً دار صناعة السفن والعامل الثاني تتمثل في بناء الأسواق[3]، ومن أهم أسواق بجاية في العهد الحمادي سوق الصوف التي يتصور أنها في نفس سوق الصّوافين، وسوق القيسارية، وكما ذكر أن بجاية عرفت تطورا تجاريا هاماً خاصة التجارة البحرية، كانت سبباً في ثرائها، وكانت تحتوي على دارين للصناعة "ترسخانة" بهما عدة ورشات نشيطة[4]، ساهم هذا النشاط الصناعي في ازدهار التجارة وبذلك نشطت حركة الأسواق، وكذلك سوق باب البحر حيث كان ببجاية مرسى كبير، ويذكر الإدريسي نشاط أسواق بجاية فيقول: «السفن إليها مقلعة والقوافل بها منحطة والأمتعة إليها براً وبحراً مجلوبة، والبضائع بها نافعة، وأهلها مياسرة تجار يجالسون تجار المغرب الأقصى، وتجار الصحراء، وتجار المشرق، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة»[5].

2.1.أسواق تلمسان:

عرفت تلمسان حرف ومهن متنوعة ساهمت في هجرة الأندلسيين إليها، وذلك من خلال استيعاب اليد العاملة المتقنة والمتفننة في المصنوعات والعمران[6]، وكان أصحاب الحرف والمهن والصناعات بتلمسان يكسبون أموالاً كثيرة ويعيشون حياة راقية حسب ما ذكره الحسن الوزان « والصناع أناس أقوياء يعيشون في هناء ومتعة ويحبون التمتع بالحياة»[7].

وقد وجد في تلمسان مدن تجارية تتكون من أسواق متعددة تشبه المجمعات التجارية في هذه الأيام، عرفت باسم القيصرية: وهي عبارة عن مجموعة من البنايات المبنية على شكل رواق فيه محالات تجارية وورشات ومخازن وأحيانا مساكن، كما تختلف القيصرية

[1] قبيلة المالكي، المرجع السابق، ص: 193.
[2] عبد الحليم عويس، المرجع السابق، ص: 275.
[3] علاوة عمارة، المرجع السابق، ص- ص: 241-242.
[4] روبار برنشفيك، المرجع السابق، ص: 416.
[5] الإدريسي، المصدر السابق، ص: 260
[6] علوي مصطفى، المصدر السابق، ص: 209
[7] الحسن الوزان، المصدر السابق، ص: 21

عن السوق بسعتها الكبيرة لأنها تشمل عدة أروقة مغطاة حول مساحة، في حين أن السوق يشمل رواقاً واحد[1]، كما أن أصل كلمة القيصرية يوناني بمعنى قيصاريون وتدل على السوق الإمبراطوري مما يؤكد على أنها أطلقت بعد ذلك على الشارع التجاري للمدن[2]، وقد أقام السلطان أبو حمو موسى الأول قيصرية على مساحة كبيرة من الأرض لتكون السوق الرئيسية بالمدينة، ولها سور به عدة أبواب وفوقها رايات الدول التي تتعامل مع تلمسان مثل قشتالة، ويبدو أن سوق القيصرية هي نفسها سوق الصوف حسب بعض الدراسات[3]، أما التاجر بها فيتمتع بما يشبه الحصانة اليوم[4]، وقد كانت القيصرية من أهم الأسواق في الدولة الزيانية، حيث تحتوي على السلع الآتية من أوربا إلى موانئ الدولة الزيانية كوهران، والمرسى الكبير، وهنين، ومزغران، وتنس، لكن قيصرية تلمسان لم تحافظ على المكانة التي كانت ليها خلال العصر الذهبي للدولة الزيانية، فقد تأثرت بما أصاب المدينة من حروب واضطرابات داخلية[5].

إضافة إلى سوق القيصرية فقد وجدة أسواق أخرى لبضائع معينة مثل سوق الصباغة، وسوق الحدادين، والنجارين، والعشاشين، والنجارين، والمناجل، والأحبال، وآلات إعداد الصوف، سوق الكتب، سوق البزازين الذي يقول فيه الشاعر ابن حمديس:

تركتك سوق البز لا عن تهاون *** فكيف وظبي فيك سارح بارح[6]

ولقد تميزت عمارة أسواق الدولة الزيانية بالتنظيم، حيث حدد لكل جناح سلعة معينة مثل: سوق الغزل، وسوق العطارين، الجزارين إلخ، وهذا ما سهل مهمة المراقبة والحسبة وتوحيد الأسعار[7]، وكانت جميع التجارات بتملسان موزعة على مختلف الساحات والأزقة، وكانت صناعة الحديد من بين الصناعات المهمة نظراً لوفرة المواد الأولية في محيط الدولة الزيانية، فقد استخدمته في كثير من الصناعات مثل: صناعة الأسلحة التي شملت السيوف، وغيرها من أدوات القتال[8]، والأكيد أن لهذه الصناعات المتنوعة والمتقنة دور بارز في جمالية العمارة المختلفة والتي تشيدها الدولة الزيانية في تلك المرحلة.

كما عرف عن أسواق تلمسان أن لها نوعين هما: أسواق البادية وأسواق المدن أما الأخيرة فكانت أكثر تنظيما[9]، فقد عرفت الأسواق بمنتوجاتها، فمثلاً كان للعبيد سوق خاص

---

[1]بسام كامل عبد الرزاق شقدان، تلمسان في العهد الزياني، الجزائر،2007، ص-ص: 206.
[2]مختار حساني، المرجع السابق، ص: 50.
[3]محمد بن عميرة ولطيفة بن عميرة، المرجع السابق، ص: 65.
[4]شقدان بسام، المرجع السابق ، ص: 206.
[5]مختار حساني، المرجع السابق ، ص: 51.
[6]شقدان بسام، المرجع السابق، ص: 207.
[7]مختار حساني، المرجع السابق، ص: 63.
[8]إبراهيم فرغل محمد: قيساريات وأسواق مدينة تلمسان في العصر الزياني 633-962هـ/1235-1554م، مجلة كلية اللغة، العدد33، ص: 10305
[9]مختار حساني، المرجع السابق ، ص: 45.

بهم ويسمى سوق النخاسين، الذين كانوا من مختلف الأجناس كالصقالبة والسودانين وغيرهم، وعرف "بسيدي بوجمعة"، وكـان يعقد كل أربعاء، وتباع فيه أشياء مختلفة، وكما ذكر ابن مريم سوق سوق أخر عرف "بسوق منشار"الجلد، الذي تعرض لهجوم السلطان الحفصي "أبي فارس"، فكانت القذائف التي استخدمت في الهجوم تصل إلى سوق "منشار الجلد"، كما يوجد سوق خارج المدينة يعرف "بسوق الدواب" يضاف إلي هذه الأسواق سوق بندرومة الذي كان يعقد كل أسبوع[1]، كما كان سوق العطارين الذي هو خاص ببي العطور، وقد شكا العقباني والمازوني والونشريسي من كثرة توافد النساء عليه ومخالطتهن للتجار، أما سوق الغزل يقع جنوب المسجد الكبير بتلمسان حسب ما ذكر ألفريد بل، حيث يتوافد عليه النساء والرجال وتردد المرأة كان يرجع بالدرجة الأولى، إلى أنها كانت تقوم في الميدان بدور هام نتيجة للإقبال الكبير على المنسوجات من قبل التجارة الأجانب، سوق الخرازين خاص بصنع الجلود كالأحذية بالجملة، وهناك سوق عرف بسوق الجلد يضاف إلى أن أسواق تلمسان كانت مرتبطة بالحرف، فنجد سوق الحدادين والسراجين والحرازين والنخاسين والبردعين والخبازين، وكان سوق الحليب الذي توجد به مجموعة من الدكاكين[2].

وقد عرفت تلمسان بتنظيم النشاط الحرفي فخصص لكل حرفة جناح لها بالأسواق والقيصريات والفنادق، مثل سوق الوراقين، والفخارين والعطارين والصباغين والدباغين، والنجارين، والخرازين، والصفارين، والحدادين، وغيرها من الحرف[3]، وهذا التنظيم الذي عرفت به الأسواق ينعكس إيجاباً على مظهر العمارة الخاصة بالأسواق خاصة في مرحلة الرخاء التي عرفتها البلاد.

كما يجدر الإشارة إلى أن معظم الصناعات بمدينة تلمسان كانت متصلة بالأسواق وذلك لكي يكون منتوج الحرفين قريباً من مركز الأحياء السكنية، وربما بعيداً عن الأسوار، وهي الحرف التي تضر بالصحة العامة ن المواد التي تثير الغبار أو الدخان أو الروائح الكريهة أو الضجيج[4].وتقريبا تلك الصناعات المرتبطة بحرفها المتنوعة كانت تشكل نوع من الفوضى لذا كان الأصح هو ابتعاد نشاطها عن الأحياء والأسواق المتخصصة.

إن كل سوق أو حارة كان لها أمينها الخاص ينظر في كل الأمور التي تهم حاجة الناس، لكن في مرحلة ضعف الدولة الزيانية لم يبقى هذا الاهتمام فقد زال الأمن، وكذلك عرفت أسواق الدولة كثرة الفوضى، وهو ما دفع بالعقباني إلى القول أن هناك بعض التجار شيدوا دكاكين بين أيدي الحوانيت في أسواق الدولة مما يضر بالمارة، وعلى الخصوص ند جمع الأحمال، وكثرة الناس أمام هذه الدكاكين كأصحاب السلع المتوافد ونعليها لبيع وشراء

[1]مختار حساني، المرجع نفسه، ص-ص: 49-50.
[2]مختار حساني، المرجع نفسه، ص: 48.
[3]علوي مصطفى، المرجع السابق، ص: 209
[4]علوي مصطفى، المرجع نفسه، ص: 209

السلع، مما يؤدي إلى تكديسها أمام تلك الدكاكين، فيؤثر على المارة لأن الشوارع والأروقة تتميز بالضيق[1].

إن معالجة موضوع العمارة الخاصة بالأسواق يصاحبه ذكر لأهم الأسواق التي عرفتها الحواضر التاريخية لبلاد المغرب الأوسط مابين القرنين 05-09هـ/11-15م، والتي منها بجاية الحمادية، وتلمسان الزيانية، لكن يمكن القول أن قلة المادة العلمية حالت دون التفصيل في العمارة الخاصة بالأسواق، وكان الاقتصار على ذكر ما توفر من مادة علمية حول وضع الأسواق ومناطق تواجدها وكيفية تنظيمها، كما تعتبر الأسواق من المظاهر المعمارية سهلة الاندثار، وهذا العامل يحول دون الوقوف على معالمها المعمارية.

2.الفنادق:

تتوفر المدينة الحضارية على جل المرافق الضرورية الخاصة بالعامة وحتى الوافدين إلى المدينة لاعتبارات مختلفة، فنجد أن وجود الفنادق يعد ضروريا خاصة لفئة التجار، وكما تطرقنا أنفاً أن التجار في العهد الحمادي كانت لهم تسهيلات تقرها السلطة الحاكمة وذلك لتنشيط ودفع الحركة الاقتصادية في البلاد، لذا فقد لعبت الفنادق دورا هاما في دفع العجلة الحضارية في كل من بجاية وتلمسان.

وقد كانت الفنادق والخانات على طرق التجارة والترحال وهي محطات استراحة وتسويق، أما داخل المدن فإن ما يحقق حاجبات الناس فهو الأسواق[2]، التي كان يقصدها وبخاصة التجار.

1.2. فنادق بجاية:

لقد كان بالقلعة مساجد وفنادق عديدة، وقد اشتد شأنها على حساب القيروان التي قضي عليها بنو هلال، فقد جاء أهل إفريقية للاستقرار بالقلعة، فالمواد الغذائية كانت كثيرة، ورخيصة قصدتها القوافل من المشرق ومن المغرب، وكانت بلاد زرع وضرع وخصب وفلاحة[3]، أما في العهد الموحدي بنيت فنادق للتجار المسيحيين فمثلا: فنادق الجنويين كان بناءها سنة 1200م، أما للمرسلين كان سنة 1220م[4]، ويرجع سبب هذا الاهتمام هو حركة السلع وضمان توفرها من خلال الاهتمام بالتجار.

2.2. فنادق تلمسان:

[1]مختار حساني، المرجع السابق، ص- ص: 71-72.
[2]قبيلة المالكي، المرجع السابق، ص: 199.
[3]محمد الطمار، المرجع السابق، ص: 169.
[4]علاوة عمارة، المرجع السابق، ص: 242.

أما عن كلمة الفندق فهي تعني المخزن أو السوق، وهو شبيه بالخان في المشرق، وهو عبارة عن مساحة تحيط بجهاتها الأربع عمارات في طابقين أو أكثر، ويكون في دورها الأرضي مخازن للسلع ودكاكين وإسطبلات وحمامات وأفران وقاعة للمحاكمة وحانة خاصة بالتجار المقيمين في الفندق، كما يطلع على الفندق ساحات داخلية لتفريغ الحمولة وتعبئتها خصصت حجرات الطابق الأول للسكن، ويحيط بكل فندق سوق يفصله عن البنايات المنتشرة حوله، وللفندق بوابة ضخمة تغلق ليلاً تحرسها الشرطة وتراقب الأشخاص الذين يدخلون ويخرجون، ويمنعون الذين لا يحملون رخصة من القنصل[1]، وكان بتلمسان فنادق على النمط الإفريقي، ومنها اثنان لمقام تجار جنوة والبندقة[2]، وذكر الوزان أن« فنادق تلمسان كانت تشبه فنادق فاس»[3]، ويمكن إسقاط وصف فنادق فاس على فنادق تلمسان حيث قال عنها « بنيانها في غاية الإتقان بعضها فسيح جداً تتألف من ثلاث طبقات منها ما يشتمل على مائة وعشرين غرفة، ومنها ما يشمل على أكثر من ذلك، وفي كل فندق صهريج وميضأة، ولم أر قط في إيطاليا أبنية مثلها، إلا مدرسة الإسباني الموجودة في بولونية، وقصر الكردينال سان جورج في روما، وتفتح كل أبواب الغرف على ممر»[4]، وكان هذا الاهتمام بالفنادق راجع إلى طبيعة الذين كانوا يتوافدون عليها، خاصة التجار الأجانب، كما ذكر الوزان نقطة هامة حول من يسكن الفنادق فقال: « لا يسكن الغرباء وحدهم هذه الفنادق بل جميع الرجال والأرامل من أهل المدينة الدين لا منزل لهم ولا أهل لهم»[5]، ويمكن أن يكون هذا النوع من الفنادق ليس على تلك العظمة التي ذكرها الوزان حول فنادق تلمسان خاصة وأن الوافدين عليها أغلبهم من الفقراء.

لقد شيدت في كل من الحاضرتين فنادق هامة كانت محطة استراحة وسكن مؤقت للوافدين خاصة فئة التجار، وعلى حسب ما ذكره الوزان وتشبيهه لفنادق تلمسان بفنادق فاس حيث وصف تلك الفنادق بوصف يوحي بعظمة التشييد، خاصة أن المنطق ويوافق ذلك الوصف ويفرض نظرية الاهتمام بالتشييد خاصة الفنادق لاعتبارات مختلفة، منها أن المدينتين تشكل حاضرتين، والحاضرة بدورها تتوفر على كل شروط الحياة بل أكثر من ذلك فهي مقصد الوافدين إليها من تجار وطلبة علم ورحالة وغيرهم، لذا كان الفندق أو كما اصطلح عليها بالخانات هو المستقبل لهؤلاء الناس.

3. الحمامات:

تعتبر الحمامات من الضروريات التي عرفها المسلمون سواء في المشرق أو الغرب الإسلامي لما فيها من إصلاح البدن وحتى الصحة.

---

[1]بسام كامل عبد الرزاق شقدان، المرجع السابق، ص- ص: 204-205.
[2]الحسن الوزان، المصدر السابق، ص: 20
[3]الحسن الوزان، المصدر نفسه، ج1، ص: 231.
[4]الحسن الوزان، المصدر السابق ،ج1، ص: 232
[5]الحسن الوزان، المصدر نفسه،ج1، ص: 232.

وتشيد الحمامات ليست كما روج إليه أن أصلها روماني، فقد أثبتت الأبحاث التاريخية أن أول حمام كان في سوريا في الألف الثاني قبل الميلاد، والحمامات في الحضارة العربية الإسلامية قد تكون عامة، وهناك أيضاً حمامات القصور[1]، وهذا من البديهي أن لا يختلط الأمراء بالعامة خاصة في هذا الجانب، ونستشف من ذلك أن حمامات الأمراء تكون أفضل من حيث التشييد والزخرفة مقارنة بحمامات العامة، كما أن هذه الأخيرة تشيد على عين حارة[2].

1.3.حمامات تلمسان:

أ- حمام الصباغين:

له قاعدة كبيرة مربعة الشكل في وسطها صحن مربع الشكل، وفي وسطه نافورة ينصب ماءها في الحوض وتحيط بالصحن أروقة أربعة اثنان منها مرتفعة عن الأرض معدان لنزع الثياب، وأما الرواق الرابع فمنه يكون الدخول إلى الحمام، أما سقف الأروقة فهو مؤلف من عقود وتحيط بالصحن من جوانبه الأربعة، وأربعة في الزوايا، وتعلوا الجميع قبة في قمتها تخاريم لامعة[3]، وقد ذكر الرحالة العبدري الذي أقام في تلمسان سنة 688هـ/1289م يقول عن حمامات تلمسان أنها: « نظيفة ومن أحسنها وأوسعها وأنظفها حمام العالية وهو مشهور وقل أن يرى له نظير»[4]، ومن بين حمامات تلمسان حمام سيدي أحمد بن الحسن الغماري الذي يقع في درب به دكاكين[5].

تقاس الحضارة بمدى التطور الذي يشمل ميادين الحياة في المجتمع، ومن بين تلك الميادين العمارة بمظاهرها المختلفة، ومن خلال ما سبق فالدراسة شملت حاضرتي بجاية الحمادية وتلمسان الزيانية، وبالتحديد العمارة المدنية، ويمكن استخلاص مايلي:

أهلت مدينتي بجاية وتلمسان عدة عوامل لكي تبلغ مبلغ الحضارة، فقد كان لكلاهما مقومات هامة سواء في الجانب البشري أو الجانب الطبيعي، ولهذا من البديهي أن بناءات بجاية أو تلمسان عند أوج قوتهما كانتا تتفوقان على كل المدن الأخرى؛ ولما صارتا عواصم للدول قصدهما سكان كثيرون من كل الجهات واستقر فيهما، ففي بجاية بعد اختطاطها فيبدو أن معظم أحيائها أرستقراطية خاصة كانت التي كانت تقام في داخل مدينة بجاية وتسكنها الطبقة الحاكمة، وأتبعاها ويبدو كذلك أن أحياء خاصة كانت تقام للجاليات الأجنبية والمسيحية واليهودية، فظهرت بذلك القصور على شكل سروح، أما عن تشييد المنزل التلمساني فقد كان

[1]قبيلة المالكي، المرجع السابق، ص: 194.
[2]إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص: 151.
[3]الحاج شاوش، المرجع السابق، ص: 217
[4]العبدري، المصدر السابق، ص: 10
[5]الحاج شاوش، المرجع السابق، ص: 217.

وفق المستوى المعيشي للعامة، فهي لذلك كانت مظاهرها متفاوتة، هذا فيما يخص الأحياء أما القصور فقد حافظت على تلك الهيبة المعمارية.

ولقد دعت الضرورة إلى ظهور عمائر مدنية ثانوية مثل الأسواق والخانات، والحمامات، وسبب قولنا بأنها ثانوية هو أن طابع التشييد لم يكن بذلك الاهتمام الكبير لأن معظمها شيدها العامة من الساكنة، كذلك ما أطبعت به بطابع البساطة من حيث المظهر.

خـــاتمة

تقاس أي حضارة بمدى التطور الذي يشمل ميادين مختلفة في المجتمع، ومن بين تلك الميادين فن العمارة بمظاهرها المختلفة، ومن خلال ما سبق شملت الدراسة حواضر المغرب الأوسط عامة مع التركيز على حاضرتي بجاية الحمادية وتلمسان الزيانية لأسباب موضوعية تتمثل في الفترة الزمنية المحددة بين القرن 5-9هـ/ 11-15م، ويمكن استخلاص ما يلي:

أهلت مدينتي بجاية وتلمسان عدة عوامل لكي تبلغ مبلغ الحضارة، فقد كان لكليهما مقومات هامة سواء في الجانب البشري أو الجانب الطبيعي، ولهذا من البديهي أن عمارة حاضرتي بجاية وتلمسان ومدن من المغرب الأوسط بلغت أوج قوتها في التفوق الحضاري مقارنة بمدن الضفة الأخرى في تلك الفترة؛ ولما أصبحت مدن من المغرب الأوسط عواصم قصدهما سكان كثيرون من كل الجهات واستقروا فيهما؛ ففي بجاية بعد اختطاطها يبدو أن معظم أحيائها كانت أرستقراطية خاصة التي أقيمت داخل المدينة وسكنتها الطبقة الحاكمة وأتباعها، ويبدو كذلك أن أحياء خاصة كانت تقام للجاليات الأجنبية والمسيحية واليهودية، فظهرت بذلك القصور على شكل سروح، أما عن تشييد المنزل التلمساني فقد كان وفق المستوى المعيشي للعامة، فهي لذلك كانت مظاهرها متفاوتة، هذا فيما يخص الأحياء أما القصور فقد حافظت على تلك الهيبة المعمارية.

ودعت الضرورة إلى ظهور عمائر مدنية ثانوية مثل الأسواق والخانات، والحمامات،كما أن طابع التشييد لم يكن بذلك الاهتمام الكبير لأن معظمها تم تشييده من طرف العامة من الساكنة، لذلك طبعت بطابع البساطة من حيث المظهر.

لقد اعتنى الحكام بتشييد العمارة الدينية في كل من حاضرتي: بجاية الحمادية وتلمسان الزيانية، فبنيت بذلك المساجد وعرفت مآذنها، وشيدت المدارس والزوايا والأربطة، ولا نستثني بذلك باقي مدن المغرب الأوسط من هذه العمائر الدينية، إلا أن الاهتمام كان حول الحاضرتين السابقتي الذكر.

وقد شيدت الجوامع والمساجد قصد العبادة، لكن هذا التشييد في كل من الحاضرتين صاحبه نوع من الاهتمام من طرف الحكام، ثم إن الدور البارز الذي قام به المسجد هو تلك الوظيفة الأساسية المتمثلة في تهذيب أفراد المجتمع وتقوية الروابط الدينية والاجتماعية بينهم، كما كان للمسجد دوره السياسي والذي جسده الحكام من خلال عقد جلسات لدراسة وضع من الأوضاع، وكان أيضاً محكمة يتقاضى فيها المتقاضون لدى الأمير أو لدى القاضي، وهكذا كان المسجد معبداً ومدرسةً ومحكمة ومحل اجتماعات عمومية.

أما مآذن المساجد فقد عرفت بشكلها المشترك في مجمله فهي اتخذت شكل التربيع، وزينت الزخارف واجهاتها الأربعة، وكان الدور البارز الذي لعبته هذه المآذن هو ذلك التطور الهام في الجانب المعماري، فبعيداً عن جانبها وجوهرها الديني فهي تعتبر قطع فنية

في منتهى الجمال، وكان سبب هذا الاهتمام هو تعظيم الحكام في تلك الفترة الوسيطة للعمارة الدينية؛ فمثلا في الدولة الحمادية فقد بقيت من آثار المساجد الثلاث مآذنها فقط، وهذا دليل على عظم التشييد، أما في الدولة الزيانية فترتبط المآذن في مجمل شكلها بمآذن المسجد الجامع بتلمسان، وتظهر فيها زخارف تلك القطع الفسيفسائية.

أما عن المدرسة فقد اهتم الحكام بهذا النوع من العمارة العلمية الثقافية وخصصوا لها نفقات، وكان بادئ أمرها في بلاد المشرق الإسلامي خلال العهد السلجوقي، لكن ظهورها كان متأخراً نوعاً ما في بلاد المغرب الإسلامي عامة، وتشييد مثل هذه العمائر دليل على الاهتمام العلمي والديني لدى الحكام،أما الدور الوظيفي لهذه المدارس فهو عملية التعليم، فالتعليم هو الأساس الذي تبنى عليه قاعدة التحضر واستمراريته.

أما عن مفهومي الزاوية والرباط فبينهما تداخل في العملية الوظيفية، فهما يشتركان في التعليم والتربية والدين، فالزاوية والرباط غاية تمثلت في تربية النفس والتعليم، ويمكن الإشارة إلى أن الزاوية لم تعرفها فترة الحكم الحمادي، لكن خلال الفترة الزيانية برزت الزاوية وكانت في أوجها.

وفي الأخير يمكن القول أن المغرب الأوسط شهد فترات اضطراب وحروب وفتن كانت تهدد الجانب الأمني للمدن والسكان، لذلك لجأ حكام الدول التي تعاقبت على الحكم في هذا الفضاء الجغرافي إلى اتخاذ احتياطات أمنية وبناء منشآت عسكرية وتحصينات دفاعية لتضمن لها الحماية والاستمرار، وقد تمثلت تلك المنشآت في عدد من الهياكل والبنايات كإحاطة المدن بالأسوار العالية المزودة ببوابات ضخمة كانت تغلق عند حدوث الخطر لتمنع العدو من الدخول إلى المدينة، كما قاموا باعتماد تقنية دفاعية أخرى تمثلت في حفر الخنادق العميقة التي كانت تملأ بالماء في حالة الحصار مما يضمن لهم عدم اقتراب خيول العدو من أسوار المدينة.

ومن بين الهياكل الدفاعية التي تم إنشاؤها هي إقامة القلاع والحصون التي كان يتم شحنها بالجنود والأسلحة والمؤونة للتزود بها أثناء فترات الحصار الطويل، وقد جعلتهم ظروف الحرب هذه يختارون أماكن بناء المدن بعناية فائقة، حيث كانوا يفضلون بناءها في أماكن تكون محصنة تحصينا طبيعيا كالجبال والأنهار أو مواجهة لساحل البحر كي تكون محمية به.

ونظرا لما كانوا يتوقعونه من مخاطر يمكن أن تأتيهم من جهة البحر، فقد دفعهم هذا إلى اتخاذ تدابير دفاعية تمثلت في تكوين قوة عسكرية بحرية حيث عمدوا إلى إقامة صناعة بحرية مستخدمين أخشاب الغابات في الجبال القريبة منهم، مستغلين الموانئ التي كانت بحوزتهم كميناء المرسى الكبير بوهران وميناء بجاية وغيرها من الموانئ.

إن هذه التحصينات العسكرية والتعزيزات الدفاعية ما هي إلا دليل واضح على حرص السلطات التي حكمت المغرب الأوسط على استقرار أمنها وضمان استمراريتها، كما أنه دليل أيضا على مدى التطور الحضاري الذي بلغته الكيانات السياسية التي قامت في بلاد المغرب الأوسط في مجال العمارة العسكرية خاصة وأنها كانت تبنى بأيدي محلية، وتستخدم في صناعتها مواد أولية كانت توفرها طبيعة هذا البلد.

ملاحق

الملحق: رقم 01.

مدخل مسجد سيدي الحلوي[1]

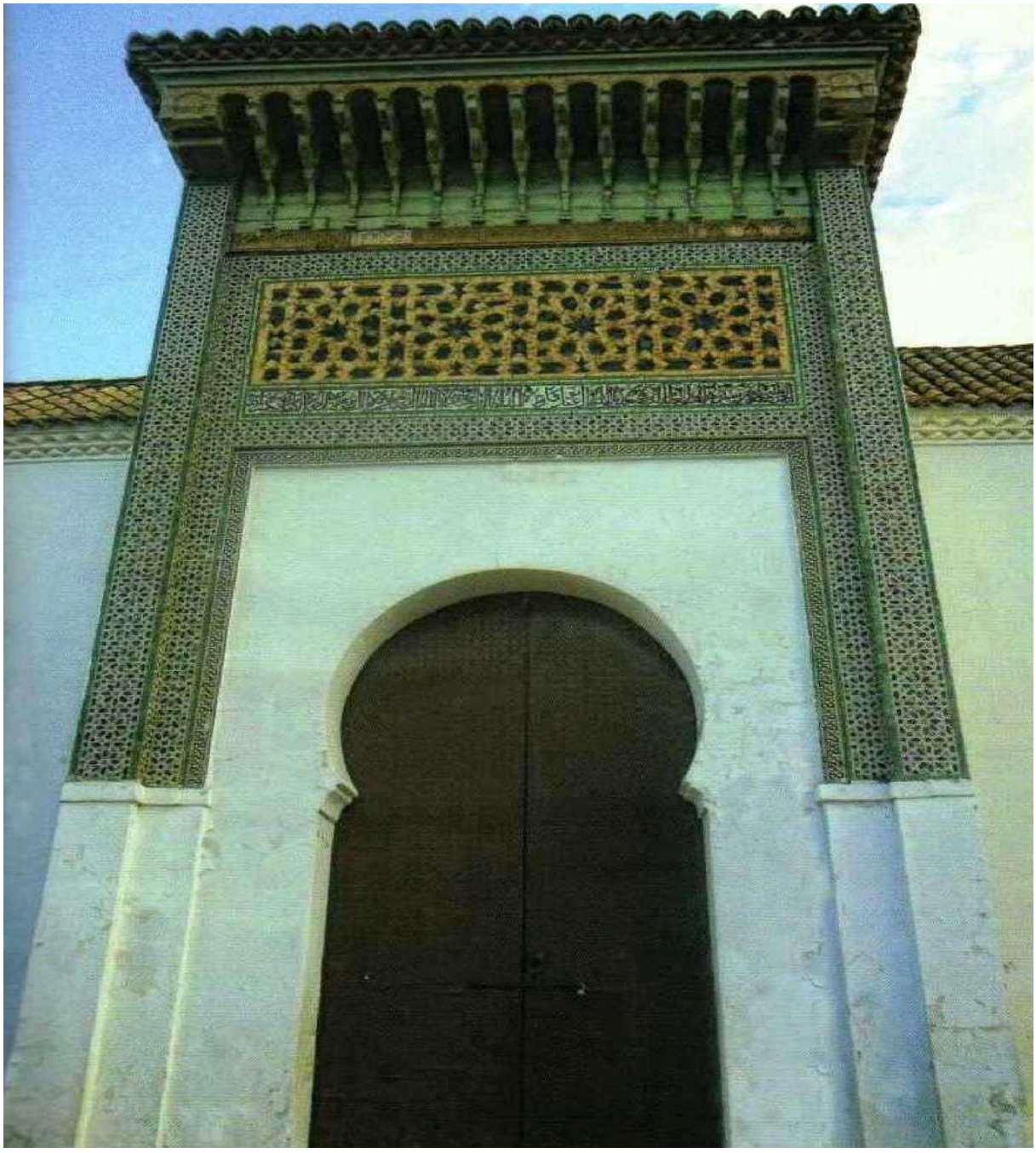

الملحق: رقم 02.

صومعة مسجد سيدي بومدين[1]

[1]عبد المالك موساوي، المرجع السابق،ص:65.

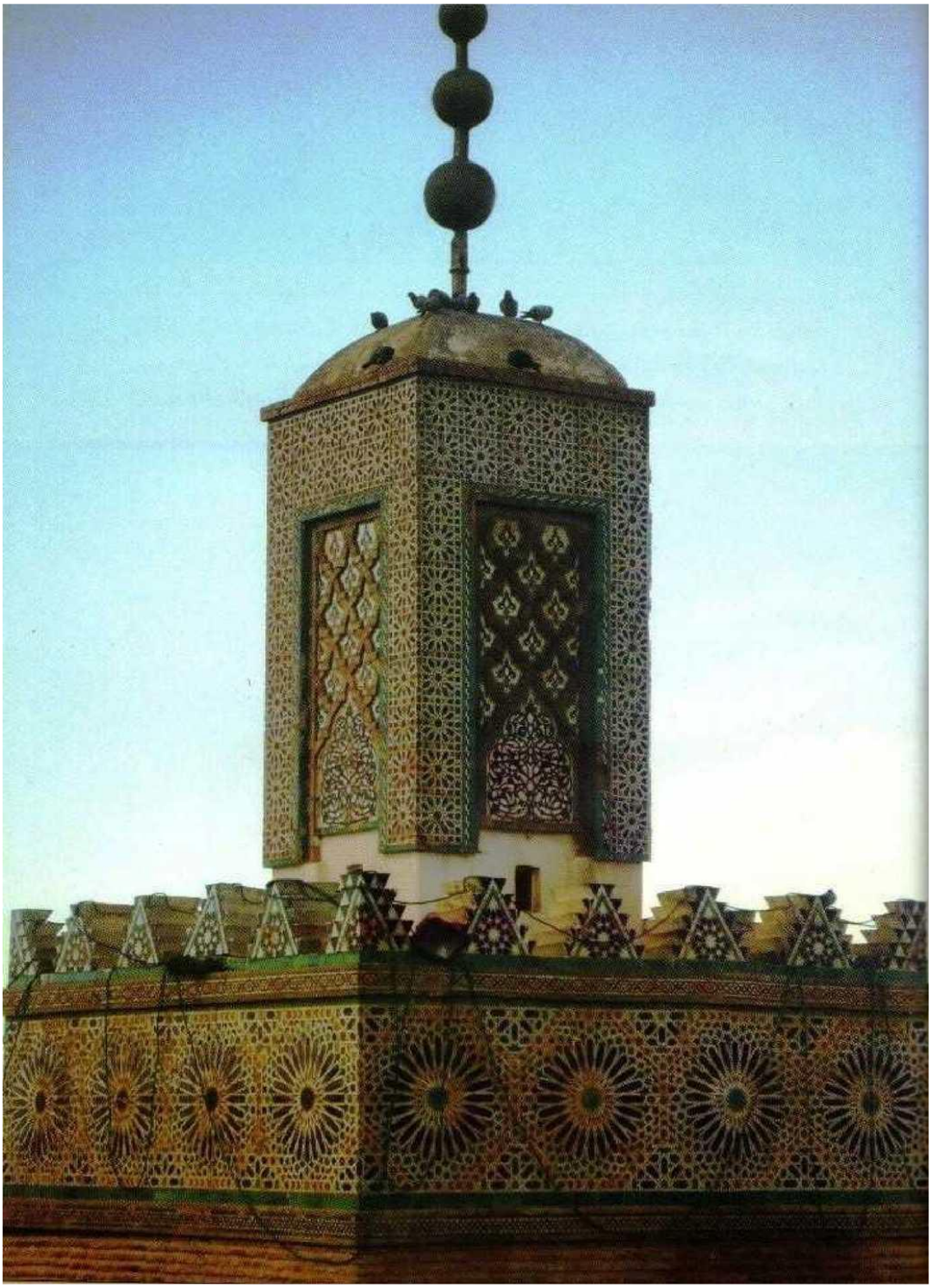

الملـ

حق: رقم 03

مسجد حصن المشور[2]

[1]عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 82
[2]عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 88

الملحق: رقم 04

مسجد سيدي ابراهيم المصمودي[1]

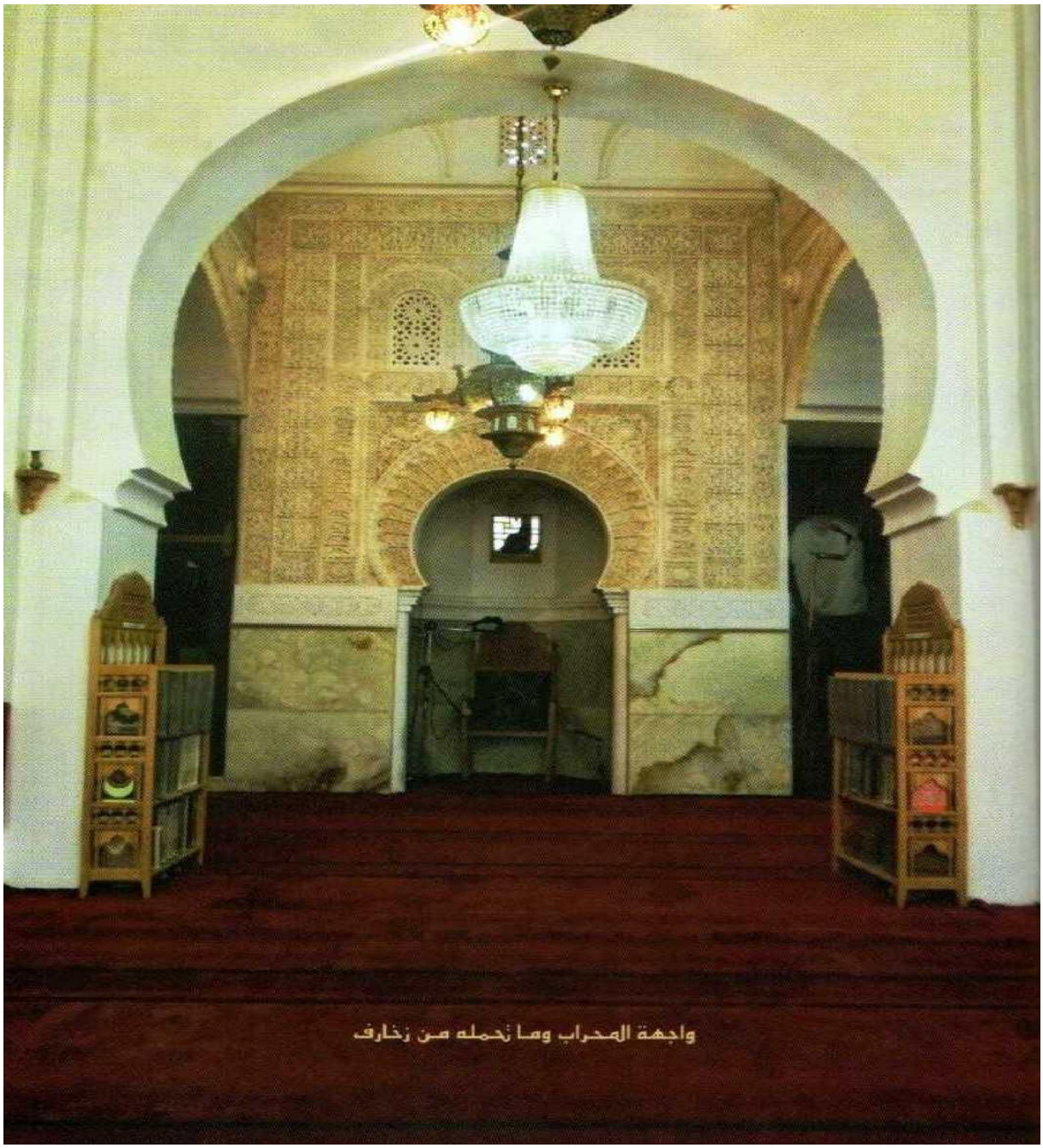

الملحق: رقم05.

مئذنة مسجد سيدي إبراهيم المصمودي1

[1]عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 95.

الملحق: رقم06.

مسجد أبي الحسن التنسي2

[1] عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 105

[2] عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 112.

الحسن بن يخلف التنسي الذي عاش في عهد الأمير أبي سعيد عثمان كان يتولى تدريس العلوم الدينية لهذا المسجد مما أدى إلى ذيوع اسمه بين طلبته وأصبح المسجد ينعت باسمه لما كان للفقهاء وعلماء الإسلام من مكانة اجتماعية رفيعة في أوساط المجتمع المغربي في العصر الإسلامي. وإذا كان المسجد لم يعرف زيادات على عمارته الأولى فمن المؤسف أنه تعرض للتخريب مما أفقده أجزاء كبيرة من حلياته الجصية التي كانت تكسو واجهات جدرانه الداخلية، وحتى الزخارف الخشبية التي كانت تزين سقفه لم تسلم هي الأخرى من الخراب الذي لحق به أيام الاحتلال الفرنسي للجزائر فقد اتخذ مخزنا للخمور في بداية الاحتلال ثم مخزنا للعلف الحيواني فيما بعد ليصبح بعد الاستقلال متحفا لآثار المنطقة.

45

الملحق: رقم 07.

مسجد سيدي أبي الحسن التنسي[1]

[1] عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 128.

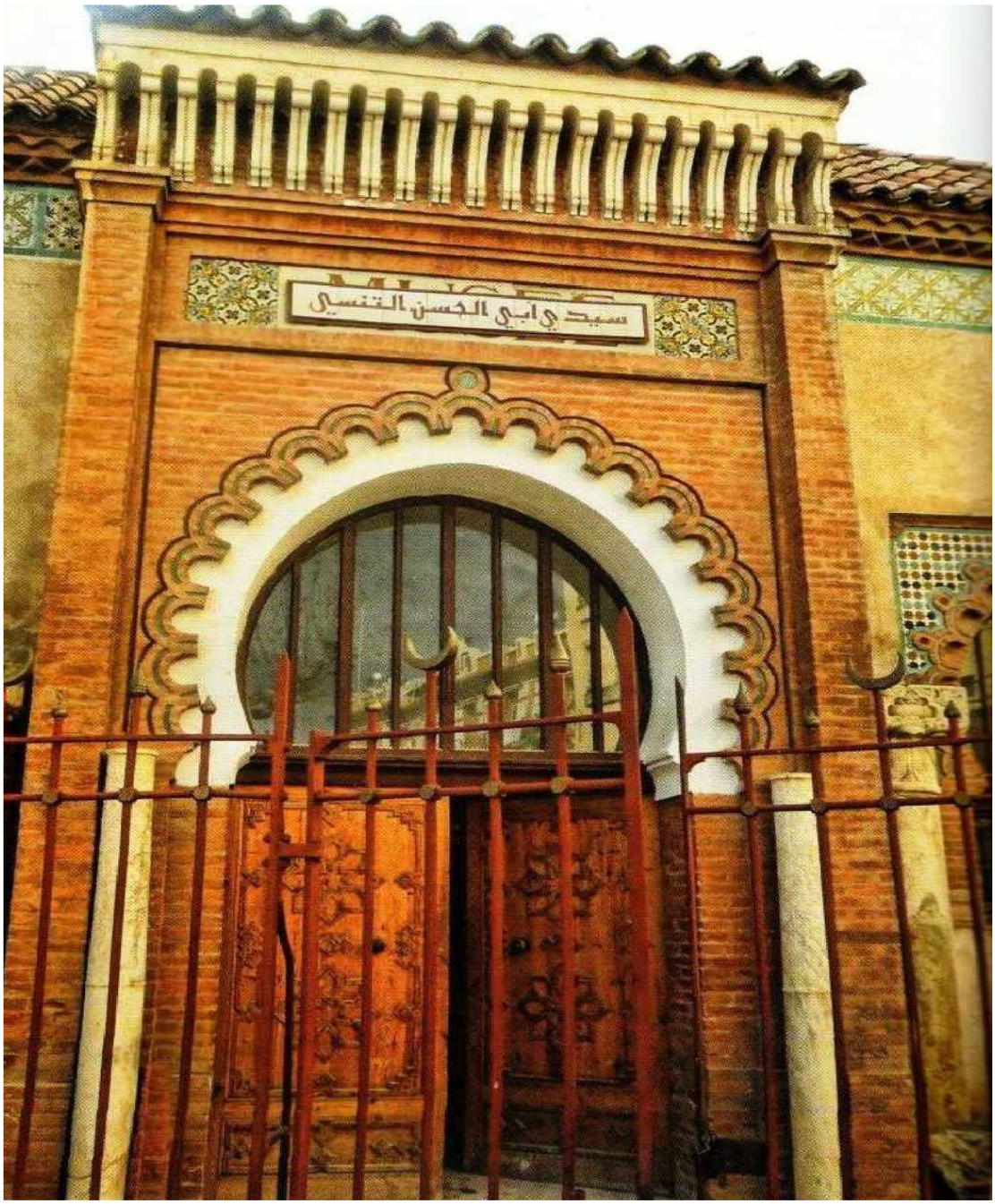
سيدي ابي الحسن التنسي

الملحق: رقم 08

المسجد الكبير بتلمسان[1]

الملحق: رقم 09

صحن المسجد الكبير بتلمسان[1]

[1] عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 130.

الملحق: رقم 10

مدخل مدرسة العباد[2]

[1]عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 132.
[2]عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 140.

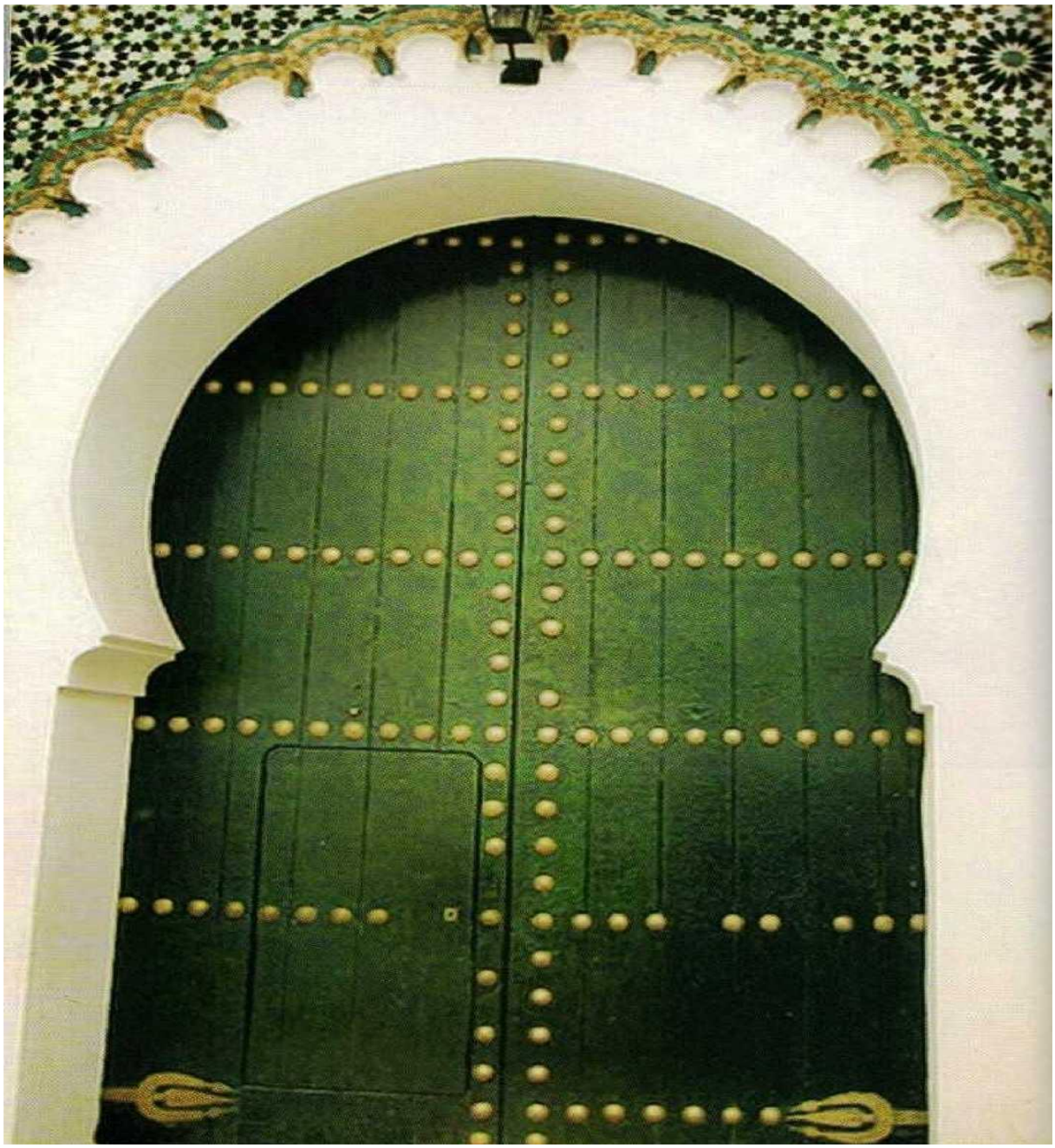

الملحق: رقم 11

فناءمدرسة العباد[1]

[1]عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 140.

هي ثالث مدرسة في تلمسان وأول مدرسة مرينية أمر ببنائها أبو الحسن المريني سنة 748 هـ واشتهرت بهذا الاسم لوجودها بقرية العباد الشهيرة. كانت تقع خارج المدينة وبها قبور أولياء وعلماء تلمسان، مثل سيدي بومدين. كانت تمثل طرازا بديعا للعمران العربي الإسلامي بتلمسان. وقد عرفت أيضا باسم مدرسة سيدي بومدين.

166

الملحق: رقم 12

مدخل المدرسة التاشفينية[1]

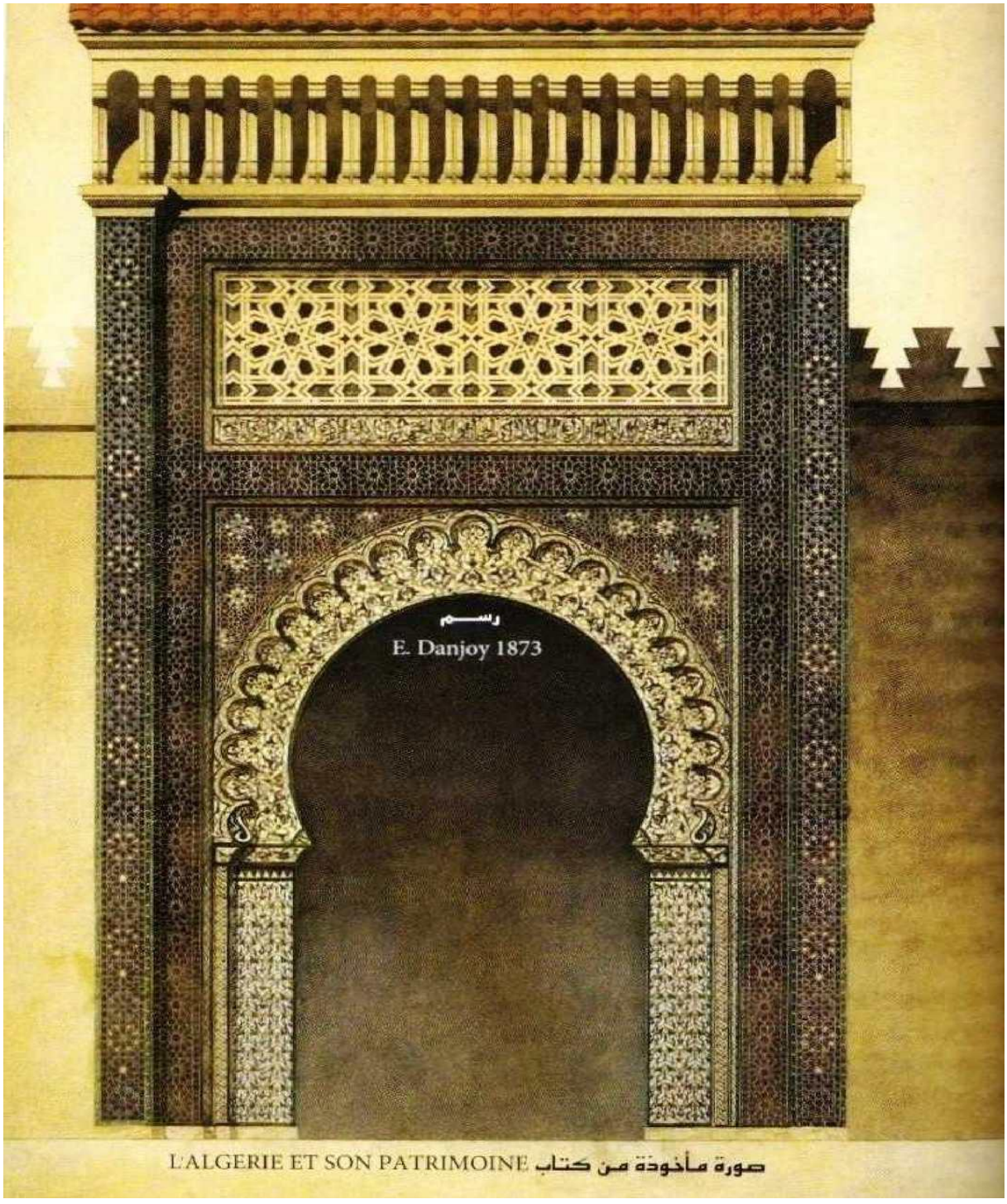

الملحق: رقم13

[1]عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 147.

المدرسة التاشفينية[1]

الملحق: رقم 14

صومعة المنصورة بتلمسان[1]

[1]عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 148.

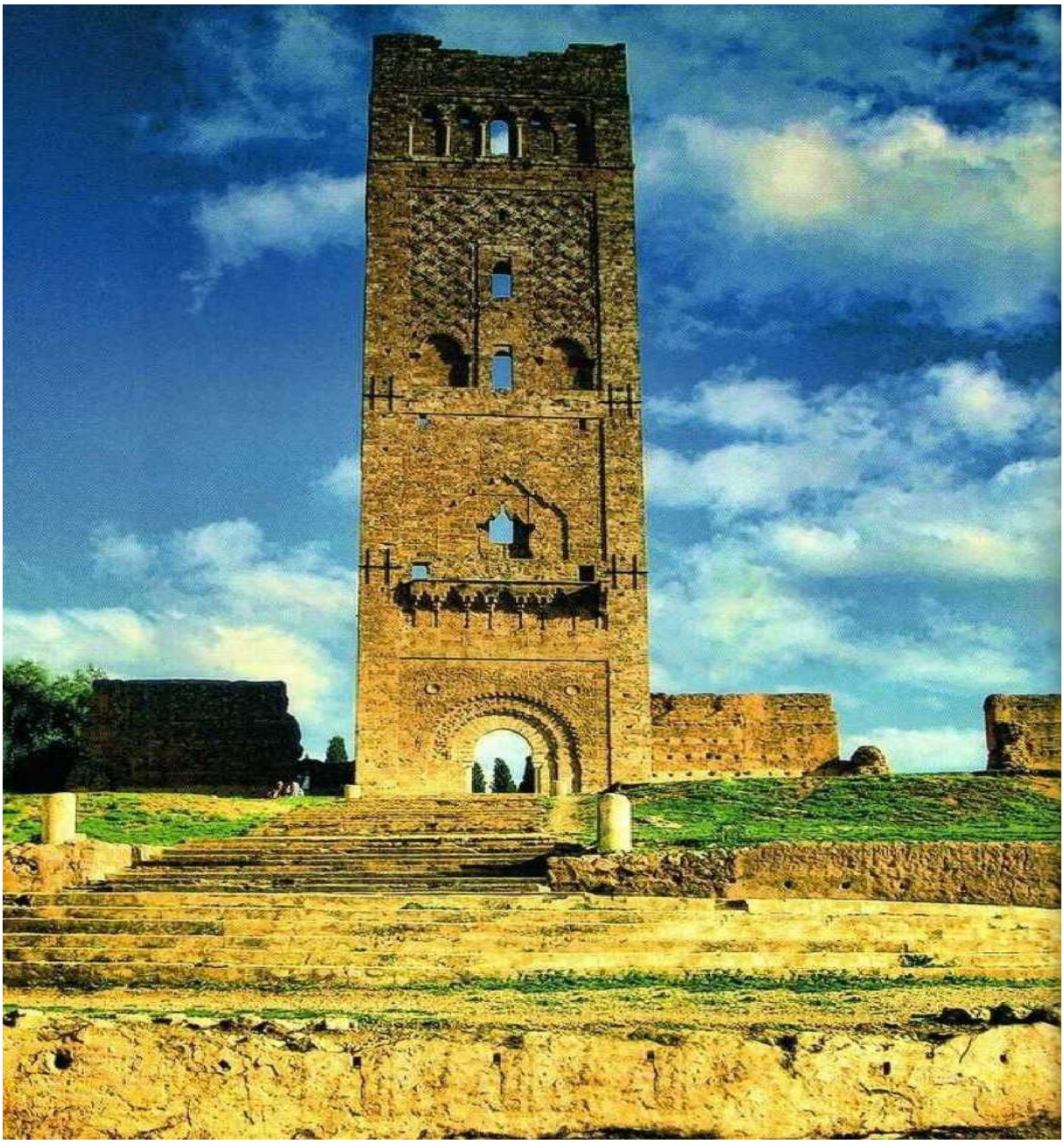

الملحق: رقم 15

مئذنة الجامع الكبير بتلمسان[2]

[1] عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 152.
[2] عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 123

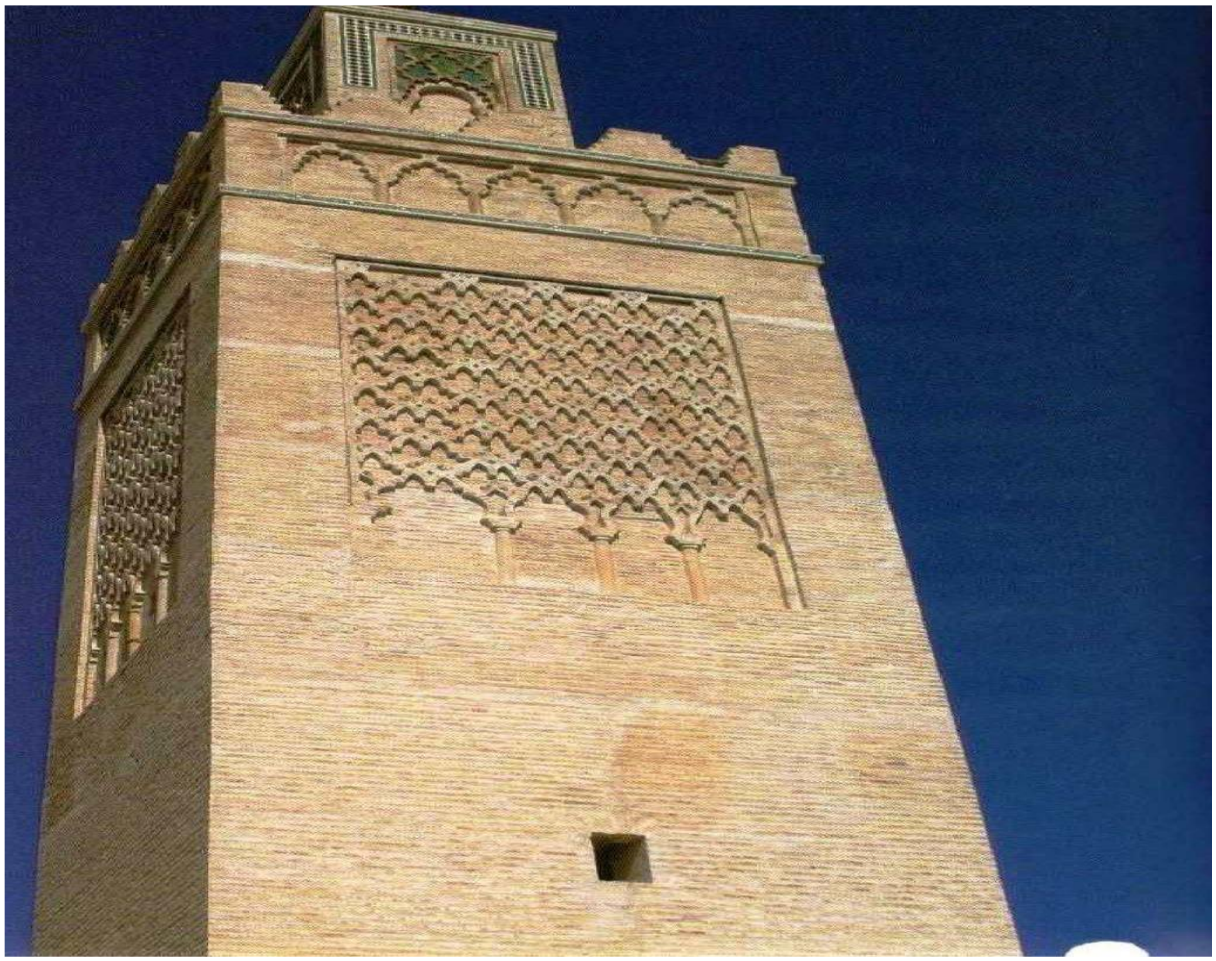

الملحق: رقم 16

مئذنة جامع أكادير[1]

[1] عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 160.

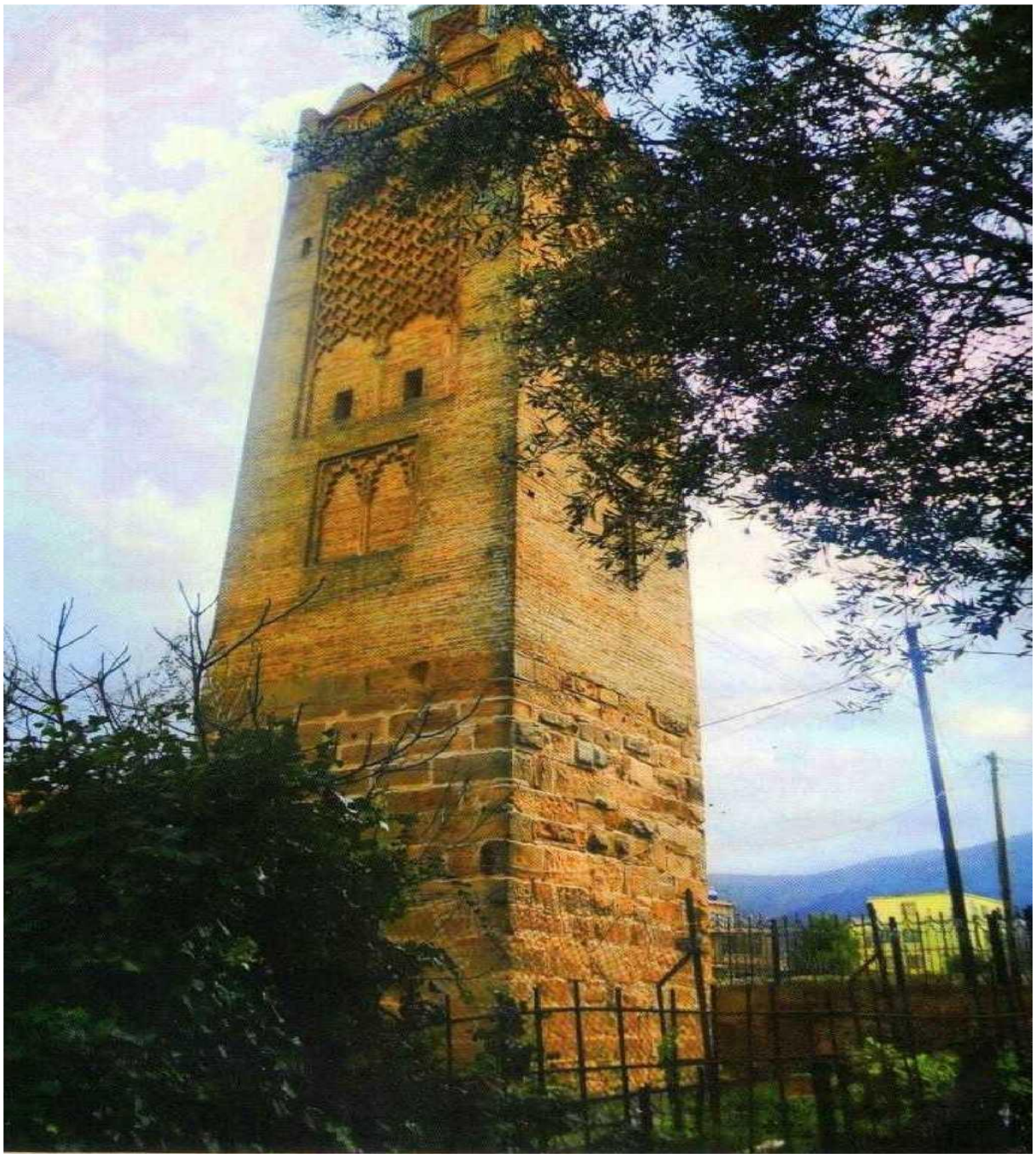

الملحق: رقم 17

قلعة بني حماد[1]

[1] عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 162

الملحق: رقم 18

قلعة المشور[1]

[1]عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 164

الملحق: رقم 19

قلعة بني عباس[1]

[1]عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 170.

الملحق: رقم20

حصن المشور بتلمسان[1]

[1]عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 180.

الملحق: رقم 21

سور المشور بتلمسان[1]

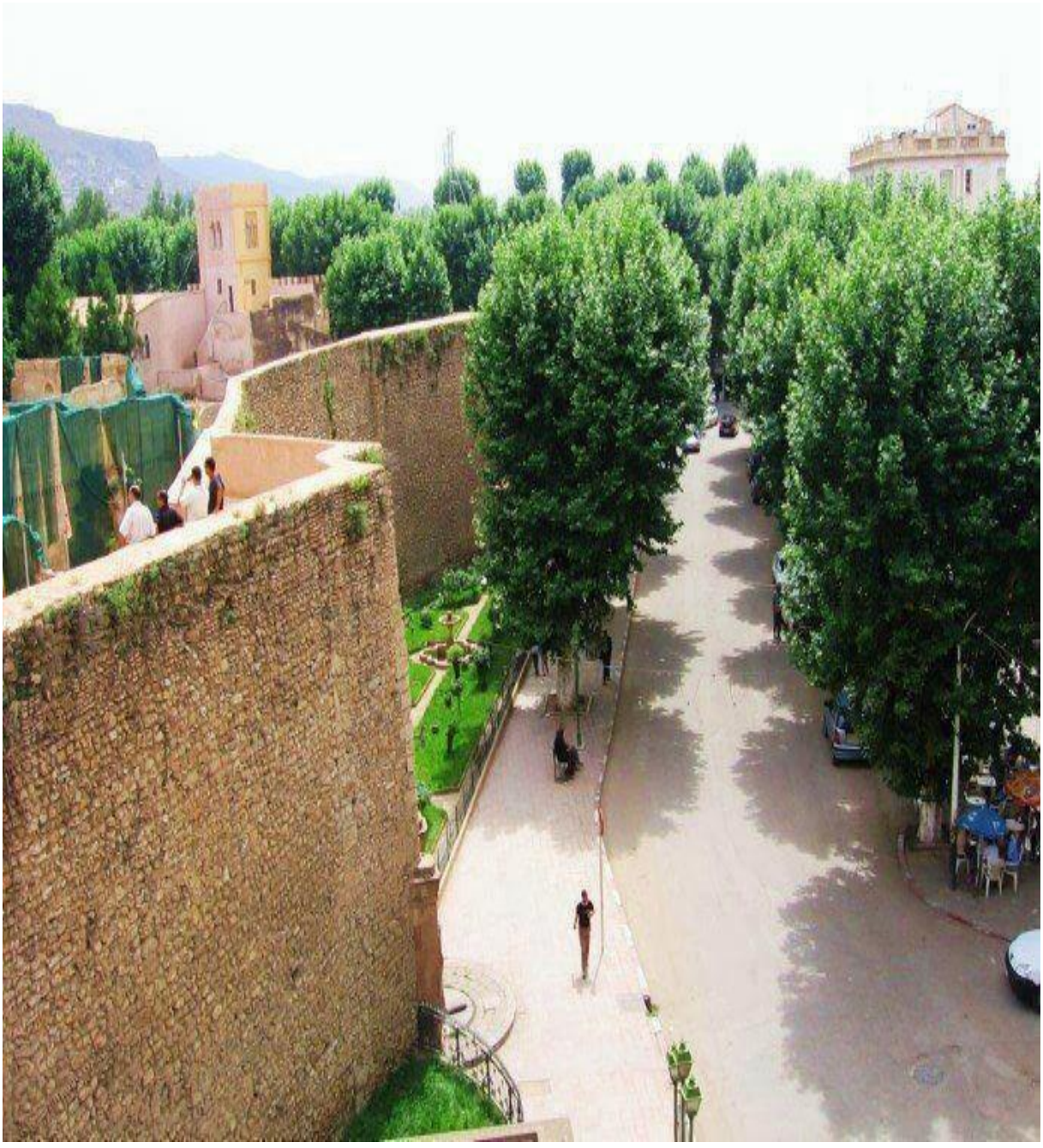

الملحق: رقم 22

قلعة المشور[1]

[1]عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 175.

الملحق: رقم 23

سور مدينة المنصورة[2]

[1]عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 180

عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 188.[2]

الملحق: رقم 24

سور بجاية[1]

[1] عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 192

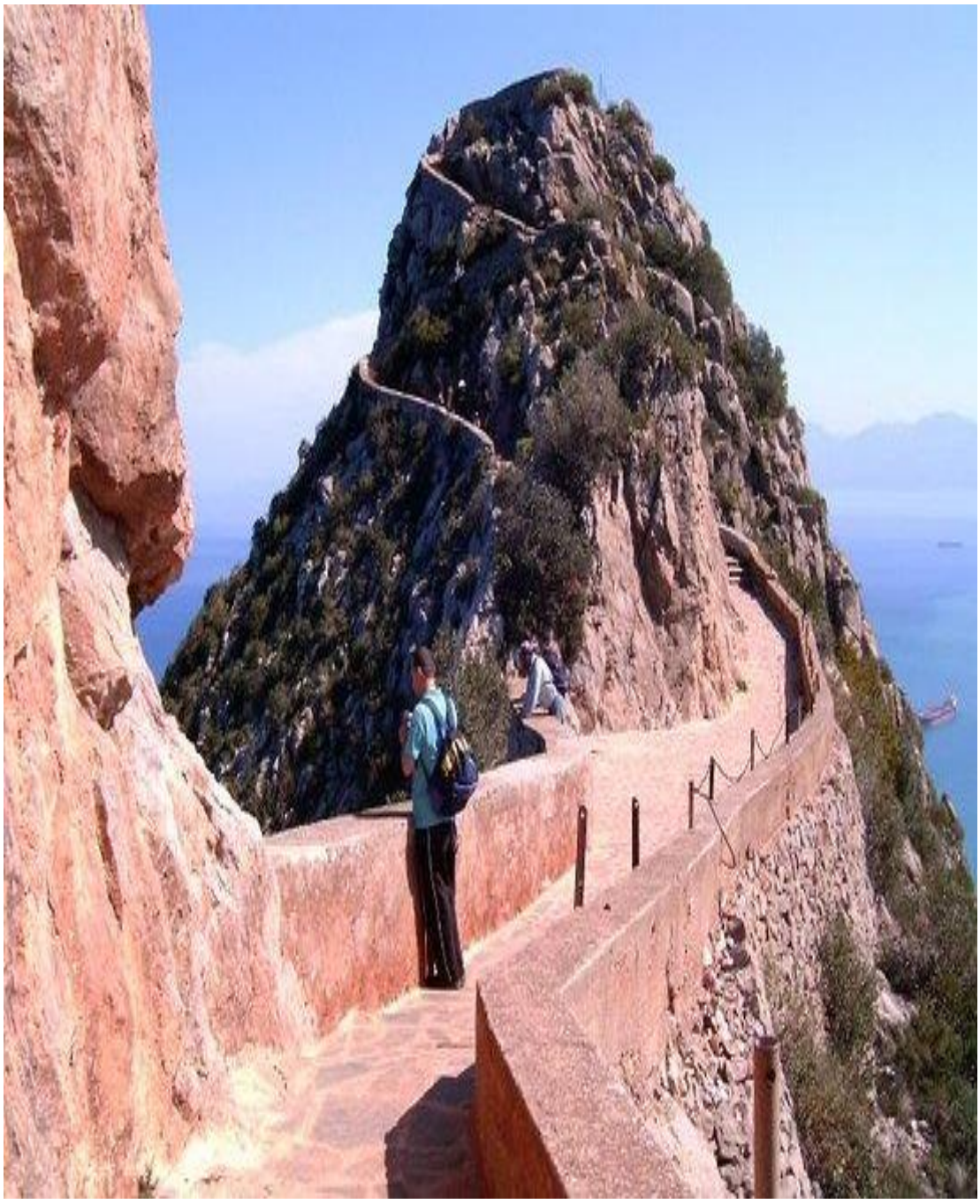

الملحق: رقم 25

أبواب مدينة تلمسان[1]

[1] عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 197.

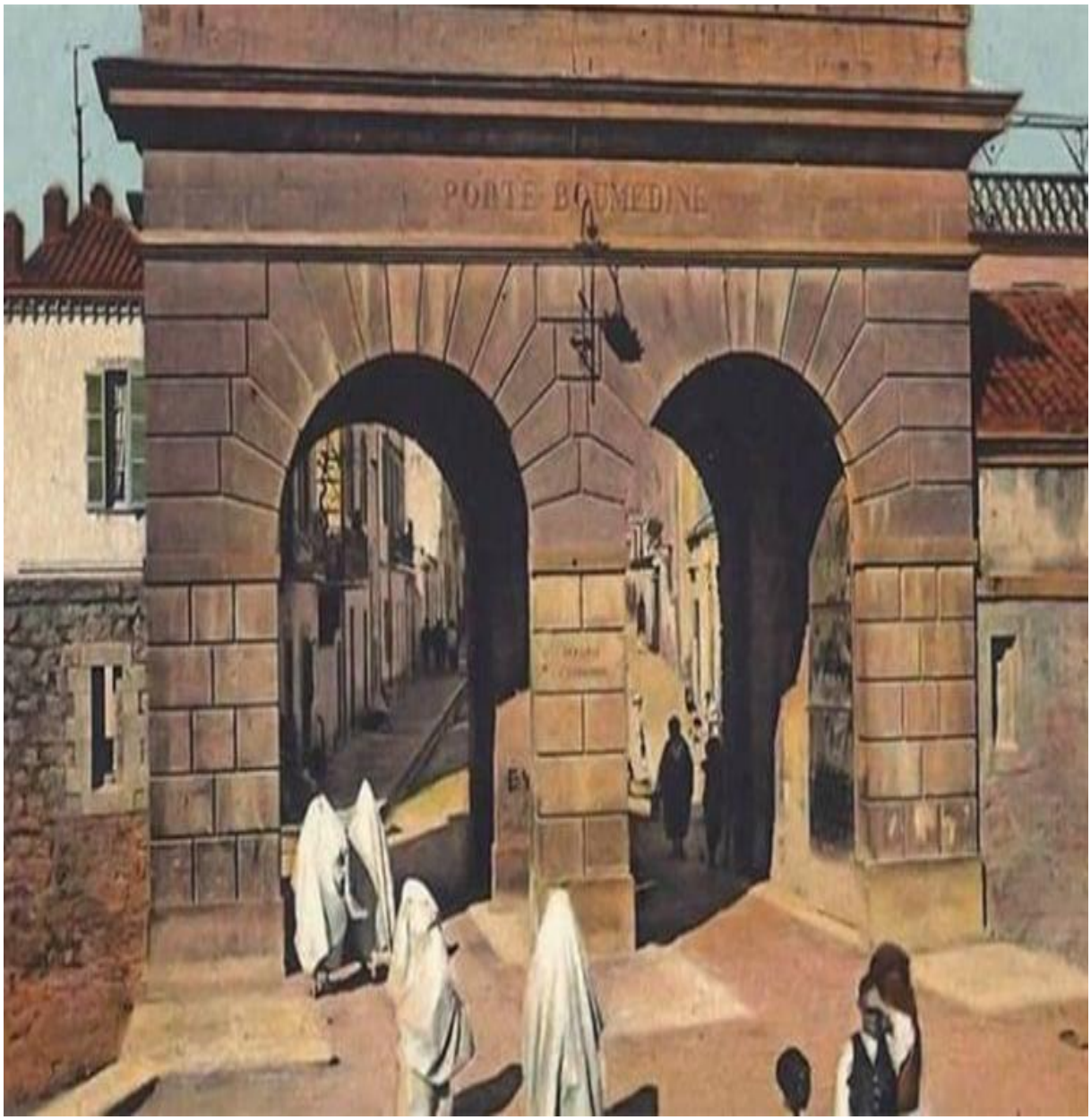

الملحق رقم: 26

باب الخميس أحد أبواب تلمسان[1]

[1] عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 201

الملحق: رقم 27

باب العقبة أحد أبواب تلمسان[1]

[1] عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 210

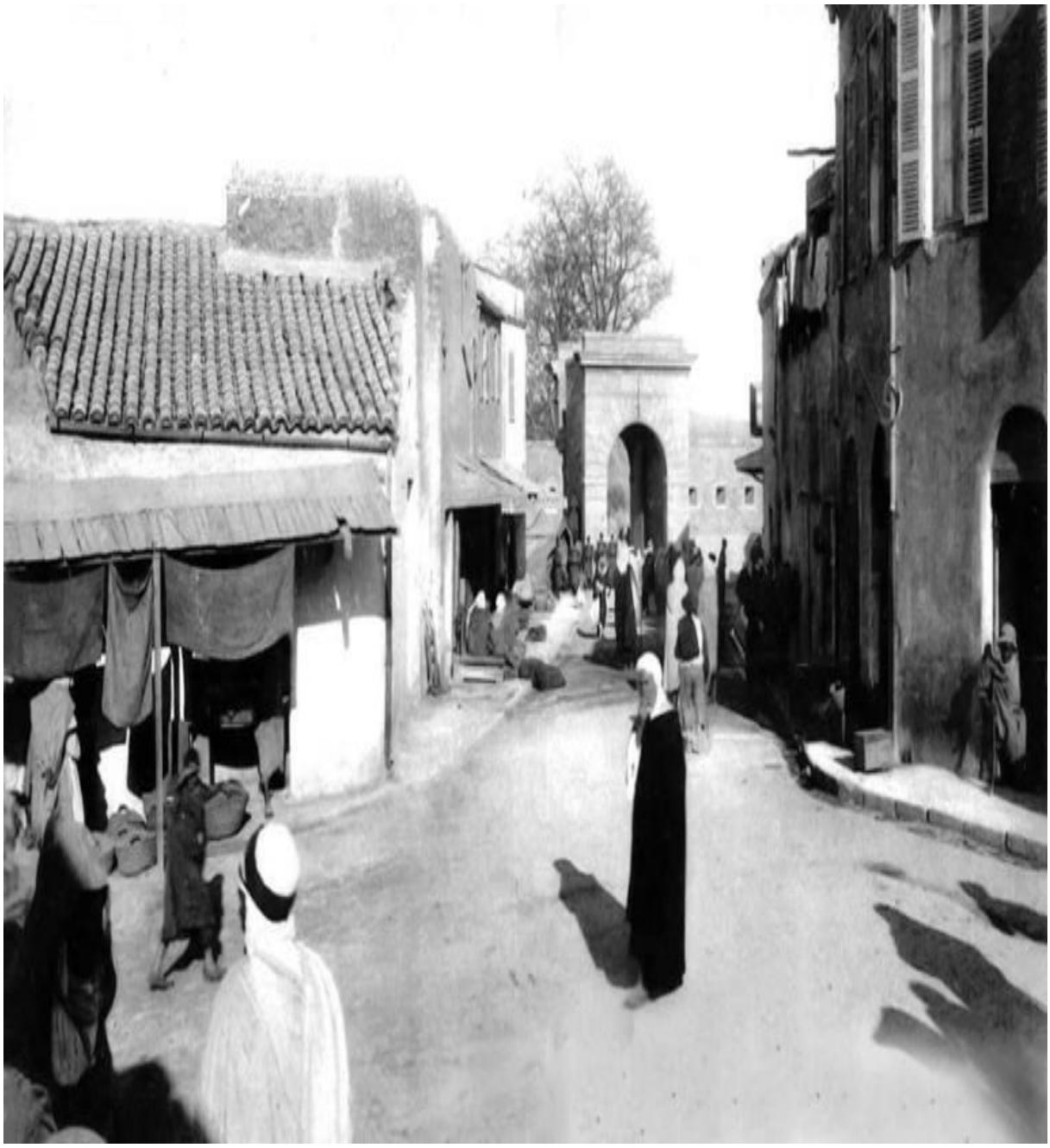

الملحق: رقم 28

أبواب بجاية[1]

[1] عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 220.

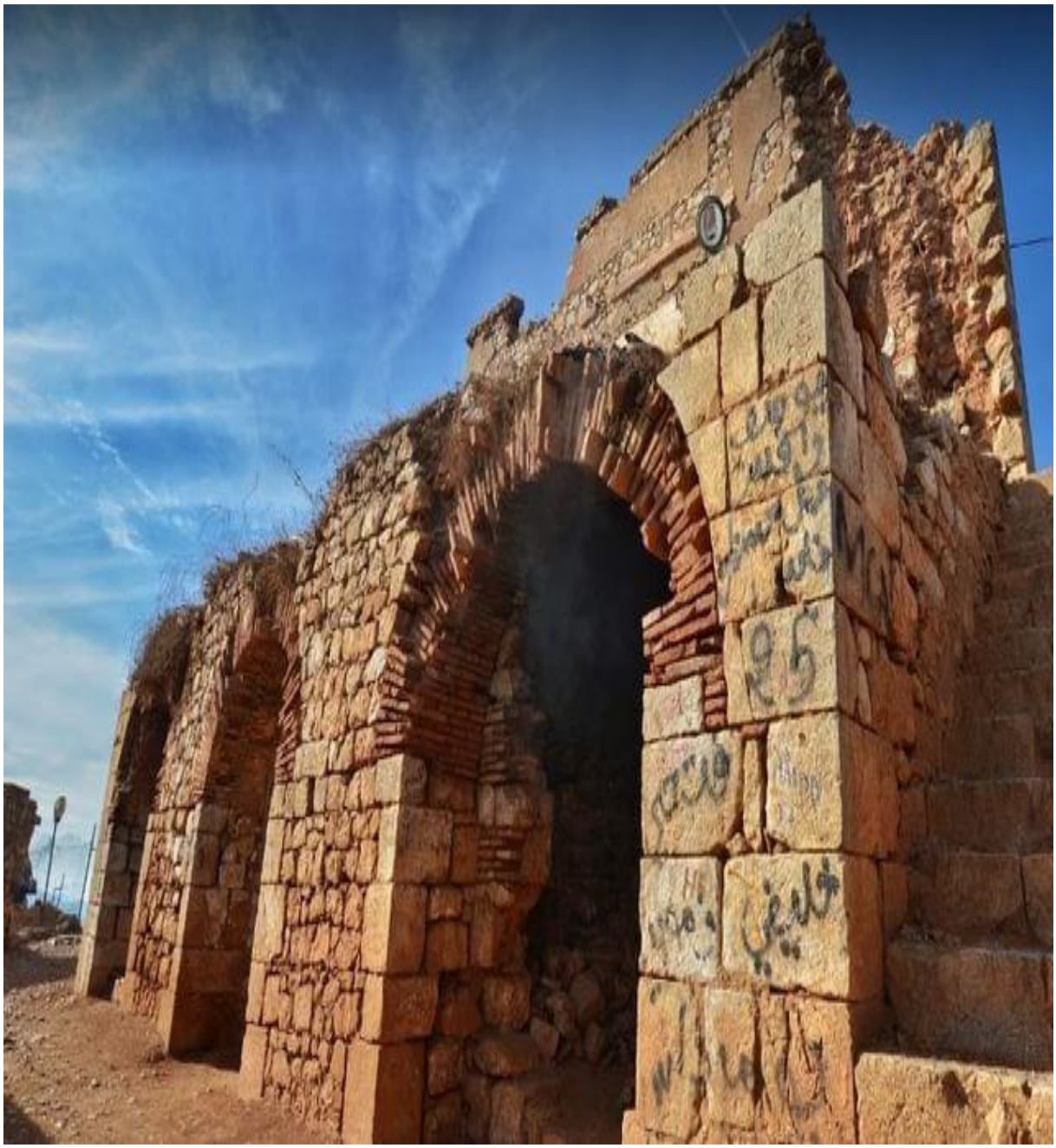

الملحق: رقم 29

بوابات بجاية[1]

[1] عبد المالك موساوي، المرجع السابق، ص: 225.

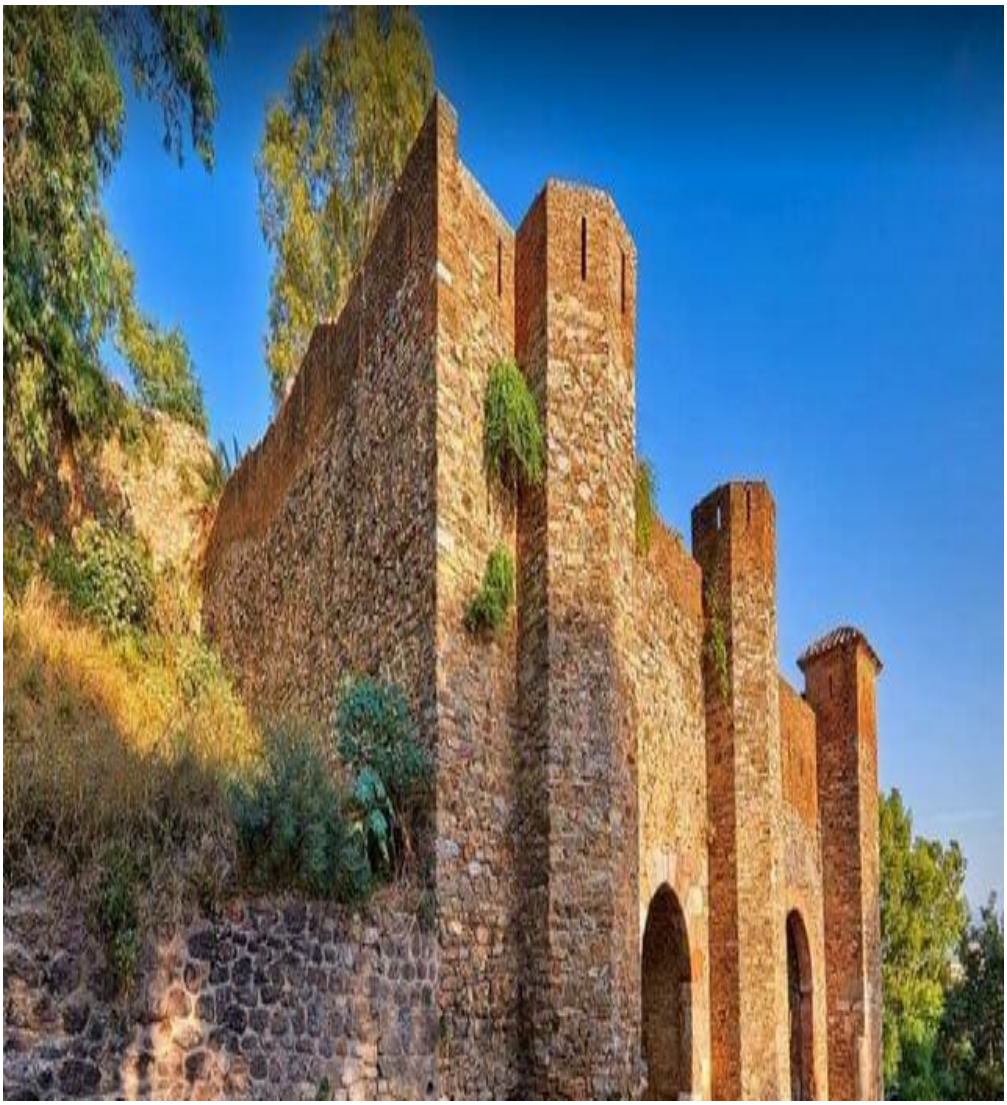

الملحق رقم 30

معالم لمدينة تيهرت[1]

[1] معالم + تيهرت+ الرستمية + https://www.google.com/search?q ، الجمعة 15 ديسمبر2023م، الساعة 16.16

الملحق رقم 31

معالم وأثار مدينة قسنطينة[1]

[1] معالم+ مدينة قسنطينة+ https://www.google.com/search?q، الجمعة 15 ديسمبر 2023م، 16.30.

الملحق رقم 32

صور لبقايا خزانات الماء بمدينة طبنة

[1]

صورة رقم 4: بقايا خزان الماء

الملحق رقم33

صور لمواقع وأشكال في مدينة سدراتة

[1] حنان عطية، المرجع السابق، 335.

المصدر: تصوير الباحثة

الصورة (03): الجرتان المستخرجتان من فناء المعلم رقم (02)

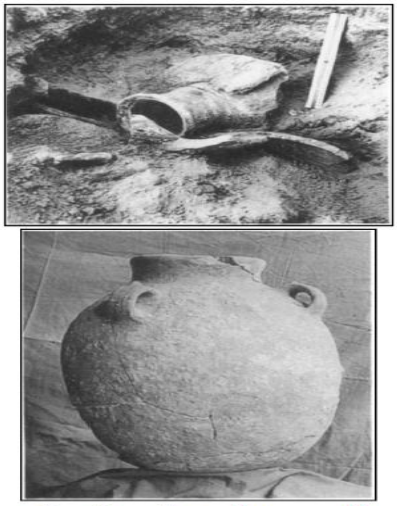

المصدر: نقلا عن مارقريت فان برشم

2- المخططات:

المخطط (01): توزع معالم سدراتة على مساحة الموقع الأثري

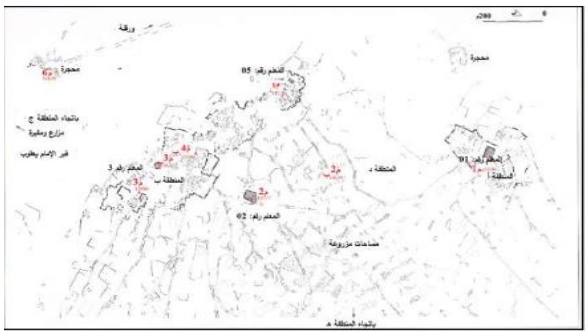

المصدر: موريس فوشي -بتصرف-

المخطط (02): مخطط المعلم رقم (01) الموصوف بالمحكمة

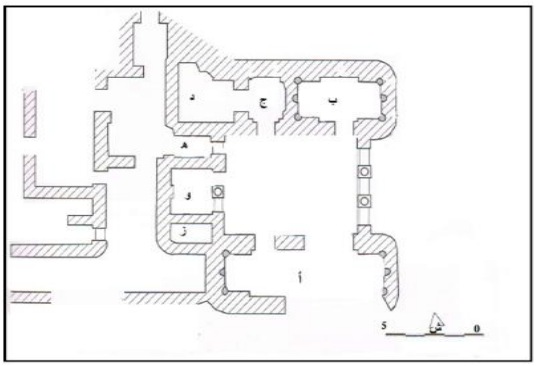

المصدر: موريس فوشي -

المخطط (03): مخطط المعلم رقم (02) الموصوف باللبيت المحصن

الملحق رقم 34

صور مدينة مازونة المشيد خلال العصر الوسيط[1]

[1] العالية بلعباس، هجيرة تيلمشيكت، معالم مدينة مازونة القديمة خلال الفترة العثمانية، مجلة البحوث التاريخية، مجلد07، العدد 01، جوان2023، ص 512.

صورة رقم1: جزء من سور المدينة

الملحق رقم 35

معالم وأثار مدينة مليانة[1]

[1] أحمد طهراوي، مدينة مليانة وموقعا الجغرافي ودوراها الإقليمي، الجزائر، حوليات التاريخ والجغرافيا، المجلد 03، العدد 05، ص 241.

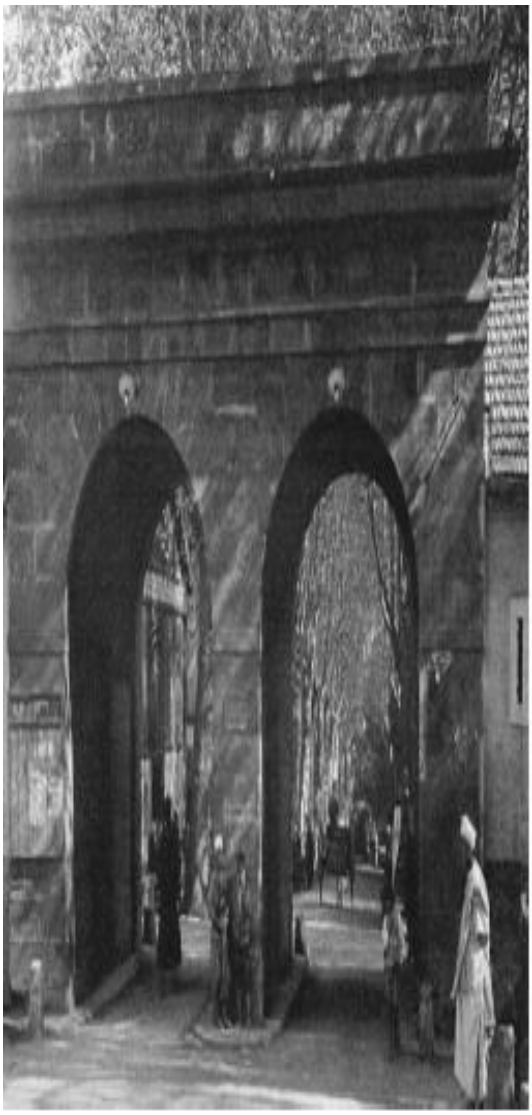

قائمة المصادر والمراجع

- ✓ **القرآن الكريم برواية ورش.**

المصادر :

- ✓ ابن الأثير عز الدين الجزري: **الكامل في التاريخ**، مج: 3، تح: أبي الفدا عبد الله القاضي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط: 1، 1987م.
- ✓ ابن الخطيب لسان الدين: **أعمال الأعلام.** القسم الثالث، تح: مختار العبادي وابراهيم الكتاني، الدار البيضاء: دار الكتاب 1964.
- ✓ ابن حماد القلعي: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم. تح: فوندرهايدن. الجزائر 1927.
- ✓ ابن سعيد المغربي: **كتاب الجغرافيا**. تح: إسماعيل العربي، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 1، 1970م.
- ✓ ابن عبد البر القرطبي: **الإستيعاب في أسماء الأصحاب**. مج: 3،تح: علي محمد البجاوي،بيروت: دار الجيل، ط: 1، 1992م.
- ✓ ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** ج: 1، تح: ليفي بروفنصال، وكولان، بيروت: دار الثقافة، بدون ت. ط3، 1983.
- ✓ ابن قنفذ أبو العباس: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية. تح: الشاذلي النيفر، تونس: الدار التونسية للنشر1968.
- ✓ ابن مرزوق الخطيب: المناقب المرزوقية، تح: سلوى الزاهري، الدار البيضاء، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2008.
- ✓ ابن مريم أبو عبد الله محمد بن أحمد: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908م.
- ✓ الإدريسي محمد بن عبد الله ، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مجموعة من المحققين، مج: 1، بور سعيد: مكتبة الثقافة الدينية، 2002.
- ✓ [1]البكري أبو عبيد، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**. وهو جزء من كتاب المسالك والممالك. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، د. ت.
- ✓ البخاري محمد بن اسماعيل صحيح البخاري بشرح ابن حجر، كتاب الآذان باب بدء الآذان، بيروت، ط، 1976م.
- ✓ البيدق أبو بكرعلي الصنهاجي: أخبار المهدي بن تومرت وبداية الدولة الموحدية، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1971م.
- ✓ الحسن محمد الوزان الفاسي: وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، (د،ت)،ج2.
- ✓ الحميري محمد بن عبد المنعم: **الروض المعطارفي خبر الأقطار**، تح: إحسان عباس، بيروت: مطابع هيدلبرغ، ط: 2، 1948.
- ✓ يحي بن خلدون: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مطبعة بير فونطانا الشرقية، 1903، ج1.

- ✓ شهاب الدين النويري: **نهاية الأرب في فنون الأدب.** ج: 24، تح: عبد المجيد ترحيني، بيروت: دار الكتب العلمية 2004. ط: 1.
- ✓ عبد الرحمان بن خلدون: مقدمة، تح: بد الله محمد الدروسي، دمشق: دار يعرب، ط1، 1425هـ-2004م.
- ✓ عبد الرحمن بن خلدون: **المقدمة.** مراجعة: سهيل زكار، بيروت: دار الفكر،2001م.
- ✓ الغبريني أبو العباس: عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، الجزائر، دار البصائر، ط1، 2007.
- ✓ القزويني زكريا بن محمد بن محمود: آثار البلاد وآخبار العباد، بيروت: دار صادر،(د،ط) (د. ت).
- ✓ مارمول كربخال: **إفريقيا.** ج2، تر: محمد حجي وآخرون، الرباط: دار الشروق للمعرفة1989م.
- ✓ مجهول: **الاستبصار في عجائب الأمصار، وصفة مكة والمدينة، ومصر، وبلاد المغرب**. تع: سعد زغلول عبد الحميد، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، د،ت.
- ✓ الهروي محمد بن أحمد الأزدي: تهذيب اللغة، بيروت: دار التراث العربي،.2001م.
- ✓ الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحي: **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب،** تح: محمد حجي، وزارة الشؤون الإسلامية المغربية، المغرب، ج7. وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف المغربية: 1981م.
- ✓ ياقوت الحموي: **معجم البلدان،** ج: 1، بيروت: دار صادر1977م.

المعاجم ودائرة المعارف:

- ✓ ابن منظور: لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، القاهرة: دار المعارف، ط 1981م.
- ✓ الفيروزآبادي: القاموس المحيط، بيروت: مكتب تحقيق مؤسسة الرسالة، (د،ط)، 2005.
- ✓ احمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، القاهرة: عالم الكتب، ط1، 1429هـ/2008م.
- ✓ أحمد الشناوي وآخرون: مادة الزاوية، بيروت، دائرة المعارف الإسلامية، مج8، (د،ت).

المراجع باللغة العربية :

- ✓ إبراهيم العبيدي التوزري: :تاريخ التربية في تونس، تونس، الشركة الوطنية للتوزيع، (د،ط)، (د،ت)، ج1.

- ✓ أحمد البهنسي: عمارة المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، رسالة دكتوراه،,كلية العلوم الانسانية، جامعة عين شمس، 1996.
- ✓ بجاية ميناء مغاربي: دمينيو فاليرين، ترج: علاوة عمارة. الجزائر: منشورات المجلس الأعلى للغة العربية.2014م.
- ✓ بسام كامل عبد الرزاق شقدان، تلمسان في العهد الزياني، الجزائر،2007.
- ✓ بن حموش مصطفى: مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني من خلال مخطوط ديفولكس والوثائق العثمانية، دار الأمة، الجزائر، 2010م، ط02.
- ✓ بوزيان الدراجي: نظم الحكم في دولة بني عبد الوادي الزيانية. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1993م.
- ✓ ثروت عكاشة، القيم الجمالية في فن العمارة الإسلامية القاهرة: دار الشروق،ط1، 1994.
- ✓ جمال حمدان: جغرافية المدن، القاهرة: عالم الكتب، ط2، (د، ت).
- ✓ الحاج محمد بن رمضان شاوش: باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة بني زيان، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط 2011م، ج1.
- ✓ خير الدين وانلي: المسجد في الإسلام، عمان، المكتبة الإسلامية، ط3: 1414هـ.
- ✓ روباربرونشفيك: تاريخ افريقيا في العهد الحفصي، منالقرن13 الى نهاية القرن15، تح، حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1988م.
- ✓ زكي محمد حسن، في الفنون الإسلامية .القاهرة: دار الكتب العلمية، (د،ط)،2004.
- ✓ ساطع الحصري: دراسات عن مقدمة ابن خلدون. مصر: دار المعارف 1953.
- ✓ سعيد بن علي بن وهف القطحاني: المساجد مفهوم، وفضائل، وأحكام، وحقوق، وآداب في ضوء الكتاب والسنة،القاهرة، شبكة الألوكة. السعودية، دار الأمل 2018م.
- ✓ السيد عبد العزيز سالم، العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها .الكويت: عالم الفكر. (د،ط)، 1988.
- ✓ صالح بن قربة: تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، دار القصة للنشر، الجزائر، 2007.
- ✓ عبد الجليل قربان: التعليم بتلمسان في العهد الزياني (633-962هـ/1235-1555م)، جامعة النجاح الوطنية، (د،ت)، 2002م.

- ✓ عبد الحليم عويس: دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، القاهرة، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط2، 1411هـ/1991م.
- ✓ عبد الكريم عزوق: تطور المآذن في الجزائر، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، ط1، 2006م.
- ✓ عبد المالك موساوي: فن الزخرفة في العمارة الإسلامية، دار السبيل،تلمسان، ط1، 2011م.
- ✓ عثمان عثمان اسماعيل،تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى . الرباط: الهلال العربي للنشر، 1992.
- ✓ قبيلة فارس المالكي: تاريخ العمارة عبر العصور، الأردن: دار المناهج للنشر والتوزيع، ط1، 1432هـ-2011م.
- ✓ كريشي أرنولد بيجر،تراث الإسلام في الفنون الفرعية والتصوير .دمشق: دار الكتاب العرب1984.
- ✓ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي الشيرازي: القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج2، 1398هـ/ 1978م.
- ✓ مجموعة كتاب وباحثين: فنون العمارة في المدينة الإسلامية، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط 1، 2019م.
- ✓ محمد الطمار: المغرب الأوسط في ظل صنهاجة، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية،ط، 2010.
- ✓ محمد الطيب عقاب: لمحات من العمارة والفنون الإسلاميةّ في الجزائر، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، ط1، 2002م.
- ✓ محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين .الرباط: دار المغرب . 1397)هـ1988.
- ✓ محمد بن عميرة ولطيفة بن عميرة: تاريخ بجاية في ظل مختلف الأنظمة السياسية من عهد القرطاجين إلى عهد الأتراك العثمانين، الجزائر: وزارة الثقافة دار الفاروق2019م.
- ✓ محمد بن محمد الحسين ..تاريخ العروس في جواهر،بيروت: دار الهداية، 2002.
- ✓ محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (د، ط. د.ت).

- ✓ محمد الأمين بلغيث: الرباط بالمغرب الإسلامي ودوره في عصر المرابطين والموحدين، دراسة تاريخية وحضارية، دار بن حزم، بيروت. 2017.
- ✓ محمد مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث. تقديم: محمد الميلي، بيروت: دار الغرب الاسلامي (د، ت). ج: 2.
- ✓ مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية الأحوال الاقتصادية والثقافية، الجزائر: منشورات الحضارة، 2009م.
- ✓ مصطفى بن يحي: أدوار العمارة الدينية في المغرب الأوسط مابين القرن الخامس إلى التاسع الهجري (ق 11-15م)، عمان، منشورات ألفا للوثائق، ط1، 2020.
- ✓ ناجي جلول: الرباطات البحرية بإفريقية في العصر الوسيط، تونس، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والإجتماعية، 1999م.
- ✓ الهادي روجي ادريس: **الدولة الصنهاجية**. تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من ق10م- 12م. تر: حمادي الساحلي، بيروت: دار الغرب الاسلامي 1992م. ط: 1. ج: 2.
- ✓ يحي بوعزيز: تلمسان عاصمة المغرب الأوسط. الجزائر: وزارة الثقافة2007م.
- ✓ يوسف الكتاني: مدرسة أولاد الإمام البخاري بالمغرب، دار لسان العرب، بيروت، (د،ت)، ج1.

المقالات :

- ✓ إبراهيم فرغل محمد: قيساريات وأسواق مدينة تلمسان في العصر الزياني 633-962هـ/1235-1554م، مجلة كلية اللغة، العدد33.
- ✓ حكيم بن يلس: جمالية العناصر المعمارية في تلمسان ' المساجد نموذجاً'، جامعة مجلة أنثروبولوجيا الأديان، 2013م، العدد 12.
- ✓ عبد العزيز لعرج: النظام المعماري لمدارس المغرب، مجلة آثار، مجلد 07، العدد01، 2009م.
- ✓ عزوق عبد الكريم: التحصينات الدفاعية الإسلامية ببجاية، مقال منشور بمجلة دراسات وأبحاث، مج: 5، عدد: 12.
- ✓ علاوة عمارة: التطور العمراني والتجاري لمدينة بجاية في العصر الوسيط، مجلة الأمير بد القادر لعلوم الإسلامية، العدد 26، 2008م.
- ✓ مولاي بلحميسي: مدينة ورقلة في رحلة العياشي مجلة الأصالة، عدد خاص، رقم41، سنة 1977م,
- ✓ خالد محمد مصطفى عزب: فقه عمارة المدن الإسلامية. مجلة كتاب الأمة، ع: 58، ربيع الأول 1418هـ، السنة 17.

- ✓ جلجال فاطمة: التنقيب الأثري لموقع سدراتة (ورقلة) وأهم اكتشافاته المعمارية مجلة دراسات وأبحاث، المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد: 15، عدد: 1 جانفي 2023.
- ✓ وليام وجورج مارسي: المعالم الأثرية العربية لمدينة تلمسان، ترجمة: مراد بلعيد، وعلي محمد بورويبة وفلة عبد مزيان، ط1 ،الأصالة للنشر، الجزائر، 2011.

الرسائل الجامعية:

- ✓ محمد سعيداني: الأندلسيون وتأثيراتهم الحضارية في المغرب الأوسط من القرن السابع، إلى القرن التاسع الهجريين من القرن الثالث عشر إلى الخامس عشر الملاديين، أطروحة دكتوراه،إشراف: أ.د محمد بن أحمد، جامعة احمد بن بلة وهران، 1436-1437هـ - 2015-2016م.
- ✓ عمارة فاطمة الزهراء: :المدراس التعليمية بتلمسان خلال االقرنين (9-8هـ/14-15م)، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران السانيا، 1430-1431هـ/2009-2010م.
- ✓ درويش بريشي: تطور المسكن الإسلامي في مدينة تلمسان دراسة فنية أثرية، مذكرة ماجيستار، تلمسان، 2011-2012م.
- ✓ فتيحة شلوق: العمارة الدينية بمنطقة الزاب دراسة أثرية، مذكرة ماجيستار، إشراف: صالح بن قربة، جامعة بسكرة، 2007-2008م.
- ✓ علوي مصطفى، تلمسان من خلال كتب الرحالة والجغرافيين المغاربة والأندلسيين من القرن السابع الهجري إلى القرن التاسع الهجري الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين، أطروحة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، 1435-1436/2014-2015م.
- ✓ بوتشيش أمينة: بجاية دراسة تاريخية وحضارية ق 6 -7 هـ،رسالة ماجستير إشراف عبدلي لخضر، قسم التاريخ جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان 2007- 2008م
- ✓ بلحاج طرشاوي،العمران ومقاصد الشريعة، رسالة دكتوراه، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة تلمسان، 2009.
- ✓ خالدي عبد الرزاق: دور الطرق التجارية في إنشاء المدن في المغرب الأوسط، مدينة ورقلة أنموذجا، مذكرة ماجستير، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2008، 2009.
- ✓ محروق إسماعيل (2018) .العمارة الإسلامية في كتب رحالة المغرب الإسلامي من القرن 7هـ إلى القرن 10هـ 13 /م حتى 16م .،كلية العلوم الإنسانية،جامعة تلمسان، 2017/2016.
- ✓ محمد عياش: الاستحكامات العسكرية المرينية من خلال مدينتي فاس الجديد والمنصورة بتلمسان، دراسة تاريخية أثرية. إشراف صالح بن قربة، جامعة الجزائر، معهد الآثار، 2005-2006م.

المراجع باللغة الأجنبية:

- Koumas Ahmed et Nafa Cherazade: L'Algérie et son patrimoine , éditions du patrimoine, paris 2003.
- Daumas (G) . Le Sahara Algérien, paris,1845.
- Bourouiba (r):l'architecture militaire de l'Algérie mediavale.OPU. Alger. 1983.
- Marguerite Van Berchem (2017), Le site archéologique, in Sedrata
- **Marguerite Van Berchem** (2017), Le site archéologique, in Sedrata Histoire et archéologie d'un carrefour du Sahara médiéval à la lumière des archives inédites de Marguerite van Berchem, Collection de la Casa de Velázquez n° 161, Madrid,.
- Idem (1965), Le Palais de Sedrata dans le désert saharien, in stadies, in islamique art and architecture in honour of professor K.A.C.creswell, American university in Cairo, Cairo.
- Victor Largeu (1897), Le pays de Rirha, Ouargla: voyage à Rhadamès. Front Cover, Paris.
- Harold Tarry (1884), Les villes berbères de la vallée de l'Oued Maya, in revue d'ethnographie
- Marguerite Van Berchem (2017), Le site archéologique, in Sedrata Histoire et archéologie d'un carrefour du Sahara médiéval à la lumière des archives inédites de Marguerite van Berchem.
- Koumas ahmed et Nafa Cherazade: L'Algérie et son patrimoine , éditions du patrimoine, paris 2003.

فهرس الأعلام

أ

أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي,74، 124، 146
ابن جبير90
ابن سعيدالمغربي16
ابن عذاري المراكشي 09، 14.
ابن مرزوق72، 106، 153.
ابن مريم96، 159
أبوالحسن المريني96، 106
أبوالربيع53، 59، 124، 146.
أبو تاشفين يوسف24، 71،. 114
أبو زيان119.
أبوسعيدعثمان74، 92.
أبوعلي الحسن بن إسحاق79، 124، 146.
أبي إبراهيم بن السلطان يحي74
أبي القاسم إسماعيل بن عبيد الله الشيعي , 35، 38
أبي حمموسى الأول,73، 93، 128،130، 119،157
أبي حمو موسى الثاني09، 49، 77، 96، 106.
أبي زكريا الزواوي69.
أبي زيدعبد الرحمان93
أبي سعيدعثمان,74
أبي عبد الله الشوذي الإشبيلي77.
أبي علي الفحام94
أبي عنان فارس ,77
أبي مدين شعيب, 76،69، 77، 101، 106.
أبي يعقوب المريني93،
أحمدالحسن الغماري105.
أحمد بن الحسن الغماري105
أحمد بن الحسين72.
أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد الونشريسي 97، 159.

إ

إدريس الأول70.
إدريس الثاني54، 70.
إبراهيم المصمودي177 ,176 ,68 ,60 ,
الإدريسي10، 15، 25، 27، 28، 29، 33، 35، 44، 116، 118، 126، 141، 156، 208.
الإمام المهدي67، 68، 151.
البكري30،15،09، 37، 39، 43،48، 122، 123.
الحسن الوزان29،17، 30، 31، 32، 33،35، 43، 47، 92، 118، 119، 146، 157.
الحميري 10، 16، 17، 28،
الزيري محمد بن البعبع 28، 28
السلجوقي نظام الملك89، 90

العبدري29، 30.
العقباني129 ,86 ,
القزويني19، 20، 113، 209.

ع

عباد ابن مليح اللمطي97.
عبد الرحمن الثعالبي103.
عبدالرحمن بن رستم36.
عبد المومن بن علي33، 118.
عبيد الله البكري149 ,31 ,16 ,11 ,
عقبة بن نافع الفهري38.
علي بن أبي طالب35.

ق

قسطنطين القيصر الروماني29.

ك

كربخال17.

ل

لويسيان غولفان41.

ي

ياقوت الحموي26، 32، 39، 125.
يزيد مخلد بن كيداد النفزي الزناتي38.
يعقوب بن عبدالحق74.
يغمراســـن37، 70، 71، 74، 91ن 92، 106، 119، 147.

المقديسي ,150
المنصـــــور الحمادي41، 43، 49، 91، 115، 122، 142، 145
الناصـــــر26، 27، 41، 42، 44، 76، 115، 135، 141، 145.
النويري207 ,102 ,21 ,
أولاد الإمام72، 73، 93، 97.

ب

بلكين31،27، 32، 38، 143.

ح

حمـــــــاد08، 10، 15، 27، 38، 125، 126، 142.

خ

ابـــــن خلـــــدون08،09، 10،20، 111،23،21، 114، 145.

ز

زكريا يحي الزواوي102

س

سلمان الفارسي130.
سيدي الحلوي76، 77، 103، 172.
سيدي الكتاني103.
سيدي عبد القادر128، 134.

ص

صلاح الدين90.

فهرس الأماكن

أ

أكادير36,
الأندلس,3, 9, 10, 18, 24, 25, 30,
32, 35, 36, 38, 42, 43, 49, 53,
55, 56, 57, 58, 59, 61, 66, 95,
98, 117, 123, 151,
الأوراس,38
أرشقول37,
أشير35, 36, 41, 115, 125,
أغمات56,
إيكجان26,
إيكوسيوم31,
اشبيلية54, 87,
إقليم توات,17,
افريقية , 9, 10, 15, 23, 26, 27, 28,
29, 30, 43, 45, 100, 125, 161,

ب

باغاية 26, 37, 38, 129,
بجاية, 2, 3, 4, 5, 6, 7, 8, 9, 10, 11,
15, 16, 17, 24, 25, 26, 27, 28,
36, 40, 41, 42, 43, 44, 45, 46,
47, 50, 63, 66, 67, 69, 100,
101, 105, 107, 111, 115, 126,
127, 128, 135, 136, 137, 138,
140,141, 143, 144, 149,146,
150, 156, 161, 164, 165, 167,
169, 195, 199, 200,
البصرة 23,
البطحة , 36,
البليدة 24,
بعلبك,56,
بلاد السودان .32 .13
بلد العناب28 ,
بلزمة, 26,
بونة15 .29.28.17.16. .
البويرة 24,
بحر الروم,14,
بحر الظلمات14,
بريكة24,
بسكرة, 26,216,

ت

تازا, 16,17,
تاسالة,28,
تبسة26,
تلمسان,2, 3, 4, 5, 6, 7, 8, 9, 10,
11, 12, 15, 16, 17, 25, 32, 36,
37, 38, 40, 47, 48, 49, 63, 69,
70, 71, 74, 76, 77, 78, 85, 86,
88, 89, 91, 92, 93, 94, 96,
103, 105, 106, 107, 108, 111,
114, 117, 118, 119, 120, 121,
122, 123, 125, 126, 127, 130,
132, 140, 146, 147, 148, 151,
152, 153, 154, 157, 158, 159,

خ

خنشلة31 ,

ج

الجزائر,28 ,27 ,24 ,23 ,22 ,21 ,12 ,
37, 38, 57, 61, 64, 69, 76, 78,
82, 84, 91, 93, 94, 101, 103,
108, 117, 128, 144, 145, 146,
147, 148, 149, 150, 151, 154,

ر

رابطة المتمنّي, 101,
رباط العباد, 101
رباط المنستير, 100,
رباط شاكر, 99,
رباط ماسه, 100,

س

سبيبة, 27, 28,
سدراتة ,4, 8, 24, 34, 35, 79, 117,
129, 148, 154, 155,
سويسرات15, 16,
سيرتا29,
سطيف26,

ش

شلف26,

ط

طبنة24, 26,39, 39, 40, 115,
160, 161, 162, 163, 164, 165,
166, 167, 168,
تنس, 24, 32, 36, 38, 116 ,
تونس **, 28, 41, 46, 51, 87,**
تيهرت, 2, 5, 33, 34, 36, 114, 123,

ج

جبل جزول,35,

ح

حومة اللؤلؤة ,150,
حومة المذبح 150,

م

المدرسة التاشفينية,, 94,95
المدرسة القمحية90,
المدرسة النظامية,90,
المدرسة اليعقوبية, 77, 96, 97,
المسجد الأقصى, 55,
المسجد الحرام, 20,55,
المغرب الإسلامي , 1, 2, 5, 9, 14,
15, 18, 23, 24, 39, 40, 47, 55,
59, 61, 70, 60, 97, 99, 101,
102, 103, 108, 110, 112, 113,
133, 140, 168,
المسيلة,2, 32, 35, 36,39, 41, 83,
111, 115, 116, 117, 123, 125,
المشور,73, 87, 111, 125, 126,
147, 152, 153,

127, 132, 134, 141, 142, 143,
145, 148, 149, 150, 161,
القيروان,1, 15, 39, 41, 83, 84,
125, 161,

م

متيجة,24, 30,
مراكش,9, 14, 57, 84, 87, 91,
مستغانم, 15,137,
مسجد الإمام المهدي67, 68, 151,
مسجد الريحان,67, 68, 151,
مسجد النطائين,151,
مصر,2, 20, 21, 22, 23, 41, 45,
46, 56, 90, 143,
مكة,26, 56, 59,
مليانة,16, 31, 32, 38, 116,
منداس, 36,
ميورقة,30,

ن

نكور, 55
نهر تافنا, 36,
نهر سطفسيف,36,
نوميديا,34,

و

وادي ملوية,,16,
وادي ميزاب,32,
وارجلان,15, 32, 33, 34,
وانشريس30,

ع

عنابة,14,
عين الدفلى, 24,

غ

غرداية,32,
غليزان, 24,

ف

فاس 24, 50, 56, 75, 91, 92, 147,
162, 163,
الفسطاط,23,

ق

قارة كريمة,34,
قالمة,26,
قرطبة,24,57,71,83,
قزرونة,24,
قسنطينة,4, 5, 16, 29, 39, 47, 83,
103, 123,
قصر اللؤلؤة ,27, 67, 84, 128, 144,
145, 146, 150,
قلعة أبي الطويل,111, 115, 125,
قلعة بني حماد,23, 41, 67, 83, 123,
125, 126, 132, 143, 144,
قورايا,25,
القدس,54,
القلعة, 2, 5, 8, 10, 27, 28, 40, 41,
42, 43, 68, 84, 116, 124, 126,

ورقلة, 32, 33, 124, 131, 134, 149, 215,
وهران , 4, 5, 31, 32, 35, 47, 49, 111, 131, 138, 158, 169,

ي

يابسة, 30,

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات	
مقدمة	11-1
الفصل الأول:المغرب الأوسط وحواضره	12
المبحث الأول:موقع المغرب الأوسط الأوسط وحواضره(ق5هـ – ق10هـ)	13
المبحث الثاني: تطور المدينة والعمران في بلاد المغرب الأوسط	17
المبحث الثالث: حواضر ومدن المغرب الأوسط	24
المبحث الرابع: مقومات حواضر المغرب الأوسط	39
الفصل الثاني: مظاهر العمارة الدينية في المغرب الأوسط مابين القرنين (5-9هـ/11-15م)	62
المبحث الأول: الجوامع والمآذن والمدارس في المغرب الأوسط	63
1.الجوامع والمساجد الحمادية والزيانية وأدوارهما الحضارية	63
2.خصوصيات مآذن بلاد المغرب الأوسط	81
3.المدارس في بلاد المغرب الأوسط	89
المبحث الثاني: الأربطة والزوايا والأضرحة في بلاد المغرب الأوسط	98
1.الأربطة	98
2.الزوايا	101
3.الأضرحة	104
الفصل الثّالث: مظاهر العمارة العسكرية في حواضر بلاد المغرب الأوسط (5-9هـ/11-15م)	109
المبحث الأول: البعد العسكري في اختطاط المدن وبنائها	111
المبحث الثاني: التحصينات البرية	112
المبحث الثالث: التحصينات البحرية	135
الفصل الرابع: مظاهر العمارة المدنية في حواضر بلاد المغرب الأوسط (5-9هـ/11-15م)	139
المبحث الأول: العمارة المدنية للقصور والأحياء	140
1. القصور	140
2.عمارة الأحياء	149
المبحث الثاني: مظاهر العمارة الاقتصادية الأسواق والفنادق والحمامات	156
1. الأسواق	156
2.الفنادق	161
3.الحمامات	163
خاتمة	166
الملاحق	171
قائمة المصادر والمراجع	207

فهرس الأعلام	218
فهرس الأماكن	221
فهرس الموضوعات	227
الملخص	230

الملخص

تعددت الدراسات التّي تتضمن موضوع الحواضر الإسلامية ببلاد المغرب الإسلامي وتنوعت، كما أسهب في ذلك العديد من المؤرخين خاصة في الجانبين السياسي والعسكري؛ ونال الجانب الحضاري قسطا وافرا من دراساتهم لحواضر المغرب الإسلامي، في حين نجد أن الحديث ضمن تلك الدراسات حول الجانب المعماري تجلى في الكثير من الأحيان بشكل عرضي وعام ونسبي دون الخوض بشكل مباشر في هذا الميدان ومرد ذلك أن الولوج في هذا الجانب يتطلب دراسة أثرية أكثر منها تاريخية.

أما فيما يخص المدن والحواضر بمختلف أشكالها المعمارية وشتى ألوانها فقد تشكلت هذه الحواضر والمدن الإسلامية ببلاد المغرب الإسلامي بعد السنوات الأولى للفتوحات الإسلامية، وقد تلى بعد ذلك بناء العديد منها في كل أصقاع المغرب الإسلامي.

ولقد اعتنى الحكام بتشييد العمارة الدينية في المغرب الأوسط وخاصة عند بروز المدن كحواضر، ونجد ذلك مجسدا في كل من حاضرتي: بجاية الحمادية وتلمسان الزيانية، فبنيت بذلك المساجد وعرفت مآذنها، وشيدت المدارس والزوايا والأربطة، ولا نستثني بذلك باقي مدن المغرب الأوسط من هذه العمائر الدينية، إلا أن الاهتمام كان حول الحاضرتين السابقتين للذكر.

أمّا من ناحية الجانب العسكري والذي شمل بناء وتحصين المدن كبناء الأسوار والحصون والأبراج ودور صناعة السفن والأسلحة وأبراج المراقبة، وقد خضعت تلك المنشآت العمرانية لشروط ووفق ضوابط ووفق الموقع الجغرافي للمدينة، وشكلت هذه المنشآت تحصينا منيعا لمدن وحواضر بلاد المغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطة.

كما دعت الضرورة إلى ظهور عمائر مدنية شكلت صروحا هامة في تلك الفترة كالقصور، وكذلك من مظاهر العمارة المدنية الأسواق والخانات، والحمامات، وما يمز هذه الأخيرة هو أن طابع التشييد لم يكن بذلك الاهتمام الكبير لأن معظمها شيدها العامة من الساكنة، كذلك ما طبعت به بطابع البساطة من حيث المظهر.

Summary

Studies that include the subject of Islamic cities in the countries of the Islamic Maghreb have been numerous and varied, and many historians have elaborated on this, especially on the political and military sides. The cultural aspect received a large share of their studies of the cities of the Islamic Maghreb, while we find that the talk within those studies about the architectural aspect appeared many times in a casual, general and relative manner without delving directly into this field. This is because entering into this aspect requires more archaeological study than Historical.

As for cities and metropolises in their various architectural forms and colors, these Islamic metropolises and cities were formed in the Islamic Maghreb after the first years of the Islamic conquests, and many of them were later built in all parts of the Islamic Maghreb.

The rulers paid attention to the construction of religious architecture in the Central Maghreb, especially when the cities emerged as metropolises, and we find this embodied in each of the two metropolises: Bejaia Al-Hammadia and Tlemcen Al-Ziyaniya. Thus, mosques were built, their minarets were known, and schools, corners, and boulevards were built, and we do not exclude the rest of the cities of the Central Maghreb from these religious buildings. However, the interest was about the two aforementioned attendees.

As for the military side, which included building and fortifying cities, such as building walls, forts, towers, houses for manufacturing ships and weapons, and watchtowers, these urban facilities were subject to conditions and controls and according to the geographical location of the city, and these facilities formed an impregnable fortification for the cities and metropolises of the countries of the Central Maghreb during the intermediate period.

Necessity also called for the emergence of civil buildings that formed important edifices in that period, such as palaces, as well as the manifestations of civil architecture: markets, inns, and baths. What distinguishes the latter is that the character of the construction was not of that great interest because most of them were built by the common population, as well as what was imprinted with the character of the construction. Simplicity in appearance.